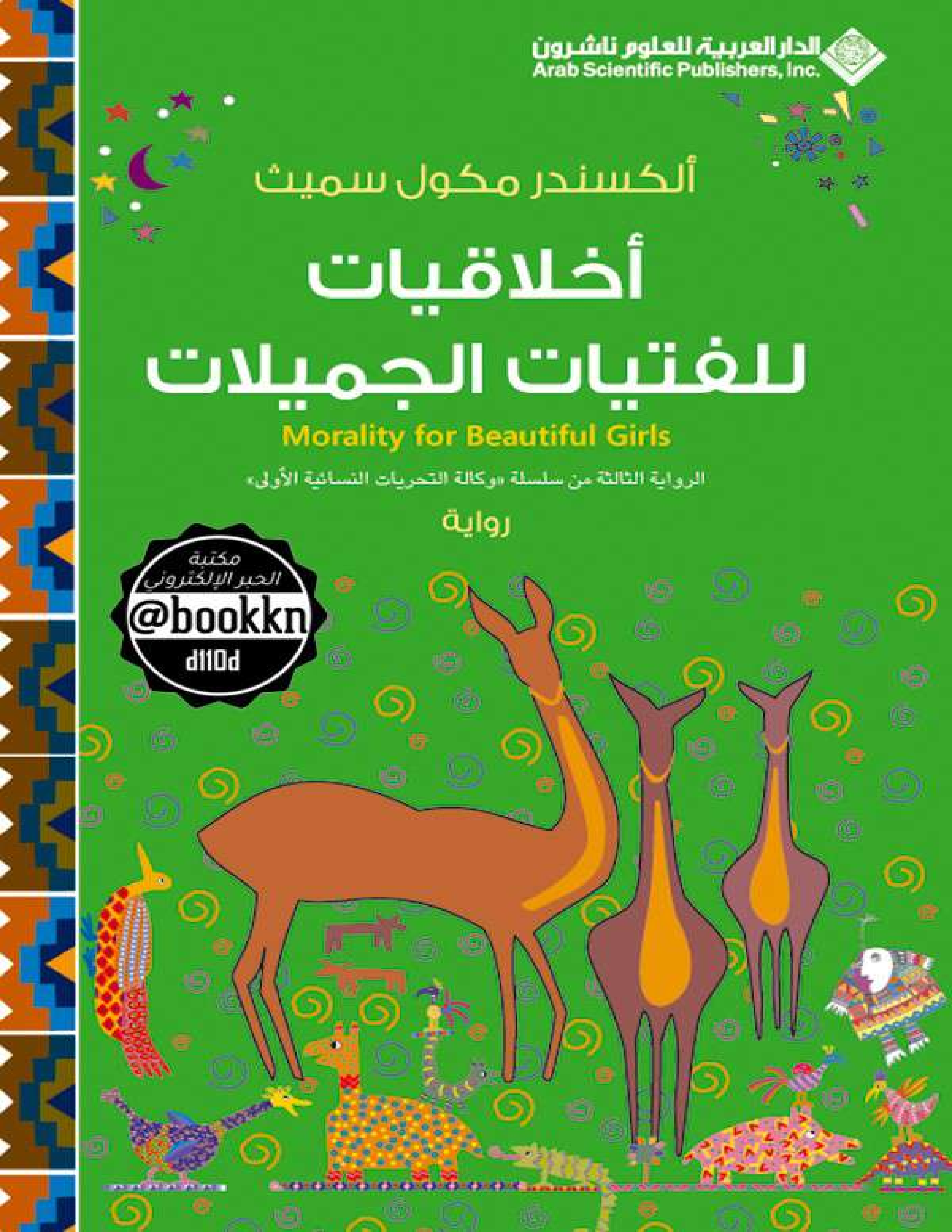

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
ألكسندر مكول سميث
أخلاقيات للفتيات الجميلات
Morality for Beautiful Girls
الرواية الثالثة من سلسلة «وكالة التحريات النسائية الأولى»
رواية
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d

أخلاقيات للفتيات الجميلات

Morality for Beautiful Girls

الرواية الثالثة من سلسلة «وكالة التحريات النسائية الأولى»

رواية

تأليف
ألكسندر مكول سميث

ترجمة
أفنان محمد سعد الدين

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL



تتقدم الدار العربية للعلوم ناشرون بالشكر من المؤلف الكسندر ماك كول سميث
الذي تبرع بجميع حقوقه المادية إلى دار الأيتام الإسلامية في بيروت

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Morality for Beautiful Girls

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Abacus

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ – 2010 م

ISBN: 978-614-421-057-4



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لتنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (9611+)



تليجرام
مكتبة سور الأزبكية

الفصل الأول

العالم من وجهة نظر شخص آخر

كانت السيدة راموتسوي، ابنة الراحل أوبيد راموتسوي من مدينة موتشودي قرب العاصمة غابورون في بتسوانا بإفريقيا، الخطيبة المعلنة للسيد جي إل بي ميتكوني، ابن الراحل بمفاميليتس ميتكوني من مدينة تلوكوينغ الذي كان مزارعاً ووكيلاً مسؤولاً عن مكتب السكة الحديدية. إنه زواج ناجح، باعتقاد الجميع. فهي مؤسسة وكالة التحريات النسائية الأولى ومالكتها، وهي وكالة التحريات الوحيدة في بتسوانا المختصّة بشؤون كل من السيدات وغيرهن. أما هو فمالك كراج تلوكوينغ رود سبيدي موتورز، ويشاع عنه أنه أحد أفضل الميكانيكيين في بتسوانا بشكل عام. لطالما اعتبر الناس من الجيد أن يتمتع الزوجان باهتمامات مستقلة في الزواج. فالزيجات التقليدية التي يتخذ فيها الرجل كل القرارات ويسيطر على كل موجودات المنزل تعتبر جيدة جداً بالنسبة إلى النساء اللواتي يردن أن يقضين وقتهن بطهو الطعام والعناية بالأطفال، ولكن الزمن تغير. فأصبح من الأفضل، بالنسبة إلى النساء المثقفات اللواتي يردن تحقيق هدف ما في حياتهن، لكل من الزوجين أن يدير عمله الخاص.

كان هناك أمثلة عديدة على زيجات من هذا النوع. فهناك السيدة ميكتيتس، على سبيل المثال، والتي كانت قد أسست مصنعاً صغيراً متخصصاً بصناعة السراويل القصيرة الكاكية اللون لصبية المدارس. كانت قد بدأت عملها في غرفة خياطة ضيقة سيئة التهوية في الجزء الخلفي من منزلها، ولكنها استطاعت عن طريق توظيف بنات عمها ليقمن بالتفصيل والخياطة لديها أن تؤسس أحد أفضل المشاريع الصناعية في بتسوانا بتصدير السراويل القصيرة إلى ناميبيا لتواجه المنافسة العنيفة من مصانع الملابس الكبيرة في كيب تاون. كانت قد تزوجت السيد سيدريك ميكتيتس، الذي كان يدير متجرين لبيع المشروبات في غابورون العاصمة، ثم كان قد افتتح واحداً آخر مؤخراً في فرانسيس تاون. لقد نشر مقال محرج بعض الشيء عنهما في الصحيفة المحلية تحت عنوان لافت للانتباه يقول: *صانعة السراويل القصيرة تقترن بتاجر المشروبات*. كانا عضوين في غرفة التجارة. وبدا من الواضح للجميع أن السيد ميكتيتس يشعر بفخر عارم حيال نجاح مشروع زوجته الصناعي.

بالطبع، كان على المرأة التي تملك مشروعاً تجارياً ناجحاً أن تحذر من أن الرجل الذي يأتي للتقرب منها ليس مجرد شخص يبحث عن وسيلة لقضاء بقية حياته في راحة. إذ كانت قد حدثت هناك حالات كثيرة من هذا القبيل. وقد لاحظت السيدة راموتسوي أن زيجات كتلك أدت إلى نتائج أليمة بشكل لا مفر منه تقريباً. فإما أن يبدأ الرجل بالشرب أو المقامرة بأرباح مشاريع زوجته أو أنه يحاول أن يدير المشروع فيدمره. كان الرجال بارعين بالأعمال التجارية، كما اعتقدت السيدة

راموتسوي، ولكن كانت النساء بارعات بنفس القدر أيضاً. فالنساء كنّ مقتصدات بطبيعتهن، إن توجب عليهن ذلك، ويحاولن أن يدرن المنازل بميزانية ضيقة ليطعمن أفواه الأطفال الجائعة. فالأطفال كانوا يأكلون كثيراً، على ما بدا. ولم يكن بالإمكان أن يطهو المرء أبداً كميات كافية من اليقطين أو العصيدة لملء بطونهم الجائعة. أما بالنسبة إلى الرجال، فلم يبدُ عليهم أنهم سعداء أكثر من الوقت الذي يتناولون فيه كميات كبيرة من اللحم الباهظ الثمن. وكان هذا الوضع برمته مثيراً للإحباط نوعاً ما.

قال الناس عندما سمعوا بخطوبتها للسيد جي إل بي ميتكوني: "هذا زواج ناجح. فهو رجل يُعتمد عليه. وهي سيدة صالحة جداً. ستغمرهما السعادة وهما يديران عمليهما ويحتسيان الشاي معاً".

أدركت السيدة راموتسوي صحة هذا الرأي العام، واتفقت معه تماماً. فبعد زواجها الكارثي من نوت موكوتي، عازف الجاز وزير النساء الفاسد، قد قررت أنها لن تتزوج مجدداً قط بالرغم من العروض المتكررة التي قدمت لها. في حقيقة الأمر، لقد رفضت الزواج من السيد جي إل بي ميتكوني في البداية عندما طلب يدها للمرة الأولى، ثم وافقت عليه بعد ستة أشهر. فقد أدركت أن أفضل اختبار لزوج المستقبل لا ينطوي على أكثر من طرح سؤال بسيط جداً يمكن لكل امرأة – أو على الأقل لكل امرأة لها والد صالح – أن تطرحه وستعرف الإجابة عنه في أعماقها. فقد طرحت ذلك السؤال على نفسها في ما يتعلق بالسيد جي إل بي ميتكوني، فبدت لها الإجابة واضحة كالشمس.

فكرت في نفسها: "ما قد يكون رأي والدي الراحل؟". طرحت السؤال بعد أن كانت قد وافقت على السيد جي إل بي ميتكوني كما يمكن للمرء أن يسأل نفسه في ما إذا كان قد انعطف في المنعطف الصحيح عند تقاطع الطرق. تذكرت المكان الذي كانت فيه عندما طرحت السؤال على نفسها. فقد ذهبت في نزهة مسائية على القدمين قرب السد على طول أحد تلك الممرات التي تؤدي في هذا الاتجاه وذاك عبر حقول الشوك. فتوقفت فجأة، ورفعت نظرها إلى السماء متأملة ذلك اللون الأزرق الباهت المتلاشي الذي يصبح مخططاً باللون الأحمر النحاسي عندما تميل الشمس إلى المغيب. كان ذلك وقتاً هادئاً من اليوم، وهي بمفردها. وهكذا، تفوهت بالسؤال بصوت مرتفع وكأن هناك شخصاً آخر ليسمعه.

رفعت نظرها إلى السماء، وكأنها تتوقع إلى حدّ ما أن تجد الإجابة هناك. لكنها لم تكن هناك بالطبع. ومع ذلك فقد عرفتها من دون الحاجة إلى أن تنظر. إذ لم يخامرها أي شك في أن أوبيد راموتسوي، الذي كان قد قابل كل أنواع الرجال خلال ذلك الوقت الذي كان قد عمل فيه في تلك المناجم البعيدة وتعرف على نقاط ضعفهم جميعاً، كان سيوافق على زواجها من السيد جي إل بي

ميتكوني. وإذا كان الوضع كذلك، فلا ينبغي عليها إذاً أن تخشى شيئاً حيال زوج المستقبل لأنه سيعاملها معاملة طيبة.

أما الآن، وبينما هي جالسة في مكتب وكالة التحريات النسائية الأولى مع مساعدتها السيدة ماكوتسي، الخريجة المميزة لعامها من كلية بتسوانا للسكرتاريا، راحت السيدة راموتسوي تفكر متأملة في القرارات التي كان زواجها الوشيك من السيد جي إل بي ميتكوني سيجبرها على اتخاذها. وأكثر القضايا إلحاحاً بالطبع هي المكان الذي سيعيشان فيه. وقد تم اتخاذ قرار بهذا الشأن بسرعة نوعاً ما. فقد كان منزل السيد جي إل بي ميتكوني قرب نادي قوة دفاع بتسوانا القديم، بالرغم من أنه جذاب بلا شك بشرفته القديمة المبنية على الطراز الاستعماري وسقفه البراق المصنوع من الصفيح، غير مناسب كمنزلها هي الكائن في زيبرا درايف. إذ إن حديقته شحيحة النباتات ولا تبدو في الواقع أكثر من باحة مكنوسة، في حين أنها كانت تملك في حديقة منزلها تشكيلة من أشجار البَبَّايا (البَبْو) وبعض أشجار الأكاسيا الظليلة ورقعة مزروعة بالبطيخ بذلت في سبيلها أقصى عناية. وفوق كل ذلك، وعندما يتعلق الأمر بداخل المنزل، فهناك القليل مما يزكي ممرات منزل السيد جي إل بي ميتكوني البسيطة وغرفه المهجورة وخاصة عند مقارنتها بتصميم منزلها هي. فشعرت أنه من المؤسف أن تتخلى عن غرفة جلوسها ذات البساط المريح على الأرضية الإسمنتية الحمراء المصقولة ورف الموقد وعليه الطبق التذكاري الذي يحمل صورة سير سيريتس خاما، الزعيم ورجل الدولة والرئيس الأول لدولة بتسوانا. كما أنها وضعت في الزاوية آلة الحياكة التي تعمل بالمدوس والتي ما زالت تعمل بشكل جيد حتى في أثناء انقطاع التيار الكهربائي عندما تتوقف آلات الحياكة الحديثة عن العمل.

لم يتوجب عليها أن تقول الكثير بهذا الشأن. في حقيقة الأمر، لم يكن القرار بتفضيل منزل زيبرا درايف يحتاج حتى إلى توضيح. بعد أن أقنعت السيدة بوتوكوين، مديرة مزرعة الأيتام، السيد جي إل بي ميتكوني أن يصبح والداً بالتبني لصبي يتيم وشقيقته المقعدة، انتقل الطفلان إلى منزلها، واستقرا فيه على الفور. بعد ذلك، أصبح أمراً متفقاً عليه أن العائلة بأكملها ستعيش في زيبرا درايف بعد فترة وجيزة. أما في الوقت الحاضر، كان السيد جي إل بي ميتكوني سيظل مقيماً في منزله الخاص، ولكنه سيتناول عشاءه في زيبرا درايف.

كان هذا هو الجزء السهل من الأمر. لكن تبقى هناك مسألة العمل. بينما كانت السيدة راموتسوي جالسة عند طاولة مكتبها مراقبة السيدة ماكوتسي وهي تخلط الأوراق في خزانة الملفات في مكتبهما الصغير، انشغلت أفكارها بالمهمة الصعبة التي تنتظرها. لم يكن ذلك قراراً سهلاً لتتخذه، ولكنها كانت قد اتخذته. أصبح يتوجب عليها أن تقوي من عزيمتها لتنفذه. فهذه هي حال العمل.

إن أحد أكثر القوانين المبدئية في إدارة الأعمال هو أن التسهيلات ينبغي ألا تكون مزدوجة بشكل لا فائدة منه. فبعد أن تتزوج والسيد جي إل بي ميتكوني، سيغدو لديهما مشروعان ومكتبان. وهما مشروعان مختلفان جداً بالطبع، ولكن كراج تلوكوينغ رود سبيدي موتورز تمتع بمساحة مكتبية كبيرة. فهذا يجعل من المنطقي تماماً بالنسبة إلى السيدة راموتسوي أن تدير وكالتها من هناك. فقامت بتفحص بناء مكتب السيد جي إل بي ميتكوني عن كثب، وطلبت نصيحة من بنَّاء محلي.

فقال لها بعد أن تفحص الكراج ومكتبه: "لن نواجه أي صعوبة. إذ يمكنني أن أفتح باباً على ذلك الجانب هناك. وعندئذٍ، يمكن لزبائن عملك أن يدخلوا من دون أن تكون لهم أي علاقة بكل الأشياء الملوثة بالشحم في تلك الورشة".

كان ضم المكتبين لبعضهما بعضاً سيمكن السيدة راموتسوي من أن تجعل مكتبها والدخل الذي سيعود عليها منه يشكل أهمية قصوى. أما في الوقت الحاضر، فالحقيقة المُرَّة عن وكالة التحريات النسائية الأولى هي أنها ببساطة لا تجني مالاً كافياً. ولا يعني هذا أنه لا يوجد زبائن، فهناك وفرة منهم، ولكن الأمر وحسب هو أن عمل التحريات يستهلك وقتاً طويلاً. ولا يستطيع الناس ببساطة أن يدفعوا لقاء خدماتها إن هي طلبت منهم أجراً ساعياً واقعياً. ويعتبر دفع مبالغ بسيطة من المال لقاء حل مشكلة ما أو العثور على شخص مفقود معقولاً تماماً، وعادة ما تكون مستحقة، ولكن الوصول بتلك المبالغ إلى الآلاف من أجل إنجاز نفس العمل هو مسألة أخرى كلياً. فيمكن للشك أن يكون مفضلاً على المعرفة التامة إن كان الفرق بينهما يتطلبُ إنفاق مبالغ باهظة من المال.

كان العمل ليسير من دون ربح أو خسارة لولا الأجور التي توجب على السيدة راموتسوي أن تدفعها للسيدة ماكوتسي. وكانت في الأصل قد وظفتها كسكرتيرة لها على أساس أنه يجب لكل مشروع يرغب أصحابه له بأن يكون مهماً أن تعمل فيه سكرتيرة، ولكنها سرعان ما أدركت المواهب الكامنة خلف تلك النظارة الكبيرة. فعملت على ترقية السيدة ماكوتسي إلى مرتبة مساعدة تحرية، وهي وظيفة منحتها المكانة التي تصبو إليها. لكن السيدة راموتسوي شعرت أنها مجبرة على أن ترفع راتبها في نفس الوقت. هكذا، أودت بحساب الوكالة الحالي إلى الخسارة.

ناقشت السيدة راموتسوي المسألة مع السيد جي إل بي ميتكوني، فاتفق معها أنها لا تملك خيارات كثيرة.

قال لها بنبرة جادة: "إذا استمررت على هذا النحو، فسيفضي بك الأمر إلى الإفلاس. لقد رأيت هذا يحدث لبعض المشاريع التجارية. فهم يعينون شخصاً ما يدعى مديراً قضائياً. وهو يشبه الوحش. وهذا أمر مزعج جداً ليصيب مشروعاً تجارياً".

طقطقت السيدة راموتسوي بلسانها، وقالت: "إنني لا أريد أن يحدث هذا. فستكون نهاية مؤسفةً جداً للمشروع".

نظرا إلى بعضهما البعض بكآبة، ثم تكلم السيد جي إل بي ميتكوني قائلاً: "سيتوجب عليك أن تصرفيها من الخدمة. فقد اضطررت لصرف بعض الميكانيكيين في الماضي. وهذا ليس إجراء سهلاً، ولكن هذه هي طبيعة العمل".

قالت السيدة راموتسوي بهدوء: "لقد طارت من الفرح عندما قمت بترقيتها. فلا يمكنني فجأة أن أقول لها إنها لم تعد تحرية. ليس لها أهل في غابورون. فأهلها يعيشون في بوبونونغ. وهم فقراء جداً، حسبما أظن".

هز السيد جي إل بي ميتكوني رأسه، وقال: "هناك عدد كبير من الفقراء. والكثير من هؤلاء الناس يعانون أشد المعاناة، ولكنك لا تستطيعين أن تحافظي على عملك من دون الاعتماد على شيء، وهذا أمر معروف تماماً. فيجب عليك أن تجمعي ما تجنينه ثم تطرحين منه ما تنفقينه. والفرق بينهما هو الربح. وفي حالتك هذه، هناك إشارة ناقص أمام ذلك الرقم. فلا تستطيعين إذاً..."

قاطعته السيدة راموتسوي قائلة: "لا أستطيع أن أصرفها الآن. فأنا بمثابة أم لها. وهي ترغب من كل قلبها أن تصبح تحرية، كما أنها مجدة في عملها".

أطرق السيد جي إل بي ميتكوني نحو قدميه. وساوره شك في أن السيدة راموتسوي تتوقع منه أن يقدم لها عرضاً ما، ولكنه لم يبدُ واثقاً من ذلك الشيء. ترى هل تتوقع منه أن يعطيها مالاً؟ هل تريده أن يدفع فواتير وكالة التحريات النسائية الأولى بالرغم من أنها قد وضحت له تماماً أنها تتوقع منه أن ينصرف إلى عمله في الكراج بينما تهتم هي بزبائنها وبمشكلاتهم المقلقة؟

قالت السيدة راموتسوي وهي تنظر إليه بصرامة جعلته يخاف منها ويعجب بها في آن معاً: "إنني لا أريدك أن تدفع شيئاً".

فقال بسرعة: "بالطبع لا. إنني لم أفكر في ذلك على الإطلاق".

تابعت السيدة راموتسوي قائلة: "بالإضافة إلى ذلك، فأنت بحاجة إلى سكرتيرة في الكراج. ففواتيرك دائماً في حالة فوضى، أليس كذلك؟ وأنت لا تحتفظ أبداً بكمبيالات بالمبالغ التي تدفعها لمتدربيك العديمي الفائدة. وأحسبك تمنحهما قروضاً أيضاً. هل تحتفظ بسجل لذلك؟"

بدا السيد جي إل بي ميتكوني مراوغاً. ترى كيف اكتشفت أن كلاًّ من المتدربين مدين له بأكثر من ستمئة بولا من دون أن يظهر أي دلائل على قدرته على السداد؟

سألها مندهشاً من اقتراحها: "هل تريدين منها أن تأتي وتعمل لدي؟ وماذا عن وظيفتها كتحرية؟"

لم تجب السيدة راموتسوي للحظة. إذ إنها لم تفكر في أي شيء بعد، ولكن الخطة بدأت تتوضح الآن. فإذا نقلا مكتبها إلى الكراج، فعندئذٍ ستتمكنُ السيدة ماكوتسي من أن تحتفظ بعملها كمساعدة تحرية بينما يمكنها في نفس الوقت أن تنجز أعمال السكرتاريا التي يحتاج إليها الكراج.

هكذا يستطيع السيد جي إل بي ميتكوني أن يدفع لها أجراً مقابل ذلك، مما يعني أن حسابات الوكالة سترتاح من قدر كبير من العبء. فكان هذا، بالإضافة إلى الأجرة التي ستتلقاها السيدة راموتسوي من تأجير مكتبها الحالي، سيجعل الوضع المالي يبدو أسلم بشكل ملحوظ.

شرحت اقتراحها للسيد جي إل بي ميتكوني. وبالرغم من أنه لطالما عبر عن شكوكه من فائدة السيدة ماكوتسي، فقد شعر بجاذبية خطة السيدة راموتسوي. إذ إنها على الأقل ستدخل السرور على قلبها. وهذا هو ما يتمنى حدوثه أكثر من كل شيء آخر.

تنحنحت السيدة راموتسوي.

بدأت قائلة: "إنني أفكر في المستقبل، يا سيدة ماكوتسي".

كانت السيدة ماكوتسي، التي أنهت إعادة ترتيب خزانة الملفات، قد أعدت لكل منهما فنجاناً من شاي الأعشاب، وجلست مسترخية لقضاء فترة استراحة مدتها نصف ساعة تأخذها عادة في الساعة الحادية عشرة صباحاً. كانت قد بدأت بقراءة نسخة قديمة من مجلة ناشونال جيوغرافيك، أعارتها إياها ابنة عمها المعلمة.

قالت: "المستقبل؟ نعم، فهذا موضوع مثير للاهتمام دائماً. لكنه ليس مثيراً للاهتمام بقدر الماضي، كما أعتقد. فهناك مقال جيد جداً في هذه المجلة، يا سيدة راموتسوي. سأعيرك إياها بعد أن أنتهي من قراءتها. فهي تتعلق بأسلافنا في شرق إفريقيا. هناك شخص يدعى الدكتور ليكي، وهو دكتور مشهور جداً مختص بالعظام".

أصيبت السيدة راموتسوي بحيرة، وقالت: "دكتور في العظام؟" فعبرت السيدة ماكوتسي عن نفسها جيداً جداً بكل من لغة السيتسوانا واللغة الإنكليزية. ولكنها كانت بين الحين والآخر تستخدم تعابير غريبة بعض الشيء. ما هو دكتور العظام؟ بدا وكأنه طبيب مشعوذ، ولكن لا يستطيع المرء بالطبع أن يصف الدكتور ليكي بأنه طبيب مشعوذ.

قالت السيدة ماكوتسي: "نعم. إنه يعرف كل شيء يتعلق بالعظام القديمة. فهو ينبشها ويخبرنا عن ماضينا. انظري إلى هذه".

رفعت صورة مطبوعة على صفحتين. فحدقت السيدة راموتسوي لكي تميزها. ولاحظت أن عينيها لم تعودا كسابق عهدهما. وخشيت أن ينتهي بها الأمر عاجلاً أو آجلاً كالسيدة ماكوتسي بنظارتها الكبيرة الغريبة.

"هل هذا هو الدكتور ليكي؟"

أومأت السيدة ماكوتسي، وقالت: "نعم، يا سيدتي. هذا هو. إنه يحمل جمجمة تخص شخصاً بدائياً جداً. لقد عاش ذلك الشخص قبل وقت طويل".

فوجدت السيدة راموتسوي نفسها مأخوذة، وقالت: "ومن كان هذا الشخص البدائي؟"

شرحت السيدة ماكوتسي قائلة: "تقول المجلة إنه شخصٌ عاش عندما كان هناك أناس قليلون في العالم. وقد كان البشر يعيشون في شرق إفريقيا آنذاك".

"الجميع؟".

"نعم. الجميع، كأهلي وأهلك، وكل الناس. ونحن ننحدر من نفس المجموعة الصغيرة من الأسلاف. وقد أثبت الدكتور ليكي هذا الأمر".

استغرقت السيدة راموتسوي في التفكير، وقالت: "إذاً فنحن جميعاً إخوة وأخوات نوعاً ما؟"

فقالت السيدة ماكوتسي: "نعم. فنحن شعب واحد. والإسكيمو والروس والنيجيريون هم جميعاً مثلنا. فلنا نفس الدماء ونفس الحمض النووي".

سألت السيدة راموتسوي: "الحمض النووي؟ وما هذا؟"

شرحت السيدة ماكوتسي قائلة: "إنه شيء موجود لدى كل الكائنات".

فكرت السيدة راموتسوي متأملة في مضمون هذه المعلومات للحظة. ولم يكن لديها أي اعتراض على الإسكيمو أو الروس، ولكن النيجيريين يعتبرون مسألة مختلفة. ولكن السيدة ماكوتسي على حق. فإن كانت الأخوة العالمية بين البشر تعني شيئاً، فهي تعني أن يتقبل المرء النيجيريين أيضاً.

قالت: "لو أن الناس يعلمون أنهم جميعاً ينتمون للأسرة نفسها، لأصبحوا أكثر لطفاً مع بعضهم بعضاً، ألا تعتقدين ذلك؟"

وضعت السيدة ماكوتسي المجلة، وقالت: "إنني واثقة من أنهم سيفعلون ذلك. فلو عرفوا هذا، لوجدوا من الصعب جداً أن يرتكبوا أشياء غير لطيفة مع الآخرين. وقد يودون حتى أن يساعدوا الآخرين أكثر".

التزمت السيدة راموتسوي الصمت. فقد جعلت السيدة ماكوتسي من الصعب عليها أن تتابع، ولكنها والسيد جي إل بي ميتكوني اتخذا القرار. فلم يعد أمامها خيار سوى أن تزف لها الخبر السيئ.

فقالت محاولة أن تبدو حازمة: "هذا كله مثير للاهتمام. ويجب أن أقرأ المزيد عن الدكتور ليكي عندما يتاح لي وقت أكثر. أما في الوقت الحالي، فيتوجب عليّ أن أقضي كل وقتي بالعمل على استمرار هذا المشروع. فالحسابات ليست جيدة، كما أؤكد لك. وحساباتنا ليست كتلك الحسابات التي ترينها منشورة في الصحف. فتلك الحسابات تحتوي على عمودين: الدخل والنفقات. والعمود الأول هو دائماً أكبر من الثاني. أما بالنسبة إلى مشروعنا فالعكس هو الصحيح".

توقفت عن الكلام وهي تراقب تأثير كلامها على السيدة ماكوتسي. فبدا من الصعب عليها أن تعرف ما تفكر فيه وهي تضع تلك النظارة.

تابعت كلامها قائلة: "لذلك سيتوجب عليّ أن أفعل شيئاً ما. فإن لم أفعل شيئاً، فسنوضع تحت الإدارة القضائية أو سيأتي مدير المصرف ليحجز على المكتب. فهذا هو ما يحدث لمشروع ما إن لم يحقق ربحاً. وهذا وضع سيئ جداً".

راحت السيدة ماكوتسي تحدق بطاولة مكتبها. ثم رفعت نظرها إلى السيدة راموتسوي. وللحظة، انعكست أغصان شجرة الشوك خارج النافذة في زجاج نظارتها. وجدت السيدة راموتسوي هذا محبطاً. إذ بدا لها الأمر وكأنها تنظر إلى العالم من خلال وجهة نظر شخص آخر. وبينما هي تفكر في ذلك، حركت السيدة ماكوتسي رأسها فرأت السيدة راموتسوي انعكاس صورة فستانها الأحمر.

قالت السيدة ماكوتسي بهدوء: "إنني أبذل ما بوسعي. وآمل أن تمنحيني فرصة. فأنا سعيدة جداً بالعمل كمساعدة تحرية هنا. ولا أريد أن أبقى مجرد سكرتيرة لبقية حياتي".

توقفت عن الكلام، ونظرت إلى السيدة راموتسوي. وفكرت السيدة راموتسوي في نفسها عما كان ليبدو عليه الأمر لو أنها في مكان السيدة ماكوتسي، خريجة كلية بتسوانا للسكرتاريا بمعدل سبعة وتسعين بالمئة في الامتحان النهائي ولكن من دون أن يكون لها أحد سوى بعض الأقارب في مكان بعيد في بوبونونغ. كانت تعلم أن السيدة ماكوتسي ترسل لهم مالاً لأنها رأتها في إحدى المرات في مكتب البريد تشتري حوالة بريدية بقيمة مائة بولا. تخيلت أنها قد أخبرتهم بشأن الترقية وأنهم شعروا بالفخر لأن قريبتهم تبلي بلاء حسناً في عملها في غابورون، في حين أن واقع الأمر هو أن قريبتهم تعمل بدافع الإحسان من السيدة راموتسوي وأن السيدة راموتسوي في الحقيقة هي من تعيل أولئك الناس في بوبونونغ.

تحول نظرها إلى طاولة مكتب السيدة ماكوتسي وعليها صورة الدكتور ليكي، التي ما زالت مكشوفة، وهو يحمل الجمجمة. وراح الدكتور ليكي ينظر من الصورة مباشرة نحوها وكأن لسان حاله يقول: *حسناً، يا سيدة راموتسوي. وماذا عن مساعدتك؟*

تنحنحت وقالت: "يجب أن لا تقلقي. فستظلين مساعدة تحرية، ولكننا سنحتاج منك إلى أن تقومي ببعض الواجبات الأخرى أيضاً عندما ننتقل إلى كراج تلوكوينغ رود سبيدي موتورز. فالسيد جي إل بي ميتكوني يحتاج إلى المساعدة ببعض الأعمال المكتبية. وهكذا، سيكون نصفك سكرتيرة، ولكن نصفك الآخر سيبقى مساعدة تحرية". وتوقفت ثم أضافت بسرعة: "ولكن يمكنك أن تسمي نفسك مساعدة تحرية. فهذا هو لقبك الرسمي".

بقية اليوم، التزمت السيدة ماكوتسي الهدوء أكثر من عادتها. فأعدت للسيدة راموتسوي شاي فترة العصر صامتة. ناولتها الفنجان من دون أن تقول شيئاً، ولكن بدا عليها في نهاية المطاف أنها قد تقبلت مصيرها.

فقالت: "أعتقد أن مكتب السيد جي إل بي ميتكوني يقبع في حالة من الفوضى العارمة. ولا يمكنني أن أعتقد أنه يقوم بأعماله المكتبية بشكل ملائم. فالرجال لا يحبون ذلك النوع من الأشياء".

شعرت السيدة راموتسوي بالراحة لتغير نبرة الحديث، وقالت: "إنه في حالة فوضى حقيقية. وستسدين له خدمة جليلة جداً إن قمت بترتيبه".

فقالت السيدة ماكوتسي: "لقد تعلمنا القيام بذلك في الكلية. فقد أرسلونا في أحد الأيام إلى مكتب في حالة سيئة جداً، وتوجب علينا أن نقوم بترتيبه. فذهبت بنفسي مع ثلاث فتيات جميلات. وقضت الفتيات الجميلات كل الوقت وهن يتحدثن مع الرجال في المكتب بينما أنجزت أنا كل العمل".

قالت السيدة راموتسوي: "آه، يمكنني أن أتخيل ذلك".

فتابعت السيدة ماكوتسي قائلة: "عملتُ حتى الساعة الثامنة ليلاً. وخرجت الفتيات جميعهن مع الرجال إلى المشرب في الساعة الخامسة وتركنني هناك. في صباح اليوم التالي، قال مدير الكلية إننا قمنا جميعاً بعمل جيد وسنحرز علامة متفوقة على تلك المهمة. فسرت الفتيات الأخريات كثيراً. وقلن إنه رغم أنني قمت بمعظم الترتيب فقد قمن هن بالجزء الصعب من العمل، وهو يتمثل بمنع الرجال من التدخل. وكن يعتقدن ذلك فعلاً".

هزت السيدة راموتسوي رأسها، وقالت: "إنهن فتيات عديمات الفائدة، وهناك الكثير من الناس على هذه الشاكلة في بتسوانا في هذه الأيام. ولكنك على الأقل تعرفين أنك نجحت بمجهودك الخاص. فقد أصبحت مساعدة تحرية. ولكن ما هي وظيفتهن؟ لا شيء، على ما أعتقد".

نزعت السيدة ماكوتسي نظارتها الكبيرة ولمعت العدستين بعناية بزاوية منديلها.

قالت: "إن اثنتين منهما متزوجتان من رجلين ثريين جداً. ولديهما منزلان كبيران قرب فندق "صن". لقد رأيتهما تتمشيان في الأنحاء واضعتين نظارتين شمسيتين باهظتي الثمن. أما الثالثة فقد سافرت إلى جنوب إفريقيا وأصبحت عارضة أزياء. فقد رأيت صورتها في إحدى المجلات. وتزوجت من رجل يعمل مصوراً في تلك المجلة ويملك الكثير من المال أيضاً. فأصبحت سعيدة جداً. ويدعى زوجها بولارويد خومالو. وهو وسيم جداً ومعروف جداً".

أعادت وضع النظارة، ونظرت إلى السيدة راموتسوي.

فقالت السيدة راموتسوي: "ستلتقين برجل تتزوجينه يوماً ما. وسيكون ذلك الرجل محظوظاً جداً".

هزت السيدة ماكوتسي رأسها، وقالت: "لا أعتقد أنه سيكون هناك زوج لي. فليس هناك ما يكفي من الرجال في بتسوانا. وهذه حقيقة معروفة. فكل الرجال متزوجون الآن، ولم يبقَ أحد".

قالت السيدة راموتسوي: "حسناً، ليس عليك أن تتزوجي. فيمكن للفتيات العازبات أن يحظين بحياة جيدة جداً في هذه الأيام. وأنا عازبة، ولست متزوجة".

فقالت السيدة ماكوتسي: "ولكنك ستتزوجين السيد جي إل بي ميتكوني. ولن تبقي عازبة لوقت طويل. ويمكنك..."

فقاطعتها السيدة راموتسوي قائلة: "لستُ مضطرة للزواج به. فقد كنتُ سعيدة بمفردي. وكان يمكنني أن أبقى على حالي".

توقفت عن الكلام. ولاحظت أن السيدة ماكوتسي قد نزعت نظارتها مجدداً، وأخذت تلمعها مرة أخرى بعد أن اكتست بغشاوة.

فكّرت السيدة راموتسوي للحظة. لم تكن قط قادرة على أن ترى التعاسة من دون أن تفعل شيئاً حيالها. وهذه صفة صعبة ليتمتع بها التحري الخاص لأن هناك تعاسة كثيرة تتبع عملها، ولكنها لم تستطع أن تقسي قلبها مهما حاولت. فقالت: "آه، وهناك شيء آخر. إنني لم أخبرك أن هذه الوظيفة الجديدة ستدعى: مديرة مساعدة لكراج تلوكوينغ رود سبيدي موتورز. فهذا ليس مجرد عمل سكرتاري".

فرفعت السيدة ماكوتسي نظرها وابتسمت.

قالت: "هذا جيد جداً. إنك لطيفة جداً معي، يا سيدتي".

قالت السيدة راموتسوي متخلية عن حذرها: "وستكون هناك زيادة في الراتب. ليس كثيراً، ولكن أكثر بقليل. فستتمكنين من أن ترسلي المزيد من المال لأهلك في بوبونونغ".

ابتهجت السيدة ماكوتسي بشكل ملحوظ لسماع هذه المعلومة. فبدت الحيوية واضحة في الطريقة التي نفذت بها المهمات الأخيرة لليوم وطباعة بضع رسائل كانت السيدة راموتسوي قد كتبت مسودتها بالكتابة العادية. أصبحت السيدة راموتسوي الآن هي من تبدو مكتئبة. فقررت أن تلك غلطة الدكتور "ليكي". فلو لم يأتِ ذكره في الحديث، لربما توخت الحذر أكثر. إذ إن الأمر لم يقتصر على قيامها بترقية السيدة ماكوتسي مجدداً، ولكنها منحتها، من دون استشارة السيد جي إل بي ميتكوني، زيادة في الراتب. فكان سيتوجب عليها أن تخبره بذلك، بالطبع، ولكن ربما ليس بعد. فلطالما يوجد وقت مناسب لزف الأخبار الصعبة. يجب على المرء أن ينتظر اللحظة المناسبة. وعادة ما يتخلى الرجال عن دفاعاتهم بين الحين والآخر. ويعتمد فن كون المرأة امرأة ناجحة وهزمها للرجال في لعبتهم على اقتناصها اللحظة المناسبة. عندما تحين تلك اللحظة، تستطيع المرأة أن تستغل رجلاً بسهولة، ولكن لا يزال عليها أن تنتظر حلولها.

الفصل الثاني

صبيٌ في الليل

نصبوا خيامهم في مستنقع أوكافانغو خارج مدينة مون وتحت غطاء من أشجار الموباني العملاقة. وإلى الشمال، على بعد أقل من نصف ميل، بدت البحيرة ممتدة كشريط أزرق اللون على القفر المتموج بألوان الأخضر والبني. كان عشب السافانا هنا وافراً وكثاً. فشكل غطاء جيداً للحيوانات. وإن أراد المرء أن يرى الفيلة، فيجب عليه أن يكون دقيق الملاحظة لأن وفرة أوراق النباتات تجعل من الصعب عليه أن يتبين أجسامها الرمادية الضخمة وهي تتحرك ببطء في جولاتها بحثاً عن الطعام.

كان المخيم، وهو عبارة عن مجموعة شبه دائمة مؤلفة من خمس أو ست خيام كبيرة منصوبة على شكل نصف دائرة، ملكاً لرجل يعرفونه باسم السيد بولا (أي: مطر)، ويُعزى هذا الاسم إلى اعتقاد أثبتته التجربة في مناسبات كثيرة أن حضوره يستجلب هطول المطر. كان السيد بولا سعيداً أن يسمح لهذا الاعتقاد أن يدوم إلى الأبد. فالمطر مرادف لحسن الطالع. من هنا تأتي صيحة *بولا! بولا! بولا!* التي يطلقها الناس عندما يحتفلون بحسن الطالع أو يتوسلون للحصول عليه. كان رجلاً نحيل الوجه له جلد مشدود مليء بكلف الشمس كوجه أي رجل أبيض أمضى كل حياته تحت أشعة الشمس الإفريقية. الآن اتحد النمش وبقع الشمس معاً فأصبح لوناً واحداً جعلته بنياً كله ككعكة شاحبة خبزت في الفرن.

قال أحد رجاله وهم جالسون حول النار في ليلة من الليالي: "إنه يصبح شيئاً فشيئاً مثلنا. ويوماً ما سيستيقظ صباحاً ويجد نفسه أحد مواطني بتسوانا. فلونه مثل لوننا".

وقال آخر: "لا يمكنك أن تجعل شخصاً أحد مواطني بتسوانا بمجرد تغيير جلده، فمواطنو بتسوانا ينتمون إليها من الداخل. وأفراد قبيلة الزولو يشبهوننا من الخارج ولكنهم من الداخل يبقون دائماً من الزولو. ولا يمكنك أن تحول الزولو إلى مواطنين من بتسوانا. فهم مختلفون عنا".

خيم الصمت وهم متحلقون حول النار يفكرون ملياً في هذه القضية.

قال أحد مقتفي الآثر أخيراً: "هناك أمور شتى تجعل المرء ما هو عليه، ولكن أهم شيء هو رحم الأم. فهناك يتغذى الطفل بالحليب الذي يجعله مواطناً من بتسوانا أو من الزولو. فحليب أم من بتسوانا يغذي طفلاً من بتسوانا وحليب أم من الزولو يغذي طفلاً من الزولو".

قال أحد الشبان: "لا يتغذى الجنين بالحليب في رحم أمه. فليست الأمور هكذا".

فحدجه الرجل المسن بنظرة غاضبة، وقال: "إذاً كيف يتغذى الطفل في الأشهر التسعة الأولى، يا سيد "ذكي"، يا خريج كلية العلوم؟ أتقصد أنه يأكل دم أمه؟ أهذا هو ما تقوله؟".

هز الشاب رأسه، وقال: "لست واثقاً مما يتغذى به الطفل، ولكنه لا يشرب الحليب إلى أن يولد. وأنا متأكد من هذا".

أبدى الرجل المسن نظرة احتقار، وقال: "أنت لا تعلم شيئاً. فأنت لم تنجب أطفالاً، أليس كذلك؟ ما الذي تعرفه عن هذا الموضوع؟ أنت رجل لم ينجب أطفالاً قط يتحدث عن الأطفال وكأن له أطفالاً عدة. أما أنا فلدي خمسة أطفال. خمسة!".

رفع أصابع إحدى يديه، وكرر قائلاً: "خمسة أطفال، كلهم تغذوا بحليب أمهم!".

التزموا الصمت. أما حول النار الأخرى، فجلس السيد بولا واثنان من زبائنه على كراسٍ بدلاً من جذوع الأشجار. وبدا صوت حديثهم مجرد تمتمة غير مفهومة تصل عبر المكان إلى الرجال الآخرين، ولكنهم التزموا الصمت الآن أيضاً. وفجأة نهض السيد بولا.

قال: "هناك شيء ما هناك، ربما يكون ابن آوى. فتلك الحيوانات تقترب أحياناً إلى هذا الحدّ من النار. أما الحيوانات الأخرى فتنأى بنفسها عنها".

وقف أحد الزبونين، وهو رجل في منتصف العمر يعتمر قبعة ذات حافة عريضة متدلية، وحدق في الظلام.

سأل: "أيمكن أن يقترب فهد إلى هذا الحد؟"

قال السيد بولا: "أبداً! فهو مخلوق شديد الخجل".

كانت ثمة امرأة جالسة على كرسي قماشي يمكن طيه. فأدارت رأسها بسرعة.

وقالت: "من المؤكد أن ثمة شيء هنا. أصغِ إليه".

وضع السيد بولا الفنجان الذي كان يمسكه، ونادى رجاله عبر المكان.

"يا سايمون! يا موتوبي! ليحضر أحدكما لي ضوءاً كشافاً بأقصى سرعة!"

نهض الشاب، ومشى بسرعة إلى خيمة المعدات. وبينما هو يمشي ليعطي الضوء لرئيسه، سمع هو أيضاً ضجة، فأشعله على النور القوي، ومرر أشعته على دائرة الظلام المحيطة بالمخيم. فرأوا أشكال الشجيرات والأشجار الصغيرة وكلها تبدو مسطحة بشكل غريب وأحادية البعد في شعاع الضوء المستكشف.

سألت المرأة: "ألن يخيفه هذا ويحمله على الهرب؟".

قال السيد بولا: "قد يفعل هذا، ولكننا لا نريد أي مفاجئات، أليس كذلك؟".

تأرجح الضوء حول المكان، وتحرك بشكل وجيز ليضيء أوراق شجرة الشوك. ثم هبط إلى جذع الشجرة، وهناك رأوه.

قال الرجل ذو القبعة المتدلية: "إنه طفل! طفل؟ طفل هنا؟".

كان الطفل يحبو على أطرافه الأربعة. فالتقطه الضوء، كما يلتقط ضوء السيارة الأمامي حيواناً برياً، وبدا مسمراً في مكانه بتردد وارتباك.

صاح السيد بولا: "يا موتوبي، أحضر ذلك الطفل. أحضره إلى هنا".

تحرك الرجل ذو المصباح بسرعة عبر المرج العشبي موجهاً شعاع الضوء على الشخص الصغير. وعندما وصل إليه، تحرك الطفل فجأة عائداً نحو الظلام، ولكن بدا على شيء ما أنه يبطئ من حركته، فتعثر وسقط. مد الرجل يده إلى الأمام، وأسقط المصباح وهو يفعل ذلك. فصدر صوت حاد عندما أصاب المصباح إحدى الصخور. وانطفأ الضوء، ولكن الرجل كان قد أمسك بالطفل بحلول ذلك الوقت، ثم رفعه وهو يركل ويتلوى بين يديه.

فقال له بلغة السيتسوانا: "لا تقاومني، أيها الصغير. فأنا لن أؤذيك، لن أؤذيك".

ركل الطفل بقدميه، فأصابت قدمه معدة الرجل.

"لا تفعل هذا!" وهز الطفل وضربه بقوة على كتفه وهو يحمله بيد واحدة.

"هيا! هذا هو ما سيحدث لك إن ركلت عمك! وسيكون هناك المزيد من الضرب إن لم تحسن التصرف!"

فتوقف الطفل عن المقاومة، بعد أن فاجأته الضربة، وأصبح مخدراً.

تمتم الرجل وهو يمشي نحو السيد بولا: "وهناك شيء آخر. تفوح منك رائحة بشعة".

وضع الصبي على الأرض بجانب الطاولة حيث كان المصباح قائماً وهو لا يزال متشبثاً برسغ الطفل تحسباً أن يحاول الهرب أو حتى أن يركل أحد الشخصين الأبيضين.

قال السيد بولا وهو ينظر إلى الأسفل نحو الصبي: "إذاً هذا هو ابن آوى الذي كنا نبحث عنه".

قالت المرأة: "إنه عارٍ لا تستر جسمه خرقة قماش واحدة".

سأل أحد الرجال: "كم يبلغ عمره؟ لا أحسبه يتعدى السادسة أو السابعة على الأكثر".

رفع السيد بولا الآن المصباح، وقربه من الطفل، وحرّك الضوء على جلده الذي بدا مليئاً بندبات صغيرة وخدوش وكأن أحداً قد جره عبر شجيرات الشوك. وبدت معدته غائرة وأضلاعه ظاهرة. وكانت مؤخرته الصغيرة منكمشة ولحمها ضامر. وعلى قوس إحدى قدميه كان يوجد قرح مفتوح محاط بإطار أبيض ووسطه داكن.

رفع الطفل نظره عالياً إلى الضوء، وبدا عليه أن ينكمش من العيون الفاحصة.

سأله السيد بولا بلغة السيتسوانا: "من أنت؟ ومن أين أتيت؟".

حدّق الطفل بالضوء ولم يستجب للسؤال.

قال السيد بولا لموتوبي: "جرّب أن تكلمه بعدة لغات. فأنت تستطيع أن تعبر عن نفسك بلغات كثيرة، يا موتوبي. وحاول أن تحصل على أي استجابة منه".

جلس الرجل القرفصاء لكي يصبح بمستوى الطفل. وبدأ يتحدث بلغة واحدة ويلفظ الكلمات بعناية كبيرة من دون أن ينال أي رد فعل ثم ينتقل إلى لغة أخرى. فقابل الصبي كل هذا بسكوت مطبق.

قال موتوبي: "لا أظن أن هذا الطفل يجيد الكلام. وأعتقد أنه لا يفهم ما أقوله".

اقتربت المرأة إلى الأمام، ومدت يدها لتلمس كتف الطفل.

وقالت: "أيها الصغير المسكين، يبدو وكأنك..."

ثم صاحت، وسحبت يدها بسرعة بعد أن عضها الصبي.

انتزع الرجل الصبي من يده اليمنى، وجره إلى قدميه. ثم انحنى إلى الأمام، وصفعه بقوة على وجهه، وصاح: "كلا، أيها الطفل السيئ!"

استشاطت المرأة غضباً، ودفعت الرجل بعيداً. وصاحت: "لا تضربه. إنه خائف. ألا تلاحظ هذا؟ إنه لم يقصد أن يؤذيني. ما كان ينبغي عليّ أن أحاول لمسه".

قال الرجل بهدوء: "لا يمكننا أن نسمح لطفل بعض الناس. فنحن لا نرحب بهذا التصرف".

لفت المرأة يدها بمنديل، ولكن بقعة دم صغيرة تسربت من خلاله.

قال السيد بولا: "سأحضر لك بعض البنيسيلين لمعالجة هذا الجرح. فالعضة البشرية قد تكون مؤذية".

نظروا جميعاً إلى الطفل الذي تمدد على الأرض، وكأنه يستعد للنوم، ولكنه راح ينظر إليهم ويراقبهم".

قال موتوبي: "تفوح من الطفل رائحة غريبة. هل لاحظت ذلك، يا سيد بولا؟".

استنشق السيد بولا الرائحة، وقال: "إنها ربما رائحة الجرح لأنه متقيح".

قال موتوبي: "كلا، إنني أتمتع بحاسة شم قوية. ويمكنني أن أشم رائحة ذلك الجرح، ولكن هناك رائحة أخرى أيضاً. إنها رائحة لا تفوح من الأطفال عادة".

سأل السيد بولا: "ما هي؟ هل تميز تلك الرائحة؟".

أومأ موتوبي برأسه، وقال: "نعم، إنها رائحة الأسود. فلا شيء آخر له تلك الرائحة، بل الأسود فقط".

للحظة لم يقل أحد شيئاً. ثم ضحك السيد بولا.

قال: "بعض الماء والصابون سيحل المشكلة. ثم ضع شيئاً على ذلك الجرح الذي في قدمه. بعض بودرة الكبريت كفيل أن يجففه".

حمل موتوبي الطفل بحذر. فحدق به الصبي، وانكمش، ولكنه لم يقاومه.
قال السيد بولا: "حممه، وأبقه في خيمتك ولا تدعه يهرب".
عاد الزبونان إلى مقعديهما حول النار. وتبادلت المرأة نظرات مع الرجل الذي رفع حاجبه، وهز كتفيه.
ثم سألت السيد بولا بينما هو يحرك الجمر بعصا متفحمة: "ترى من أين أتى؟".
قال لها: "أتوقع أنه قادم من إحدى القرى المحلية. فأقرب قرية تقع على بعد عشرين ميلاً بذاك الاتجاه. وهو على الأرجح صبي راعٍ ضل الطريق فهام على وجهه في القفر. وهذا يحدث بين الحين والآخر".
"لكن لماذا لا يرتدي أي ملابس؟".
هز كتفيه. وقال: "أحياناً يرتدي الصبية الرعاة مئزراً صغيراً. فربما فقده في إحدى أشجار الشوك أو تركه في مكان ما".
رفع نظره إلى المرأة. ثم قال: "هذه الأمور تحدث كثيراً في إفريقيا. فهناك كثير من الأطفال يضيعون ثم يظهرون من دون أن يحدث لهم أي مكروه. إنك لست قلقة عليه، أليس كذلك؟".
عبست المرأة، وقالت: "بالطبع أنا قلقة. إذ من الممكن لأي مكروه أن يصيبه. ماذا عن الحيوانات المتوحشة؟ قد تفترسه الأسود. فكل شيء وارد الحدوث".
قال السيد بولا: "نعم، إنه وارد، ولكنه لم يحدث. سنأخذه غداً إلى مون، ونتركه في عهدة الشرطة هناك. وهم سيحلون المشكلة ويعرفون من أين أتى ويعيدونه إلى بيته".
بدت المرأة مستغرقة في التفكير، ثم قالت: "لماذا قال رجلك إن رائحة الأسود تفوح منه؟ أليس ذلك شيئاً غريباً أن يقوله!".
ضحك السيد بولا، وقال: "إن الناس يتفوهون بشتى الأمور الغريبة هنا. فهم ينظرون إلى الحياة من زاوية مختلفة. إن ذلك الرجل، موتوبي، مقتفي أثر بارع. لكنه ينزع إلى التحدث عن الحيوانات وكأنها كائنات بشرية. فيقول إنها تتحدث إليه. ويدعي أنه يستطيع أن يشم رائحة خوف الحيوان. وهذه هي الطريقة التي يتحدث بها ليس إلا".
خيم الصمت عليهم للحظة، ثم أعلنت المرأة أنها ذاهبة للفراش. فتمنيا لها ليلة سعيدة. وجلس السيد بولا والرجل الآخر بجانب النار لنصف ساعة أخرى من دون أن يتبادلا حديثاً كثيراً وراقبا جذوع الأشجار وهي تحترق ببطء والشرارات وهي تتطاير. تمدد موتوبي داخل خيمته مستيقظاً. واستلقى عبر المدخل لكي لا يتمكن الطفل من الخروج من دون إزعاجه، ولكن لم يكن من المحتمل أن يفعل ذلك. إذ إنه استغرق في النوم مباشرة بعد أن وضع في الخيمة. الآن، راقبه موتوبي وهو على وشك الاستغراق في النوم من خلال عين واحدة يثقل النعاس جفنها. وراح الطفل، وهناك ثوب

بسيط ملقي عليه، يتنفس بعمق بعد أن أكل قطعة اللحم التي أعطوه إياها، وقطعها بشهية، وشرب فنجان الماء الكبير الذي قدموه له، ولعق الماء بلسانه مثلما يفعل حيوان من حفرة شرب. وفكّر الرجل في أن تلك الرائحة الغريبة النتنة اللاذعة التي تذكره كثيراً برائحة الأسود لا تزال لغزاً يحيره. ولكنه تساءل قائلاً في نفسه: لماذا قد تفوح رائحة الأسود من طفل؟

الفصل الثالث

مسائل تتعلق بالكراج

قررت السيدة راموتسوي، وهي في طريقها إلى كراج تلوكوينغ رود سبيدي موتورز، أنه سيتوجب عليها ببساطة أن تعترف بكل شيء للسيد جي إل بي ميتكوني. فقد أيقنت أنها تجاوزت سلطتها المحددة بترقيتها للسيدة ماكوتسي إلى مرتبة مديرة مساعدة للكراج. لقد كانت لتستاء بشدة إن حاول هو أن يعمل على ترقية موظفيها الخاصين، فأدركت أنه يجب عليها أن تخبره بما حدث بالضبط. إنه رجل طيب بكل ما للكلمة من معنى، ورغم اعتقاده أن السيدة ماكوتسي رفاهية زائدة لا تستطيع السيدة راموتسوي أن تتحمل نفقاتها، فسيتفهم بكل تأكيد كم من المهم بالنسبة إليها أن تحظى بتلك الوظيفة. على أي حال، فلا يشكل أي فرق إن سمت السيدة ماكوتسي نفسها مساعدة مديرة على فرض أنها تنجز العمل الذي يفترض بها أن تنجزه. ولكن تبقى هناك مسألة رفع الراتب. فما زالت هذه تشكل معضلة كبرى يجب عليها أن تحلها.

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، وبينما هي تقود سيارة الفان البيضاء الصغيرة التي أصلحها لها السيد جي إل بي ميتكوني مؤخراً، توجهت السيدة راموتسوي في طريقها إلى كراج تلوكوينغ رود سبيدي موتورز. لقد أصبح أداء الفان جيداً الآن بعد أن أمضى السيد جي إل بي ميتكوني الكثير من وقت فراغه وهو منهمك بتصليح محركها، فاستبدل العديد من قطعها بقطع جديدة تماماً استوردها من وراء الحدود، وركب لها مكربناً وعدة فرامل جديدة تماماً. فلم يعد مطلوباً من السيدة راموتسوي الآن أكثر من أن تمس دواسة الفرامل، فتتوقف الفان على الفور. أما في الماضي، قبل أن يبذل السيد جي إل بي ميتكوني عناية كبيرة لتصليحها، كانت السيدة راموتسوي مجبرة على أن تضرب دواسة الفرامل ثلاث أو أربع مرات قبل أن تبدأ حتى بتخفيف سرعتها.

قالت السيدة راموتسوي بامتنان عندما جرّبت الفرامل الجديدة للمرة الأولى: "أعتقد أنني لن أضرب مؤخرة سيارة أحد بعد الآن. فسأتمكن من التوقف تماماً عندما أريد ذلك".

بدا السيد جي إل بي ميتكوني قلقاً. وقال: "من المهم أن تكون فرامل سيارتك جيدة، لذا يجب ألا تصبح فراملك مثل هذه الحال مجدداً. اطلبي مني فحسب وسأحرص على إبقائها في حالة ممتازة".

وعدته السيدة راموتسوي أن تفعل هذا، وكان اهتمامها بالسيارات سطحياً جداً، رغم أنها تعشق سيارتها الفان البيضاء الصغيرة من كل قلبها لأنها خدمتها بكل إخلاص وأمانة. ولم يسعها أن تدرك سبب قضاء الناس وقتاً طويلاً وهم يلهثون وراء سيارات المرسيدس رغم وجود سيارات أخرى تنقل

المرء بأمان إلى وجهته وتعيده منها من دون أن تتطلب منه إنفاق مبلغ كبير. ففكرت في نفسها أن هذا الاهتمام بالسيارات هو مسألة تتعلق بالرجال وحدهم. ويمكن للمرء أن يلاحظ تطورها لدى الصبية الصغار بتلك النماذج المطاطية التي يصنعونها للسيارات. بعد ذلك، لا يفارقهم هذا الاهتمام قط. ترى لماذا يجد الرجال السيارات مثيرة للاهتمام إلى هذا الحد؟ إن السيارة ليست أكثر من مجرد آلة. وقد يظن المرء أن الرجال سيهتمون بالغسالات والمكاوي على حدٍّ سواء، ولكنهم لا يهتمون بها. فلا يرى المرء أبداً رجالاً يجرون أحاديث مطولة عن الغسالات.

توقفت أمام كراج تلوكوينغ رود سبيدي موتورز، وترجلت من سيارة الفان البيضاء الصغيرة، واستطاعت من خلال النافذة الصغيرة المطلة على الفسحة أن تلاحظ عدم وجود أحد في المكتب، مما يعني أن السيد جي إل بي ميتكوني هو على الأرجح مستلقٍ تحت إحدى السيارات في الورشة أو واقف فوق رأس متدربيه الأخرقين محاولاً أن يشرح لهما معلومة صعبة من معلومات علم الميكانيك. كان السيد جي إل بي ميتكوني قد اعترف للسيدة راموتسوي أن اليأس قد نال منه في إحراز أي نتيجة إيجابية من هذين الشابين. فتعاطفت معه لذلك. إذ ليس من السهل أن يحاول المرء إقناع الشبان بضرورة العمل في الوقت الذي يتوقعون فيه أن يقدم كل شيء إليهم على طبق من ذهب. لم يبدُ على أي واحد منهما أنه يدرك أن كل ما يحظيان به في بتسوانا، وهو شيء لا يستهان به، قد تم الحصول عليه عن طريق العمل الشاق وإنكار الذات. فبتسوانا لم تقترض المال، وتغرق في الديون كما حدث للكثير من الدول في إفريقيا، بل وفرت، وقترت على نفسها، وأنفقت كل قرش تملكه بمنتهى الحرص. فلم يدخل أي قرش جيوب السياسيين. فكّرت السيدة راموتسوي قائلة في نفسها: يمكننا أن نفخر ببلادنا. فأنا فخورة بما فعله والدي السيد أوبيد راموتسوي وفخورة بسيريتس خاما الذي أقام بلداً جديداً في مكان أهمله الإنكليز. وتأملت في نفسها: إنهم لم يكونوا ليكترثوا لنا كثيراً، ولكنهم يعرفون الآن ما يمكننا فعله. فأعجبوا بنا لأجل ذلك. كانت قد قرأت عما قاله السفير الأمريكي عندما أعلن قائلاً: "إننا نحيي شعب بتسوانا لما حققه". وجعلتها تلك الكلمات تشعر بفخر عارم، وأيقنت أن الناس في القارات الأخرى وتلك البلاد البعيدة، والمخيفة نوعاً ما، معجبون بما أنجزته بتسوانا.

إن الانتماء لإفريقيا مبعث فخر كبير لشعوبها. فرغم أن ثمة أموراً مريعة كثيرة حدثت فيها، أموراً تشعر المرء بالخزي واليأس عندما يفكر فيها، فما تزال هناك إيجابيات كثيرة للحياة الإفريقية. ومهما كانت معاناة شعب إفريقيا كبيرة، ومهما بلغت القسوة والفوضى التي بها تسبب بها الجنود، وهم مجرد صبية صغار مسلحون بالبنادق في واقع الأمر، فلا تزال هناك نواحٍ كثيرة في إفريقيا يمكن للمرء أن يفخر بها فخراً حقيقياً. فهناك الطيبة والروح المرحة والفن والموسيقى.

تمشت إلى مدخل الورشة، ولاحظت وجود سيارتين في الداخل، إحداهما موضوعة على المنحدر المائل والأخرى مركونة أمام أحد الجدران وبطاريتها موصولة بجهاز شحن صغير بجانب العجلة الأمامية. ورأت بضع قطع أخرى مرمية على الأرض، مثل أنبوب عادم وقطع أخرى لم تميزها. كان هناك صندوق عدة مفتوح تحت السيارة التي على المنحدر المائل من دون ما يدل على وجود السيد جي إل بي ميتكوني.

عندما وقف أحد المتدربين لاحظت السيدة راموتسوي وجودهما. كانا جالسين على الأرض متكئين على أسطوانة زيت وهما يلعبان لعبة الحجارة التقليدية. الآن، وقف أحدهما، وهو الشاب الأطول بينهما والذي لا تتذكر اسمه أبداً، ومسح يديه على ثيابه المتسخة.

وقال لها: "أهلاً، يا سيدتي. المدير ليس هنا. فقد ذهب إلى البيت".

ابتسم لها المتدرب ابتسامة عريضة اعتبرتها مهينة بعض الشيء. فهي ابتسامة تدل على رفع الكلفة من النوع الذي قد يتخيله المرء يبتسمها لإحدى الفتيات اللواتي يقابلهن في نوادي الرقص. كانت تعرف طبيعة هذين الشابين. إذ كان قد أخبرها السيد جي إل بي ميتكوني أن كل ما يهتمان به هو الفتيات. فصدقت ما قاله تماماً. لكن ما يزعج في الأمر هو أن هناك وفرة من الفتيات اللواتي قد يهتممن بشابين على هذه الشاكلة بشعرهما المصفف وابتسامتهما البراقة.

سألته: "لماذا ذهب إلى البيت باكراً هكذا؟ هل انتهى كل العمل؟ ألهذا السبب أنتما جالسان بتكاسل؟".

ابتسم المتدرب. ففكرت أنه يعرف شيئاً ما. وتساءلت في نفسها: أيعرف شيئاً حقاً أم أن هذا إحساس بالتفوق والكياسة المتعالية تبناه على الأرجح تجاه كل النساء؟

أجاب وهو يلقي نظرة خاطفة على صديقه: "كلا، إنه غير منتهٍ على الإطلاق. فلا يزال علينا أن نتولى أمر تلك السيارة هناك". وأشار بعفوية نحو السيارة التي على المنحدر المائل.

الآن نهض المتدرب الآخر. كان يأكل شيئاً ما فترك خطاً رفيعاً من الطحين حول فمه. ففكرت السيدة راموتسوي في خبث: ترى ما الذي ستظنه الفتيات حيال هذا؟ وتخيلته يحاول أن يجذب إحدى الفتيات وهو غير مدرك للطحين حول فمه. قد يكون وسيماً، ولكن خطاً من الطحين حول شفتيه سيثير الضحك بدلاً من أن يحرك مشاعر الفتيات.

قال المتدرب الآخر: "إن المدير يذهب مبكراً غالباً في هذه الأيام. فهو أحياناً يخرج عند الساعة الثانية، ويتركنا لنقوم بكل العمل".

قاطعه المتدرب الأول قائلاً: "ولكننا نعاني من مشكلة هنا. فنحن لا نستطيع أن ننجز كل شيء. إننا بارعان تماماً بالسيارات بكل تأكيد، ولكننا لم نتعلم كل شيء بعد".

ألقت السيدة راموتسوي نظرة خاطفة إلى السيارة التي على المنحدر المائل. وكانت واحدة من سيارات الستيشن الفرنسية تلك التي أصبحت شائعة في مناطق عديدة من إفريقيا.

قال المتدرب الأول: "إن تلك السيارة مثال على ذلك. فهي تصدر بخاراً من العادم يخرج في غمامة كبيرة. وهذا يعني أن الحشية قد أزيلت وأن محلول التبريد يدخل في حجرة البستون. وهذا يسبب الكثير من البخار".

قالت السيدة راموتسوي: "إذاً، لماذا لا تصلحانها؟ لا يستطيع السيد جي إل بي ميتكوني أن يعلمكما طوال حياتكما".

قطب المتدرب الأصغر جبينه قائلاً: "أتعتقدين أن هذا بسيط، يا سيدتي؟ أتظنين أنه سهل؟ هل حاولت على الإطلاق أن تخرجي رأس الأسطوانة من سيارة بيجو؟ هل فعلت ذلك، يا سيدتي؟".

أومأت السيدة راموتسوي بيدها مهدئة، وقالت: "إنني لا أنتقدكما. لماذا لا تطلبان من السيد جي إل بي ميتكوني أن يعلمكما ما تفعلانه؟".

بدا المتدرب الأكبر مستاء وقال: "هذا جيد جداً، يا سيدتي. ولكن المشكلة هي أنه لا يفعل ذلك. فهو يذهب إلى البيت، ويتركنا لنقدم الأعذار للزبائن، ولكن هذا الوضع لا يعجبهم. فيقول أحد الزبائن: أين سيارتي؟ كيف تتوقعون مني أن أتنقل إن كنتم ستستغرقون أياماً لتصليح سيارتي؟ أيجب عليّ أن أمشي مثل أي شخص لا يملك سيارة؟ هذا هو ما يقولونه، يا سيدتي".

لم تقل السيدة راموتسوي شيئاً. فقد بدا لها من غير الوارد أن يسمح السيد جي إل بي ميتكوني، الذي يُعتبر الحرص الشديد خصلة من خصاله، بحدوث هذا لعمله. إذ إنه بنى سمعته على إنجاز التصليحات بشكل جيد وسريع. وإن لم يرضَ أحد الزبائن عن العمل الذي قام به، فلديه مطلق الصلاحية في إعادة السيارة ليقوم السيد جي إل بي ميتكوني بالعمل كله مجدداً من دون أجرة. هذه هي الطريقة التي لطالما عمل بها. وليس من المنطقي أن يترك سيارة على المنحدر في عهدة هذين المتدربين اللذين لا يبدو عليهما أنهما يعرفان الكثير عن المحركات ولا يمكن الوثوق بعدم إهمالهما للعمل.

قررت أن تستجوب المتدرب الأكبر أكثر قليلاً. فسألته بصوت منخفض: "أتقصد أن تقول لي إن السيد جي إل بي ميتكوني لا يهتم بتلك السيارات؟".

حدق المتدرب بها بوقاحة، وجعل عينيه تلتقي بعينيها لوقت طويل. ففكرت السيدة راموتسوي في نفسها: لو أنه يعرف أي شيء عن التصرف اللائق لما أطال النظر في عيني ولغض بصره كما ينبغي على صغير السن أن يفعل مع من هو أكبر منه.

قال المتدرب ببساطة: "نعم، طوال الأيام العشرة الماضية، بدا على السيد جي إل بي ميتكوني أنه فقد الاهتمام بهذا الكراج. والبارحة فقط قال لي إنه يفكر في الذهاب إلى قريته وإنه ينبغي عليّ

أن أتولى المسؤولية وأبذل ما بوسعي في العمل".

أخذت السيدة راموتسوي نفساً عميقاً. وأيقنت أنه يقول الحقيقة، ولكنها حقيقة يصعب عليها كثيراً أن تصدقها.

قال المتدرب وهو يمسح يديه بقطعة قماش: "وهناك شيء آخر. إنه لم يسدد المبالغ المستحقة لمزودي قطع الغيار منذ شهرين. فاتصلوا بنا عندما ذهب إلى البيت مبكراً. وتلقيت أنا المكالمة، أليس كذلك، يا سيليتسي؟"

فأومأ المتدرب الآخر برأسه.

وتابع قائلاً: "على أي حال، لقد قالوا إنهم لن يزودونا بأية قطع غيار ما لم ندفع خلال عشرة أيام. وقالوا إنه ينبغي علي أن أقول هذا للسيد جي إل بي ميتكوني وأطلب منه أن يحسن أساليب تعامله. هذا هو ما قالوه لي: أخبر مديرك. هذا هو ما قالوا إنه ينبغي عليّ أن أفعله".

قالت السيدة راموتسوي: "وهل فعلت هذا؟"

قال: "فعلت ذلك. قلت له: كلمة في أذنك، يا سيدي. كلمة واحدة فقط. ثم أخبرته".

راقبت السيدة راموتسوي تعبير وجهه. وبدا السرور واضحاً عليه لأداء دور الموظف المهتم. فشكت أنه مجرد دور لم تتح له مناسبة لأدائه من قبل.

"وماذا بعد؟ ماذا قال رداً على نصيحتك؟".

تنشق المتدرب، ومسح أنفه بيده.

وقال: "قال إنه سيحاول أن يفعل شيئاً حيال هذا. هذا هو ما قاله. ولكن أتعرفين ما الذي أفكر فيه؟ أتعرفين ما الذي أظن أنه يحدث، يا سيدتي؟".

نظرت السيدة راموتسوي إليه بترقب.

فتابع قائلاً: "أعتقد أن السيد جي إل بي ميتكوني قد توقف عن الاهتمام بكراجه وأن السأم قد نال منه. وأعتقد أنه يريده أن يسلمنا إياه ثم يسافر إلى أراضيه ويزرع البطيخ. إنه رجل عجوز الآن، يا سيدتي. فلا بد أن ضجر من العمل".

أخذت السيدة راموتسوي نفساً بعد أن أصابتها وقاحة تلميحه بالدهشة. فها هنا الآن... هذا المتدرب *العديم النفع* المشهور بقدرته على إزعاج الفتيات اللواتي يمررن بجانب الكراج، وهو نفس المتدرب الذي رآه السيد جي إل بي ميتكوني مرة يضرب محرك السيارة بالمطرقة، يقول هذا الكلام عن السيد جي إل بي ميتكوني.

استغرقت وقتاً طويلاً إلى أن تمالكت أعصابها بما يكفي لتجيبه.

ثم قالت له أخيراً: "إنك شاب وقح جداً. فالسيد جي إل بي ميتكوني لم يفقد اهتمامه بالكراج. ولم يصبح رجلاً عجوزاً. فهو ما يزال في أوائل الأربعينات من عمره، وهذا ليس عمراً متقدماً على

الإطلاق مهما كان رأيكما، أيها الشابان. وأخيراً، ليست لديه النية في أن يسلمكما الكراج. فهذه يعني نهاية المشروع. هل تفهمانني؟".

نظر المتدرب الأكبر ملتمساً الطمأنة من صديقه، ولكن الآخر ظل مطرقاً بثبات نحو الأرض.

"أدرك ما تعنينه، يا سيدتي. وأنا آسف لما قلته".

قالت السيدة راموتسوي: "هذا هو ما يجب عليك أن تفعله. وإليكما هذا الخبر. لقد عين السيد جي إل بي ميتكوني لتوه مديرة مساعدة لهذا الكراج. وستبدأ المساعدة عملها قريباً. فمن الأفضل لكما أن تتحليا بالانضباط".

أحدثت ملاحظاتها التأثير المطلوب على المتدرب الأكبر الذي ألقى بقطعة القماش الملطخة بالزيت، وبحث عن القطعة الأخرى بقلق.

وسألها بتوتر: "متى سيبدأ المدير العمل؟".

قالت السيدة راموتسوي: "الأسبوع القادم. إنها مديرة وليست مديراً".

"مديرة؟ امرأة؟".

قالت السيدة راموتسوي وهي تستدير لتذهب: "نعم، إنها سيدة تدعى السيدة ماكوتسي، وهي صارمة جداً مع المتدربين. لذا لن يعود هناك مزيد من الجلوس بتكاسل واللعب بالحجارة. هل تفهمان ما أقوله؟".

فأومأ المتدربان برأسيهما بتجهم.

قالت السيدة راموتسوي: "واصلا محاولة تصليح تلك السيارة. وسأعود بعد بضع ساعات لأشرف على سير العمل".

عادت إلى سيارة الفان، وركبت في مقعد القيادة بعد أن نجحت في التظاهر بالتصميم التام عندما ألقت بتوجيهاتها على المتدربين، ولكنها شعرت أنها أبعد ما تكون عن التأكيد في أعماقها. ففي الواقع، تملكها قلق شديد. إذ عندما يبدأ الناس بالقيام بتصرفات بعيدة عن شخصيتهم فهذا يدل على وجود مشكلة خطيرة. إن السيد جي إل بي ميتكوني رجل ذو ضمير حي. والرجال ذوو الضمير الحي لا يخذلون زبائنهم من دون سبب وجيه. ولكن ما هو ذلك السبب؟ أهو شيء يتعلق بزواجهما الوشيك؟ ترى هل غير رأيه؟ هل يريد أن يهرب؟

أقفلت السيدة ماكوتسي باب وكالة التحريات النسائية الأولى بعد أن خرجت السيدة راموتسوي متوجهة إلى الكراج لتتحدث إلى السيد جي إل بي ميتكوني، وتركتها لتنهي الرسائل وتأخذها إلى البريد. لم يكن أي طلب تطلبه منها ليبدو مفرطاً، فقد غمرت فرحة عظيمة جداً السيدة ماكوتسي بعد الترقية وزيادة الراتب. كان ذلك يوم الخميس، واليوم التالي هو يوم قبض الرواتب. ففكرت أن تدلل نفسها في شيء تتناوله على الطريق إلى البيت، ككعكة محلاة مثلاً. وكان طريقها يأخذها مروراً

بكشك صغير يبيع الكعك المحلى والأطعمة المقلية الأخرى التي تفوح منها رائحة شهية. لكن النقود هي المشكلة. فالكعكة المحلاة الكبيرة تكلف اثنين بولا، مما يعتبر مبلغاً كبيراً بالنسبة إلى هذه الحلوى، وخاصة إن احتسب المرء ما ستكلفه وجبة العشاء. إن تكاليف العيش في غابورون باهظة جداً. إذ إن كل شيء يكلف ضعف ما يكلفه في قريتها. ففي قريتها يدوم مبلغ عشر بولات وقتاً طويلاً، أما هنا في غابورون فيبدو عليه أنه يتلاشى في لمح البصر.

كانت السيدة ماكوتسي تقطن في غرفة مستأجرة في الباحة الخلفية لأحد المنازل خارج طريق لوبيتس. وتشكل تلك الغرفة نصف كوخ مطل على السياج الخلفي للمنزل وعلى زقاق متعرج ترتع فيه الكلاب الهزيلة. لقد تعلقت تلك الكلاب بالناس الذين يقطنون البيوت ولكن بدا عليها أنها تفضل أن ترافق بعضها بعضا وتهيم على وجهها في جماعات من كلبين أو ثلاثة كلاب. ولا بد أن أحداً ما يطعمها في أوقات غير منتظمة ولكن أضلاعها ظلت بارزة وهي تبحث عن فتات الطعام في صفائح القمامة. في بعض الأحيان، إن تركت السيدة ماكوتسي بابها مفتوحاً، يدخل أحد الكلاب، ويحدق بها بعينيه المتوسلتين الجائعتين إلى أن تطرده خارجاً. فكانت هذه ربما تشكل إهانة أكبر من تلك التي تتعرض لها في العمل عندما تدخل الدجاجات، وتبدأ بالنقر حول قدميها.

اشترت كعكتها المحلاة من الكشك، وأكلتها هناك ثم لعقت السكر عن أصابعها عندما أنهتها. وبدأت تمشي إلى البيت بعد أن أشبعت جوعها. وكان يسعها أن تستقل حافلة إلى البيت، فهي وسيلة مواصلات رخيصة، ولكنها لطالما استمتعت بالسير في نسيم المساء اللطيف ولم تكن عادة على عجلة من أمرها للوصول إلى البيت. تساءلت عن حال أخيها، وفيما إذا كان قد أمضى يوماً طيباً أو إن كان سعاله قد أنهكه. لقد نال قسطاً وافراً من الراحة في الأيام القليلة الماضية، رغم أنه لا يزال ضعيفاً جداً. فاستمتعت بليلة أو ليلتين من النوم بلا انقطاع.

كان قد أتى للعيش مع أخته قبل شهرين وقطع الرحلة الطويلة من ديارهما بالحافلة. فذهبت لملاقاته عند محطة الحافلات القريبة من سكة القطار. وللحظة وجيزة، نظرت إليه من دون أن تميزه. ففي آخر مرة رأته فيها كانت بنيته جيدة وكان حتى ضخماً، أما الآن فقد أصبح محنياً وهزيلاً وقميصه يرفرف رخواً حول جذعه. وعندما أدركت أنه هو، أسرعت إليه وأمسكت بيده التي قد صدمتها لأنها حارة وجافة وجلدها متشقق. فرفعت حقيبته لأجله رغم أنه حاول أن يفعل ذلك بنفسه، فحملتها طوال الطريق إلى الحافلة الصغيرة التي تعمل على طريق لوبيتس.

بعد ذلك، استقر في بيتها، ونام على الحصيرة التي وضعتها في الجانب الآخر من غرفتها، ولكنها كانت تسمع صوت صفير أنفاسه ليلاً وغالباً ما تستيقظ بسبب حديثه في نومه.

قال لها: "إنك أخت لطيفة لأن تسمحي لي بالإقامة لديك. وأنا رجل محظوظ لأن أحظى بأخت مثلك".

اعترضت على كلامه قائلة إنه موضع ترحيب كبير وإن من دواعي سرورها أن تحظى به معها. يمكنه أن يبقى مقيماً لديها حتى بعد أن يتحسن، ويعثر على عمل في غابورون، ولكنها أيقنت أن هذا لن يحدث. كذلك فعل هو، كما شعرت بالثقة التامة، ولكن أحداً منهما لم يتحدث عن ذلك صراحة أو عن المرض القاسي الذي راح ينهي حياته ببطء كما يفعل القحط عندما يجفف الأراضي.

الآن، وهي عائدة إلى البيت، تهيأت لتزف له الخبر السعيد. فلطالما اهتم بسماع أخبار ما يحدث في الوكالة، وسألها عن كل تفاصيل يومها. لم يكن قد قابل السيدة راموتسوي قط، إذ لم تود السيدة ماكوتسي أن تعرف عن مرضه، ولكنه كون فكرة واضحة عنها.

قال: "سأقابلها يوماً ما ويتسنى لي أن أشكرها لما فعلته مع أختي. فلولاها لما تمكنت على الإطلاق من أن تصبحي مساعدة تحرية".

"إنها سيدة طيبة".

قال: "أعلم أنها كذلك. وأستطيع أن أتصور تلك السيدة اللطيفة بابتسامتها العذبة ووجنتيها الممتلئتين وهي تحتسي الشاي معك. وتغمرني السعادة لمجرد التفكير بهذا".

تمنت السيدة ماكوتسي لو أنها اشترت له كعكة محلاة، ولكن شهيته غالباً ما تكون منقطعة، مما سيهدر الكعكة بلا فائدة. وكان يقول إن فمه يؤلمه وإن السعال يجعل من الصعب عليه أن يأكل كثيراً. لذا، فغالباً ما يتناول بضع ملاعق من الحساء الذي تعده له على موقد الكاز ويواجه صعوبة في هضمها.

عندما وصلت إلى البيت، لاحظت وجود شخص آخر في الغرفة. إذ إنها سمعت صوتاً غريباً. فخشيت للحظة أن يكون مكروه قد حدث في غيابها، ولكنها دخلت، ورأت الستارة مرفوعة وهناك امرأة جالسة على كرسي يمكن طيه بجانب حصيرته. وعندما سمعت المرأة الباب ينفتح، وقفت والتفتت نحوها.

وقالت: "أنا ممرضة من "مستشفى الأنغليكان". لقد أتيت للاطمئنان على الأخ. واسمي هو الأخت باليجي".

ارتسمت ابتسامة لطيفة على وجه الممرضة. وسرعان ما اعتادت السيدة ماكوتسي عليها.

قالت السيدة ماكوتسي: "إنه لطف منك أن تأتي لرؤيته. وقد كتبت لكم تلك الرسالة فقط لأعلمكم أنه ليس على ما يرام".

أومأت الممرضة برأسها، وقالت: "ما فعلته هو عين الصواب. فقد أصبح بوسعنا الآن أن نمر للاطمئنان عليه من وقت لآخر وأن نحضر لكما الطعام إن كنتما بحاجة إليه. وهكذا نمد لكما يد

المساعدة حتى لو لم تكن مساعدة كبيرة. ولدينا بعض الأدوية التي نستطيع أن نعطيه إياها. وهي ليست أدوية قوية جداً، ولكنها ستريحه قليلاً".

شكرتها السيدة ماكوتسي، ونظرت إلى أخيها.

وقالت: "إن السعال هو ما يزعجه. فهذا هو أسوأ ما أصابه على ما أعتقد".

قالت الممرضة: "إنه ليس مرضاً سهلاً".

جلست الممرضة على كرسيها مجدداً، وأمسكت يد الأخ.

قالت له: "يجب أن تشرب المزيد من الماء، يا رتشارد. فلا ينبغي أن تدع نفسك تعطش كثيراً".

فتح عينيه، ونظر إليها، ولكنه لم ينبس بحرف. لم يبدُ واثقاً من سبب وجودها. فظن أنها صديقة أخته أو ربما إحدى الجارات.

نظرت الممرضة إلى السيدة ماكوتسي، وأومأت إليها لتجلس على الأرض بجانبهما. ثم مدت يدها بلطف وهي لا تزال ممسكة بيده ولمست خده.

قالت: "يا الله الرحيم، يا من تساعدنا في معاناتنا، انظر إلى عبدك الفقير هذا وارحمه برحمتك. واملأ أيامه فرحاً وسروراً. واجعله سعيداً إكراماً لأخته الطيبة هذه التي تعتني به في مرضه. وأنعم عليه بالسلام في قلبه".

أغمضت السيدة ماكوتسي عينيها ووضعت يدها على كتف الممرضة. ثم خيم السكون عليهم جميعاً.

الفصل الرابع

زيارة إلى الدكتور موفات

بينما جلست السيدة ماكوتسي بجانب أخيها لترعاه، قادت السيدة راموتسوي سيارتها الفان البيضاء الصغيرة إلى بوابة منزل السيد جي إل بي ميتكوني قرب نادي قوة دفاع بتسوانا القديم. واستطاعت أن تلاحظ أنه في الداخل لأن شاحنته الخضراء التي يقودها دائماً، رغم وجود سيارة أفضل يركنها في الكراج، مركونة بجانب بابه الأمامي الذي تركه مفتوحاً بسبب الحر. فتركت الفان في الخارج لكي توفر على نفسها الدخول والخروج وفتح البوابة وإغلاقها ومشت إلى البيت مروراً ببعض النباتات الشحيحة التي يدعوها السيد جي إل بي ميتكوني حديقته.

صاحت من أمام الباب قائلة: "مرحباً! مرحباً! هل أنت هنا، يا سيد جي إل بي ميتكوني؟".

فأتى صوته من داخل غرفة المعيشة: "إنني هنا في الداخل، يا سيدة راموتسوي".

دخلت السيدة راموتسوي، ولاحظت على الفور كم بدت أرضية الردهة مغبرة ومتسخة. فبعد أن زُجت خادمة السيد جي إل بي ميتكوني الكئيبة الفظة، فلورنس، في السجن لحيازتها سلاحاً غير مرخص، أصبح المنزل في حالة يرثى لها من الإهمال. فذكّرت السيد جي إل بي ميتكوني في مناسبات عدة أن يوظف خادمة بديلة إلى أن يتزوجا على الأقل، ووعدها أن يفعل ذلك، ولكنه لم ينفذ وعده على الإطلاق. فقررت السيدة راموتسوي أن تحضر خادمتها يوماً ما وتحاول أن تقوم بتنظيف شامل لكل المكان.

كانت قد علقت لإحدى صديقاتها قائلة: "إن الرجال على استعداد للعيش بطريقة مهملة جداً، إن سمحت لهم بذلك. فهم لا يجيدون العناية بالمنزل أو الباحة ولا يعرفون كيف يفعلون ذلك".

عبرت الردهة إلى غرفة المعيشة. وعندما دخلت، وجدت السيد جي إل بي ميتكوني ممدداً بطوله الكامل على أريكته غير المريحة. فنهض على قدميه وحاول أن يجعل نفسه لا يبدو أشعثَ (غير مرتّب) كثيراً.

وقال: "من الجيد أن أراك، يا سيدة راموتسوي. فأنا لم أرك منذ بضعة أيام".

قالت السيدة راموتسوي: "هذا صحيح، ربما بسبب كثرة انشغالك".

فقال لها وهو يجلس مجدداً: "نعم. لقد كنت مشغولاً كثيراً. فهناك الكثير من العمل ليتم إنجازه".

لم تقل شيئاً، ولكنها راقبته وهو يتحدث. فاعتقدت أن هناك خطباً واضحاً. وكانت على حق في اعتقادها هذا.

سألته: "هل العمل كثير في الكراج؟".

فهز كتفيه وقال: "إن العمل كثير في الكراج طوال الوقت. فالناس يستمرون بإحضار سياراتهم ويقولون افعل هذا وافعل ذلك وكأنهم يظنون أن لي عشر أيدي. هذا هو ما يظنونه".

فسألته بلطف قائلة: "ولكن ألا تتوقع أن يحضر الناس سياراتهم إلى الكراج؟ أليست هذه مهمة الكراج؟".

نظر السيد جي إل بي ميتكوني إليها بشكل وجيز ثم هز كتفيه: "ربما، ولكن ما يزال هناك كَمٌ هائل من العمل".

ألقت السيدة راموتسوي نظرة خاطفة في أنحاء الغرفة فلاحظت وجود كومة من الصحف على الأرض وكومة صغيرة مما بدا لها رسائل غير مفتوحة على الطاولة.

قالت له: "لقد ذهبت إلى الكراج، وتوقعت أن أجدك هنا، ولكنهما قالا لي إنك غادرت باكراً. وقالا أيضاً إنك غالباً ما تغادر باكراً في هذه الأيام".

نظر السيد جي إل بي ميتكوني إليها ثم أطرق إلى الأرض. وقال: "إنني أجد من الصعب علي أن أبقى هناك طوال اليوم بوجود كل ذلك العمل. سوف يتم إنجازه عاجلاً أو آجلاً. فهناك هذان المتدربان وسيقومان به".

فغرت السيدة راموتسوي فمها، وقالت: "هذان الشابان؟ المتدربان؟ ولكنهما نفس الشابين اللذين لطالما قلت إنهما لا يصلحان لفعل أي شيء. كيف يسعك الآن أن تقول إنهما سينجزان كل ما يجب إنجازه؟ كيف يسعك أن تقول هذا؟".

لم يجب السيد جي إل بي ميتكوني.

فألحت السيدة راموتسوي قائلة: "حسناً، يا سيد جي إل بي ميتكوني، ما هو جوابك على هذا السؤال؟".

قال لها بصوت فاتر وغريب: "سيكونان على ما يرام. دعيهما يعتادان على تحمل المسؤولية".

نهضت السيدة راموتسوي. فلا طائل من التحدث إليه وهو في ذلك المزاج. فمن المؤكد أنه يعاني من مزاج غريب وربما يكون مريضاً. كانت قد سمعت أن الإصابة بنوبة أنفلونزا قد تجعل المرء كسولاً لأسبوع أو اثنين. فربما يكون هذا هو التفسير البسيط لسلوكه غير المعتاد. وفي كلتا الحالتين، سيتوجب عليها وحسب أن تنتظر إلى أن يتجاوز تلك الحالة.

قالت له وهي تستعد للمغادرة: "لقد تحدثت إلى السيدة ماكوتسي. أعتقد أنها تستطيع البدء بالعمل في الكراج في وقت ما خلال الأيام القليلة التالية. وقد منحتها لقب مديرة مساعدة. آمل أنك لا تمانع بذلك".

ففاجأها جوابه.

قال: "مديرة مساعدة، مديرة مسؤولة، وزيرة الكراجات. لك ما تشائين! هذا لا يشكل أي فرق، أليس كذلك؟".

لم تستطع السيدة راموتسوي أن تفكر في إجابة ملائمة، لذلك ودعته، وشرعت بالخروج من الباب.

فقال لها السيد جي إل بي ميتكوني وهي توشك على مغادرة المنزل: "آه، بالمناسبة، أعتقد أنني قد أذهب إلى الأراضي. فأنا أريد أن أرى كيف تسير أمور الزراعة. وقد أمكث هناك لبعض الوقت".

حدقت به السيدة راموتسوي، ثم قالت: "وفي غضون ذلك الوقت، ماذا سيحل بالكراج؟".

تنهد السيد جي إل بي ميتكوني، وقال: "قومي أنت بإدارته. أنت وتلك السكرتيرة أو المديرة المساعدة. دعيها تقوم بذلك. وسيكون كل شيء على ما يرام".

زمت السيدة راموتسوي شفتيها، وقالت: "لا بأس. سنعتني به، يا سيد جي إل بي ميتكوني، إلى أن يبدأ شعورك بالتحسن".

قال لها السيد جي إل بي ميتكوني: "أنا بخير. لا تقلقي بشأني. أنا بخير".

لم تقد سيارتها عائدة إلى زيبرا درايف رغم علمها أن الولدين بالتبني سيكونان بانتظارها هناك. وكانت الفتاة، واسمها موثوليلي، قد أعدت الوجبة المسائية بحلول ذلك الوقت دون أن تحتاج إلى الكثير من الإشراف أو المساعدة رغم أنها حبيسة الكرسي المتحرك. وكان الصبي، الذي يدعى بوسو ويميل للصخب بعض الشيء، سيكون ربما قد استنزف كل طاقته وأصبح مستعداً لحمامه وفراشه اللذين تعدهما له أخته موثوليلي.

بدلاً من الذهاب إلى البيت، انعطفت شمالاً إلى طريق كودو، وتوجهت في طريقها مروراً بأبنية الشقق إلى طريق أودي وي حيث يقيم صديقها الدكتور موفات الذي اعتاد أن يدير مستشفى في موتشودي، واعتنى بوالدها ولطالما بدا مستعداً للإصغاء إليها حين تعاني من صعوبات. كانت قد تحدثت إليه عن زوجها نوت قبل أن تفضي بسرها لأي شخص آخر. فأخبرها بأكبر قدر ممكن من اللطف أن الرجال من ذلك النوع لا يتغيرون قط حسبما تقوله خبرته في الحياة.

قال لها: "يجب ألا تتوقعي منه أن يصبح رجلاً مختلفاً. فالناس من هذه الشاكلة نادراً ما يتغيرون".

كان الطبيب رجلاً مشغولاً بالطبع، ولم ترغب أن تتطفل على وقته، ولكنها قررت أن تكتشف إن كان باستطاعته أن يلقي بعض الضوء على الطريقة التي بدأ السيد جي إل بي ميتكوني يتصرف بها. ترى هل هناك عدوى غريبة مستشرية بين الناس تجعلهم متعبين وكسولين؟ وإن كان هذا صحيحاً فكم من المتوقع لها أن تدوم؟

كان الدكتور موفات قد عاد لتوه إلى البيت. فرحب بالسيدة راموتسوي عند الباب، وأرشدها إلى غرفة مكتبه.

فوضحت له قائلة: "إنني قلقة بشأن السيد جي إل بي ميتكوني. دعني أشرح لك حالته".

أصغى لها لبضع دقائق ثم قاطعها.

قال: "أعتقد أنني عرفت ما المشكلة. هناك مرض يدعى الكآبة، وهو مرض كأي مرض آخر ومنتشر أيضاً. ويبدو لي من كلامك أن السيد جي إل بي ميتكوني ربما يكون مصاباً بالكآبة".

"وهل تستطيع أن تعالجه؟".

قال الدكتور موفات: "أستطيع فعل ذلك بسهولة كبيرة عادة، هذا على فرض أنه مصاب بالكآبة. وإن كان كذلك فعلاً، فالأدوية المضادة للكآبة متوفرة في هذه الأيام، وهي أدوية فعالة. وإن سار كل شيء على ما يرام، يمكننا أن نجعله يبدأ يشعر بالتحسن في غضون ثلاثة أسابيع أو حتى أبكر بقليل. فهذه الحبوب تستغرق وقتاً لتأخذ مفعولاً".

قالت السيدة راموتسوي: "سأطلب منه أن يأتي ويراك على الفور".

بدا الدكتور موفات متردداً، وقال: "إن المرضى لا يظنون عادة أنهم يعانون من أي خطب. فربما لا يأتي. وإنه لأمر جيد جداً أنني أخبرتك عن مشكلته، ولكن يجب أن يسعى بنفسه وراء العلاج".

قالت السيدة راموتسوي: "سأحضره إليك. ويمكنك أن تعول على كلامي. وسأحرص على أن يسعى وراء العلاج".

ابتسم الدكتور موفات، وقال: "توخي الحذر، فهذه المهمة قد تكون صعبة".

الفصل الخامس

مسؤول الحكومة

في صباح اليوم التالي، وصلت السيدة راموتسوي إلى وكالة التحريات النسائية الأولى قبل وصول السيدة ماكوتسي، وهذا أمر غير اعتيادي لأن السيدة ماكوتسي عادة ما تصل أولاً فتفتح البريد وتعد الشاي قبل وصول السيدة راموتسوي بسيارتها الفان البيضاء الصغيرة. ومع ذلك، فقد أدركت أن يوماً صعباً بانتظارها، وأرادت أن تعد لائحة بالأمور التي يتعين عليها القيام بها.

قالت السيدة ماكوتسي: "إنك مبكرة جداً، يا سيدتي. فهل هناك أي مشكلة؟".

فكّرت السيدة راموتسوي أن هناك مشكلة فعلاً نوعاً ما، ولكنها لم ترد أن تثبط همة السيدة ماكوتسي، لذا تظاهرت بالشجاعة، وقالت: "ليس فعلاً، ولكن يجب علينا أن نبدأ التحضير للانتقال. ومن الضروري بالنسبة إليك أيضاً أن تذهبي إلى الكراج، وتعملي على تصنيف أوراقه. إن السيد جي إل بي ميتكوني متوعك بعض الشيء وقد يغيب لبعض الوقت. وهذا يعني أنك لن تكوني المديرة المساعدة فقط، بل نائبة المدير. في الواقع، هذا هو لقبك اعتباراً من صباح اليوم".

ابتسمت السيدة ماكوتسي سعادة. وقالت: "سأبذل ما بوسعي كنائبة مدير. وأعدك ألا أخيب أملك".

قالت السيدة راموتسي: "بالطبع لن يحدث هذا. فأنا على يقين من أنك بارعة جداً بعملك".

طوال الساعة التالية عملتا معاً بصمت مشترك. فكتبت السيدة راموتسوي مسودة المهمات التي تريد تنفيذها، ثم شطبت بعض المواد وأضافت أخرى. إن الصباح الباكر أفضل وقت لإنجاز الأعمال وخاصة في الفصل الحار. ففي الأشهر الحارة، قبل أن يهطل المطر، ترتفع درجات الحرارة في أثناء اليوم إلى أن تصبح السماء بيضاء. في نسيم الصباح الباكر، عندما تدفئ الشمس الجلد بالكاد ويكون الهواء لا يزال منعشاً، تبدو أي مهمة ممكنة. أما لاحقاً، خلال حرارة اليوم اللاهبة، يستولي الكسل على كل من العقل والجسد. ومن السهل أن يفكر المرء في الصباح ويعد لائحة بالأعمال التي يود القيام بها، أما في العصر فكل ما يستطيع المرء أن يفكر فيه هو نهاية اليوم وإمكانية الراحة من الحر. اعتبرت السيدة راموتسوي هذا عيب بتسوانا الوحيد. فقد أيقنت أنها بلاد مثالية، كما يعتقد كل مواطنيها، ولكنها تصبح مثالية أكثر لو أن الأشهر الحارة الثلاثة تبرد قليلاً.

في التاسعة صباحاً، أعدت السيدة ماكوتسي فنجاناً من شاي الأعشاب للسيدة راموتسوي وفنجاناً من الشاي العادي لنفسها. حاولت السيدة ماكوتسي أن تعود نفسها على شاي الأعشاب، فشربته طوال الأشهر القليلة الأولى من توظيفها، ولكنها في نهاية المطاف اعترفت أنها لم تستسغ

طعمه. من ذلك الوقت وصاعداً، أصبح هناك إبريقان من الشاي، أحدهما لها والآخر للسيدة راموتسوي.

قالت: "إن طعمه مركز جداً. وأعتقد أن رائحته تشبه رائحة الجرذان".

اعترضت السيدة راموتسوي قائلة: "هذا ليس صحيحاً. فهذا الشاي هو للناس الذين يتذوقون الشاي فعلاً. أما الشاي العادي فهو للجميع".

توقف العمل عندما تم تقديم الشاي. وكانت هذه الاستراحة تقليدياً وقتاً مستقطعاً لمتابعة تفاصيل الثرثرة وليس من أجل فتح أي مواضيع على قدر من الأهمية. فاستفسرت السيدة ماكوتسي عن صحة السيد جي إل بي ميتكوني، وتلقت شرحاً وجيزاً عن اللقاء غير المرضي الذي جمع السيدة راموتسوي به.

قالت السيدة راموتسوي: "يبدو أنه فقد الاهتمام بكل شيء. فمن الممكن أن أخبره أن منزله يحترق من دون أن يبدي أي اهتمام على الأرجح. وهذا تصرف غريب جداً".

قالت السيدة ماكوتسي: "لقد رأيت من قبل أناساً مصابين بحالات كهذه. فلدي ابنة عم أرسلت إلى ذلك المستشفى في لوبيتس. وزرتها فيه، فرأيت الكثير من الناس الجالسين يحدقون بالسماء. وهناك أيضاً أناس يصيحون على الزوار ويتفوهون بكلام غريب لا معنى له".

عبست السيدة راموتسوي، وقالت: "إن ذلك المستشفى هو للمجانين. وليس السيد جي إل بي ميتكوني مجنوناً".

قالت السيدة ماكوتسي بسرعة: "بالطبع لا، لن يصبح مجنوناً أبداً. بالطبع لن يصبح كذلك".

ارتشفت السيدة راموتسوي الشاي. وقالت: "ولكن لا يزال يتعين عليّ أن آخذه إلى الطبيب. فقد قيل لي إنهم يستطيعون أن يعالجوا هذا النوع من التصرفات، وهي تدعى الكآبة. وهناك حبوب يمكن للمرء أن يتناولها".

قالت السيدة ماكوتسي: "هذا جيد. سيتحسن. وأنا واثقة من ذلك".

سلمتها السيدة راموتسوي فنجانها لإعادة ملئه، وسألتها قائلة: "ماذا عن عائلتك في بوبونونغ؟ هل هم على ما يرام؟".

صبت السيدة ماكوتسي الشاي الأحمر المركز في الفنجان. وقالت: "إنهم بخير، شكراً لك، يا سيدتي".

تنهدت السيدة راموتسوي وقالت: "أعتقد أنه من الأسهل أن يعيش المرء في بوبونونغ من أن يعيش هنا في غابورون. فهنا لدينا كل تلك المشاكل لنفكر فيها، أما في بوبونونغ فليست هناك سوى الصخور". ثم قاطعت نفسها قائلة: "بالطبع، إن بوبونونغ مكان جميل جداً".

ضحكت السيدة ماكوتسي: "ليس عليك أن تتحدثي بتهذيب عن بوبونونغ. ويمكنك أن تسخري منها. فهي ليست مكاناً جيداً للجميع. ولا أود أن أعود إلى هناك، الآن بعد أن جربت العيش في غابورون".

قالت السيدة راموتسوي: "ستضيعين مواهبك هناك. فما فائدة شهادة الدبلوم من كلية بتسوانا للسكرتاريا في مكان مثل بوبونونغ؟ سيأكلها النمل".

ألقت السيدة ماكوتسي نظرة خاطفة إلى الجدار حيث علقت شهادتها من كلية بتسوانا للسكرتاريا محاطة بإطار. وقالت: "يجب أن نتذكر أن نأخذها إلى المكتب الجديد عندما ننتقل. فأنا لا أود أن أتركها هنا".

قالت السيدة راموتسوي التي لم تحرز أي شهادة دبلوم: "بالطبع يجب أن نأخذها. إذ إن شهادة الدبلوم جيدة من أجل الزبائن. فهي تمنحهم الثقة بوكالتنا".

قالت السيدة ماكوتسي: "شكراً لك".

انتهت استراحة الشاي. فذهبت السيدة ماكوتسي لتغسل فنجاني الشاي تحت صنبور المياه خلف المبنى. وعندما عادت لتوها، وصل الزبون، وهو الزبون الأول منذ أكثر من أسبوع. ففوجئت المرأتان لرؤية الرجل الطويل القوي البنية الذي قرع على الباب بالطريقة البتسوانية الملائمة، وانتظر بتهذيب أن تقدم له الدعوة للدخول. ولم تبدوا مهيأتين لحقيقة أن السيارة التي وصل بها مع سائقها ذي اللباس الحكومي الأنيق، كانت سيارة مرسيدس حكومية.

قال الرجل بعد أن استجاب لدعوة الجلوس على الكرسي أمام مكتب السيدة راموتسوي: "إنك تعرفين من أنا، يا سيدتي، أليس كذلك؟".

قالت السيدة راموتسوي بكياسة: "بالطبع أعرفك، يا سيدي. إن لك علاقة بالحكومة. أنت مسؤول في الحكومة. فقد رأيت صورتك في الصحف مرات عدة".

أشار مسؤول الحكومة بهيئة توحي بنفاد الصبر، وقال: "نعم، هناك تلك الأمور بالطبع. ولكن أتعرفين من أنا عندما لا أكون مسؤولاً في الحكومة؟".

سعلت السيدة ماكوتسي بأدب. فالتفت مسؤول الحكومة نصف التفاتة ليواجهها.

فشرحت السيدة راموتسوي قائلة: "هذه مساعدتي، وهي تعرف الكثير من الأشياء".

قالت السيدة ماكوتسي: "إنك قريب أحد الزعماء. ووالدك ابن عم تلك العائلة. أعلم هذا لأنني أنحدر من ذلك الجزء من البلاد أيضاً".

ابتسم مسؤول الحكومة وقال: "هذا صحيح".

تابعت السيدة ماكوتسي قائلة: "إن زوجتك قريبة ملك ليسوتو، أليس كذلك؟ فقد رأيت صورة لها أيضاً".

صفر رجل الحكومة. وقال: "يا الله! يمكنني أن ألاحظ أنني أتيت إلى المكان الصحيح. إذ يبدو عليكما أنكما تعرفان كل شيء".

أومأت السيدة راموتسوي إلى السيدة ماكوتسي وابتسمت قائلة: "إن مهمتنا هي أن نعرف الأشياء. والتحري الخاص الذي لا يعرف شيئاً ليس بذي نفع لأحد. وينحصر مجال عملنا في جمع المعلومات كما ينحصر عملك في إلقاء الأوامر على الموظفين المدنيين".

قال مسؤول الحكومة بتذمر: "إنني لا ألقي الأوامر فقط. بل يجب علي أن أصنع السياسة وأتخذ القرارات".

قالت السيدة راموتسوي بسرعة: "بالطبع، لا بد أن العمل كمسؤول في الحكومة وظيفة كبيرة جداً".

أومأ مسؤول الحكومة برأسه، وقال: "إنها ليست وظيفة سهلة وخاصة إن تملَّك القلقُ المرء بشأن شيء ما. إنني أستيقظ كل ليلة في الثانية أو الثالثة، ويحرمني ذلك القلق من نعمة النوم. فأبقى ساهراً. وعندما يحين وقت اتخاذ القرارات في الصباح أشعر أن رأسي يدور ولا أقوى على التفكير. فهذا هو ما يحدث عندما ينهش القلق المرء في أعماقه".

شعرت السيدة راموتسوي أنها وصلت الآن إلى سبب الاستشارة. وقد كان من الأسهل لها أن تصل إليه بتلك الطريقة، أي أن تفسح المجال للزبون للاسترسال في الموضوع بشكل غير مباشر بدلاً من أن تستفسر عنه بشكل مباشر. فتلك الطريقة في فتح الموضوع أكثر لطفاً وأقل وقاحة.

قالت له: "باستطاعتنا أن نساهم في تخفيف القلق. وباستطاعتنا أحياناً أن نجعله يختفي تماماً".

قال رجل الحكومة: "هذا هو ما سمعته عنك. إذ يقال إنك سيدة قادرة على صنع الأعاجيب. فهذا هو ما سمعته".

قالت: "إنك لطيف جداً، يا سيدي". ثم أمسكت عن الكلام وكل الاحتمالات تتسارع في ذهنها. فالخيانة على سبيل المثال هي أكثر مشكلة شائعة تؤرق الزبائن الذين يستشيرونها ولا سيما أولئك الذين يشغلون مناصب تشغلهم طوال الوقت وتبعدهم عن بيوتهم كما هي حال مسؤول الحكومة. ومن الممكن أن تكون المشكلة سياسية. وهذا سيعتبر مجالاً جديداً عليها. إذ إنها لا تعرف شيئاً عن أعمال الأحزاب السياسية خلا عن أنها تنطوي على الكثير من الخداع. وكانت قد قرأت كل ما يتعلق بالرؤساء الأمريكيين والصعوبات التي عانوا منها بهذه الفضيحة وتلك مع النساء واللصوص وأشياء من هذا القبيل. ولكن أيمكن أن يكون ثمة شيء من هذا النوع في بتسوانا؟ بالتأكيد لا. وإن كان هناك شيء من هذا النوع، فلن تفضل أن تتورط فيه. إذ إنها لا تتخيل نفسها تقابل المخبرين في الزوايا المظلمة في منتصف الليل أو تتحدث هامسة إلى الصحفيين في الحانات. ومن جهة أخرى، فقد تقدر السيدة ماكوتسي هذه الفرصة...

رفع مسؤول الحكومة يده وكأنه يأمر بالتزام الصمت. فبدت لها إيماءة متغطرسة من جانبه، ولكنه سليل أسرة ذات علاقات جيدة. فربما تبدر منه تصرفات من هذا النوع بشكل طبيعي.

قال وهو ينظر بشكل خاطف إلى السيدة ماكوتسي: "هل يمكنني أن أتحدث بسرية تامة".

فقالت السيدة راموتسوي: "إن مساعدتي كتومة جداً. ويمكنك الوثوق بها".

ضيق مسؤول الحكومة عينيه، وقال: "آمل ذلك لأنني أعرف طبيعة النساء. فهن يحببن أن يثرثرن كثيراً".

فتحت السيدة ماكوتسي عينيها على وسعهما باستياء واضح.

فقالت السيدة راموتسوي بنبرة فولاذية: "أؤكد لك، يا سيدي، أن وكالة التحريات النسائية الأولى محكومة بأكثر مبادئ السرية صرامة، أكثرها صرامة على الإطلاق. وهذا لا ينطبق علي فقط، ولكن أيضاً على تلك السيدة الجالسة هناك، السيدة ماكوتسي. وإن خامرك أي شك يتعلق بهذا، فعندئذ ينبغي عليك أن تعثر على تحريين خاصين آخرين. ونحن لن نعترض على هذا". وتوقفت ثم قالت: "وهناك شيء آخر، يا سيدي. هناك ثرثرة كثيرة يتم تداولها في هذه البلاد، ومعظمها، في رأيي الشخصي، يدور على ألسنة الرجال. فالنساء عادة مشغولات فوق الحد ليثرثرن".

طوت ذراعيها على طاولة مكتبها بعد أن عبرت عن رأيها بكل صراحة. ولم تكن ستندهش إن خرج مسؤول الحكومة من المكتب. فرجل يشغل وظيفة كوظيفته ليس معتاداً أن يتحدث إليه أحد بهذه الطريقة، ومن المرجح أنه لن يعتاد عليها.

لم يقل مسؤول الحكومة شيئاً لبرهة وجيزة، بل راح يحدق بالسيدة راموتسوي وحسب.

ثم قال أخيراً: "إذاً، أنت محقة تماماً. وأعتذر أنني لمحت لعدم قدرتك على كتمان السر". ثم قال ملتفتاً إلى السيدة ماكوتسي: "وأعذر أنني لمحت للشيء نفسه عنك، يا سيدتي. فهذا ليس قولاً لطيفاً لأن أتفوه به".

شعرت السيدة راموتسوي بالتوتر ينحسر بعيداً. ثم قالت: "هذا حسن. لم لا تخبرنا عما يقلقك؟ سوف تغلي لنا مساعدتي إبريق الشاي. هل تفضل شاي الأعشاب أم الشاي العادي؟".

قال لها رجل الحكومة: "شاي الأعشاب. فهو مفيد لتهدئة القلق، على ما أعتقد".

قال رجل الحكومة: "لأنك تعرفين من أنا، فلن يتوجب علي أن أبدأ من البداية، أو على الأقل من بداية البداية. إنك تعلمين أنني ابن رجل مهم وأنني الابن البكر، مما يعني أنني سأصبح من يترأس العائلة عندما يختار الله والدي لجواره. وآمل ألا يحدث هذا قبل وقت طويل.

"لدي أخوان، أحدهما لديه خطب ما في عقله ولا يتحدث لأحد. ولم يتحدث لأحد قط أو يهتم بأي شيء منذ طفولته، لذا أرسلناه إلى محطة الماشية، وهو الآن يعيش سعيداً هناك ولا يعاني من

أي مشكلة. فهو يقوم بمجرد الجلوس وعد الماشية، وعندما ينتهي يعاود الكرة من جديد. وهذا هو كل ما يريده من الحياة رغم أنه يبلغ الثامنة والثلاثين من عمره.

"وهناك أخي الآخر، وهو أصغر مني بكثير. فأنا في الرابعة والخمسين وهو في السادسة والعشرين فقط. إنه أخي من أم أخرى. فوالدي رجل عتيق الطراز متزوج من امرأتين. وأم أخي هي الزوجة الأصغر سناً. وهناك أخوات فتيات كثيرات. فلدي تسع أخوات من أمهات مختلفات. وكثير منهن تزوجن ولديهن أطفالهن. لذا، فنحن عائلة كبيرة، ولكنها صغيرة بالنسبة إلى عدد الصبية المهمين، وهما في الواقع أنا وأخي الأصغر ذو الستة والعشرين عاماً، واسمه موغادي.

"إنني مولع كثيراً بأخي. فلأنني أكبره سناً بسنوات عدة أتذكر طفولته جيداً. وعندما كبر قليلاً، علمته أشياء كثيرة. فعلمته كيف يعثر على ديدان الموباني وكيف يصطاد النمل الطائر عندما يخرج من جحوره حين أول هطول للمطر. وأخبرته عن الأشياء التي يمكن للمرء أن يأكلها من القفر وتلك التي لا يمكنه ذلك.

"وفي أحد الأيام، أنقذ أخي حياتي. وقد كنا آنذاك مقيمين عند محطة الماشية حيث يحتفظ والدنا بجزء من قطيعه. وكان يوجد بعض أفراد قبيلة البساروا لأن محطة ماشية والدي ليست بعيدة عن المكان الذي يأتي منه أولئك الناس من صحراء كالاهاري. إنه مكان جاف جداً، ولكن والدي أقام هناك طاحونة هوائية لتضخ الماء من أجل الماشية. فأصبحت لدينا كميات وافرة من المياه الباطنية الشديدة العذوبة. واعتاد البساروا أن يأتوا ويشربوا من هذه المياه وهم يتجولون في الأنحاء ثم يقومون ببعض الأعمال لوالدي مقابل بعض الحليب من الأبقار أو قطعة من اللحم إن حالفهم الحظ. وأحبوا والدي كثيراً لأنه لم يضربهم قط على عكس بعض الناس الآخرين الذين يستخدمون السوط لجلدهم، ولكنني لم أوافق على ضرب أولئك الناس قط.

"خرجت مصطحباً أخي لنقابل بعض أفراد البساروا الجالسين تحت إحدى الأشجار في مكان غير بعيد. وكانت لديهم بعض النقافات المصنوعة من جلد النعام. فأردت أن أشتري واحدة لأخي، لذا أخذت معي بعض اللحم لأعطيهم إياه مقابلها. وظننت أنهم سيعطوننا بيضة نعام بالإضافة إليها.

"وقعت الحادثة بعد هطول المطر مباشرة. وكان هناك عشب نضر وأزهار. لا بد أنك تعلمين، يا سيدتي، كيف تصبح الأمور هناك عندما تهطل الأمطار أول مرة. لقد أصبحت الأرض طرية فجأة ونبتت الأزهار في كل مكان. وأصبح المكان جميلاً لدرجة أنه يجعل المرء ينسى للحظة كم كان حاراً وجافاً وقاسياً. مشينا على طول طريق شقته الحيوانات بحوافرها، أنا في المقدمة وأخي الأصغر خلفي. وكانت معه عصا طويلة يجرها على الأرض بجانبه. فشعرت بسعادة غامرة

لوجودي هناك بجانب أخي الصغير ولرؤية ذلك العشب النضر الذي أيقنت أنه سيجعل الماشية تسمن من جديد.

"وفجأة صاح علي من الخلف، فتوقفت. ورأيت على العشب بجانبنا أفعى رأسها مرفوع عن الأرض وفمها مفتوح على وسعه وتصدر صوت فحيح. وكانت أفعى كبيرة يقارب طولها طولي ومرفوعة عن الأرض بمقدار ذراع. فعرفت على الفور أي نوع من الأفاعي هي. وكاد قلبي أن يتوقف عن الخفقان.

"التزمت السكون التام، لأنني أدركت أنني إن تحركت حركة واحدة فمن الممكن أن تلدغني الأفعى لأنها واقفة على بعد مسافة قصيرة جداً مني. وراحت الأفعى تحدجني بتلك النظرات الغاضبة التي تتمتع بها عيون أفاعي المامبا. فظننت أنها ستلدغني ولم يعد بيدي ما أفعله.

"وفي تلك اللحظة، سمعت صوت احتكاك ورأيت أخي الصغير، وهو في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره آنذاك، يحرك العصا باتجاه الأفعى ويدفع برأسها على الأرض. فحركت الأفعى رأسها، وقبل أن ندرك ما كان يحدث، ضرب رأسها رأس العصا. فمنحني هذا وقتاً كافياً لأن ألتفت وأسحب أخي ونركض إلى آخر الممر. فاختفت الأفعى. وكانت قد عضت العصا وكسرت أحد نابيها، على ما أعتقد. ومهما يكن ما حدث لها، فهي لم تُؤْثر أن تطاردنا.

"لقد أنقذ حياتي. أتعلمين، يا سيدتي، ما يحدث إن تعرض شخص ما لعضة أفعى المامبا؟ ليست هناك فرصة للنجاة منها. وهكذا، فمن ذلك اليوم وصاعداً، أيقنت أنني مدين بحياتي لأخي الأصغر.

"لقد حدث هذا قبل أربعة عشر عاماً. ونحن الآن لا نمشي عبر القفر معاً كثيراً، ولكنني ما زلت أحب أخي حباً جماً، ولهذا السبب حزنت كثيراً عندما أتى ليراني في غابورون وقال لي إنه سيتزوج فتاة قابلها أثناء دراسته في الجامعة. وكان يدرس لينال شهادة في العلوم ثم التقى فتاة من ماهالابي. إنني أعرف والدها لأنه موظف في إحدى الوزارات هنا. فقد رأيته يجلس تحت إحدى الأشجار مع موظفين آخرين في وقت الغداء. وهو الآن يلوح تحية لي كلما رآني أمر بسيارتي. وكنت ألوح له في البداية، ولكنني لم أعد أزعج نفسي بذلك. فلماذا ينبغي علي أن ألوح لهذا الموظف طوال الوقت لمجرد أن ابنته قابلت أخي؟

"إن أخي يقيم في المزرعة التي نملكها شمال بيلين ويديرها جيداً جداً، ووالدي راضٍ عن عمله. فأعطاه إياها وأصبحت ملكاً له، وهذا يجعل منه رجلاً ثرياً. أما أنا فمنحني والدي مزرعة أخرى كانت له أيضاً، ولذلك فأنا لا أشعر بالغيرة من أخي. تزوج موغادي تلك الفتاة قبل ثلاثة أشهر وانتقلت إلى بيت المزرعة الذي نملكه. ويعيش في ذلك المنزل والدي ووالدتي كما تأتي عماتي ويمكثن هناك وقتاً طويلاً من السنة. فهو منزل كبير وفيه متسع كافٍ للجميع.

"لم ترغب والدتي أن تتزوج تلك المرأة أخي. وقالت إنها لن تصبح زوجة صالحة ولن تسبب للعائلة سوى التعاسة. واعتقدت أنا أن ذلك الزواج فكرة سيئة أيضاً، ولكنني ظننت أنني عرفت سبب زواجها من أخي. فليس السبب هو أنها تحبه أو أي شيء من هذا القبيل، ولكن والدها هو من شجعها أن تتزوج أخي لأنه ينحدر من عائلة ثرية ومرموقة. ولن أنسى أبداً، يا سيدتي، كيف نظر والدها في أنحاء المكان عندما أتى ليتحدث بشأن الزواج مع والدي. فقد كانت عيناه مفتوحتيْن على وسعهما من فرط الطمع. ولاحظته وهو يحسب قيمة كل شيء. حتى أنه سأل أخي كم رأساً من الماشية يملك، وهو رجل لا يملك أياً منها، كما يمكنني أن أتصور!

"تقبلت قرار أخي رغم أنني اعتبرته قراراً سيئاً. وحاولت أن أرحب بزوجته الجديدة قدر المستطاع، ولكن ذلك لم يكن سهلاً علي لأنني استطعت أن ألاحظ طوال الوقت أنها تخطط لأن تؤلب أخي ضد عائلته. وبدا واضحاً لي أنها تريد أن تطرد أبي وأمي من المنزل بعد أن تصرفت بلؤم شديد مع عماتي. إن هذا الوضع أشبه ببيت علق فيه زبور. فراح الزبور يئز طوال الوقت محاولاً أن يلسع الآخرين.

"إن هذا وضع سيئ بما يكفي حسبما أظن، ولكن عندئذ حدث شيء زاد من حدة قلقي. فقد مكثت هناك لبضعة أسابيع وذهبت لرؤية أخي في البيت. وعندما وصلت قيل لي إنه ليس على ما يرام. ودخلت إلى غرفته فوجدته مستلقياً على سريره واضعاً يده على معدته. إذ إنه تناول طعاماً فاسداً، وقال لي إنه ربما لحم متعفن.

"سألته إن استشار طبيباً. فقال لي إن الوضع ليس خطيراً إلى هذا الحد وإنه سيتحسن عما قريب رغم شعوره بغثيان شديد في تلك اللحظة. ثم ذهبت لأتحدث إلى والدتي، فوجدتها جالسة وحدها في الشرفة.

"أشارت إلي لأجلس إلى جانبها. وبعد أن تأكدتْ من عدم وجود أحد يسمعنا أخبرتني بما يجول في خاطرها.

وقالت: "إن تلك الزوجة الجديدة تحاول أن تدس السم لأخيك. وقد رأيتها تدخل إلى المطبخ قبل تقديم وجبته. فقلت له ألا ينهي طبق اللحم لأنني أظنه متعفناً. ولو لم أقل له ذلك لأكل كل الطبق ومات. إنها تحاول أن تقتله بالسم".

"سألتها عن السبب الذي يدفعها لفعل ذلك، وقلت: "لقد تزوجتْ لتوها زوجاً ثرياً ولطيفاً، فلماذا قد ترغب بالتخلص منه بهذه السرعة؟".

"فضحكت أمي وقالت: "لأنها ستصبح وهي أرملة أثرى مما هي عليه الآن وهي زوجة. فقد كتب شقيقك وصية يمنحها فيها كل شيء: أي المزرعة وهذا المنزل، إن هو مات قبل أن تنجب

زوجته أطفالاً. وهكذا، حالما تحصل زوجته على مرادها يصبح بوسعها أن تطردنا وتطرد عماتك، ولكن عليها أولاً أن تقتله".

"في البداية، اعتبرت هذه الفكرة سخيفة، ولكنني كلما أمعنت التفكير بها، أدركت أنها تمنح تلك الزوجة الجديدة دافعاً واضحاً لارتكاب جريمتها وأن ما قالته أمي قد يكون صحيحاً. لم أستطع أن أتحدث إلى أخي بهذا الشأن لأنه يرفض أن يسمع أي شيء ضد زوجته. ولهذا فكرت أنه من الأفضل لي أن أجعل شخصاً من خارج العائلة يهتم بهذه المسألة ويكتشف حقيقة ما يجري".

رفعت السيدة راموتسوي يدها لتقاطعه، وقالت: "هناك الشرطة، يا سيدي. إن هذه القضية تبدو لي من اختصاص الشرطة. فهم معتادون على التعامل مع السجناء والمشبوهين ومن هم على شاكلتهم. أما نحن فلسنا من ذلك النوع من التحريين لأننا نساعد الناس لمعالجة المشكلات التي في حياتهم وليس من ضمن مهماتنا أن نحل الجرائم".

لاحظت السيدة راموتسوي وهي تتكلم أن السيدة ماكوتسي بدت خائبة الأمل. ولطالما أيقنت أن لمساعدتها رؤية خاصة في ما يتعلق بدورها في الوكالة. ففكرت السيدة راموتسوي أن هذا يعكس الفرق بين أن يكون المرء موشكاً على بلوغ الأربعين وأن يكون في الثامنة والعشرين من عمره. فإن كان المرء نيقاً بشأن المواعيد وهو في الأربعين من العمر، فهذا لأنه لا يتطلع لعيش حياة مليئة بالإثارة. أما في سن الثامنة والعشرين، فهو يرغب من كل قلبه أن يحظى بكل الإثارة المتاحة أمامه. تفهمت السيدة راموتسوي هذا الموقف بالطبع. إذ إنها عندما تزوجت نوت موكوتي كانت متلهفة لنيل كل التألق الذي يتبع زواجها من موسيقي مشهور يأخذ بالألباب عندما يدخل غرفة ما ويبدو على صوته أنه عابق بأنغام الجاز المثيرة التي يعزفها على بوقه اللامع. وعندما انتهى الزواج المؤلم بعد فترة وجيزة وذكراه الوحيدة الباقية لتلك اللحظة هي حجر صغير يدل على نهاية حياة طفلهما الخديج، تشوقت لعيش حياة ملؤها الاستقرار والهدوء. وهكذا، فليست الإثارة بكل تأكيد هي ما تسعى وراءه. وكان كلوفيس أندرسن، كاتب دليلها المهني: "مبادئ التحري الخاص"، قد حذر في الصفحة الثانية من كتابه، إن لم يكن على الصفحة الأولى، أولئك الذين امتهنوا التحري الخاص في سبيل تحقيق حياة أكثر إثارة من أنهم ارتكبوا خطأ خطيراً في نظرتهم لطبيعة العمل. وكتب في فقرة علقت بذهن السيدة راموتسوي واستشهدت بها للسيدة ماكوتسي عندما وظفتها أول الأمر: *إن مهمتنا هي مساعدة الناس في حل المسائل العالقة في حياتهم. وليست هناك أي إثارة منطوية ضمن مهنتنا بل هي عملية دقيقة تتطلب منا الصبر والملاحظة والاستنتاج والتحليل. فنحن حراس مثقفون نحرس الحقيقة وننقلها بأمانة، وليس هناك أي جانب رومانسي لعملنا. أما أولئك الذين يسعون وراء الرومانسية فينبغي أن يتركوا هذا الدليل عند هذه المرحلة ويبحثوا عن عمل آخر يقومون به.*

كانت عينا السيدة ماكوتسي قد اكتسبتا نظرة خالية من التعبير عندما استشهدت السيدة راموتسوي بهذا القول لها. وبدا من الواضح عندئذ أنها كونت فكرة مختلفة تماماً عن طبيعة هذا العمل. والآن، بوجود شخص لا يقل أهمية عن مسؤول حكومة جالس أمامهما يتحدث عن أسرار عائلته وعن اعتقالات محتملة فيها، شعرت بإمكانية إجراء تحقيق يمهد لها الطريق لإنجاز ما تحلم به. وعندما حدث هذا بالضبط بدا على السيدة راموتسوي أنها تعتزم رفض طلب الزبون!

حدق مسؤول الحكومة بالسيدة راموتسوي بعد أن أزعجه تدخلها. وبدا أنه يحاول جاهداً أن يخفي انزعاجه. فقد لاحظت السيدة ماكوتسي شفته العليا تختلج وهو يصغي إليها.

قال لها محاولاً أن يبقي نبرة صوته ضمن الحدود الطبيعية: "لا أستطيع أن أذهب للشرطة، فماذا يسعني أن أقول لهم؟ ستطلب الشرطة دليلاً على كلامي وسيقولون إنهم لا يملكون سبباً كافياً للذهاب إلى ذلك البيت واعتقال تلك الزوجة. إذ ستقول إنها لم تفعل شيئاً لأن زوجها حي يرزق. وسيقول الزوج: *هذه المرأة لم تفعل شيئاً. فما الذي تتحدثون عنه؟*

أمسك عن الكلام ونظر إلى السيدة راموتسوي وكأنه انتهى من عرض قضيته.

وقال لها فجأة: "إذاً؟ إن لم أستطع أن أذهب إلى الشرطة تصبح هذه مهمة التحري الخاص. فهذه هي وظيفتكم، أيها التحريون، أليس كذلك؟ ما قولك، يا سيدتي؟".

رمقته السيدة راموتسوي بتحديقة مماثلة، وهذا بحد ذاته تحدٍّ كافٍ. ففي المجتمع التقليدي، لا ينبغي عليها أن تنظر بحدة في عيني رجل من مرتبته. فهذا سيعتبر تصرفاً وقحاً جداً. ولكن الوقت تغير، فهي إحدى مواطنات جمهورية بتسوانا الحديثة. وهناك دستور يضمن كرامة كل المواطنين، من بينهم التحريات الخاصات. وقد تم تأييد هذا الدستور في ذلك اليوم نفسه من عام 1966 عندما أنزل علم المملكة المتحدة في الملعب ورفع العلم الأزرق الرائع عالياً وسط تهليل الحشود وهتافها. وهذا رقم قياسي لا تستطيع أي دولة أخرى في إفريقيا أن تضاهيه. كما أنها فوق هذا وذاك بريشس راموتسوي، ابنة الراحل أوبيد راموتسوي، وهو رجل تضاهي كرامته وقيمته أي رجل آخر سواء أكان من عائلة زعيمة أم لا ولطالما استطاع أن ينظر في عيني أي شخص إلى يوم مماته. وينبغي عليها هي أيضاً أن تفعل ذلك.

قالت له: "إن الأمر عائد إلي وحدي إن كنت أريد أن أقبل بقضية ما، يا سيدي. فأنا لا أستطيع أن أساعد الجميع، ولكنني أحاول أن أساعد الناس بقدر استطاعتي. وإن لم أستطع أن أفعل شيئاً فإنني أعتذر بكل بساطة. فهذه هي طريقة العمل في وكالة التحريات النسائية الأولى. أما في حالتك، فأنا لا أعرف وحسب كيف يسعنا أن نعرف ما يجب علينا معرفته. فهذه مشكلة داخل العائلة، ولا أفهم كيف يمكن لغريب أن يكتشف أي شيء يتعلق بها".

التزم مسؤول الحكومة الصمت، ونظر بشكل خاطف إلى السيدة ماكوتسي، ولكنها غضت بصرها.

ثم قال بعد بضع لحظات: "أفهم من هذا أنك لا تريدين أن تساعديني، يا سيدتي. حسناً الآن، هذا مؤسف جداً بالنسبة إليّ". وتوقف ثم قال: "هل لديك رخصة للعمل في هذا المشروع، يا سيدتي؟".

حبست السيدة راموتسوي نفسها، ثم قالت: "رخصة؟ هل هناك قانون يتطلب رخصة للعمل كتحرٍّ خاص؟".

فابتسم مسؤول الحكومة، ولكن عينيه ظلتا باردتين. وقال: "كلا على الأرجح. فأنا لم أتحقق من ذلك. ولكن ربما يسن قانون في هذا الشأن. إن هذا أمر يتعلق بالتنظيم. إذ يجب علينا أن ننظم المشاريع التجارية. وهكذا يصبح لدينا رخص للباعة المتجولين مثلاً، ويمكننا أن نسحبها من البائعين الذين لا يصلحون لتلك المهنة. فهكذا يتم تنظيم المهن".

كان أوبيد راموتسوي هو من أجاب على هذا الكلام: على لسان ابنته بريشس.

"لا أسمع ما تقوله، يا سيدي. لا أستطيع سماعه".

أخذت السيدة ماكوتسي فجأة تقلب الأوراق على مكتبها.

وقالت: "بالطبع، أنت محقة، يا سيدتي. فلا تستطيعين أن تذهبي بهذه البساطة وتسألي تلك المرأة إن هي تخطط لقتل زوجها. فهذا لن ينجح".

قالت السيدة راموتسوي: "كلا، ولهذا السبب لا نستطيع أن نفعل أي شيء في هذه الحال".

فقالت السيدة ماكوتسي بسرعة: "ومن ناحية أخرى، فقد خطرت لي فكرة. وأظن أنني أعرف كيف يمكننا أن ننفذها".

فتل مسؤول الحكومة على كرسيه ليواجه السيدة ماكوتسي.

"ما هي فكرتك، يا سيدتي؟".

بلعت السيدة ماكوتسي ريقها، وبدا على نظارتها أنها تلمع من شدة تألق تلك الفكرة.

فبدأت قائلة: "حسناً، من المهم أن ندخل إلى ذلك المنزل ونصغي إلى ما يتحدث عنه أولئك الناس. ومن المهم أن نراقب تلك المرأة التي تخطط لتلك الأعمال الشريرة وأن نكتشف خبيئة نفسها".

قال مسؤول الحكومة: "نعم، هذا هو ما أريده منكما أن تفعلاه. اكتشفا خبيئة نفسها ومواطن الشر فيها. وعندئذ يمكنكما أن تسلطا الضوء على ذلك الشر وتقولا لأخي: *أترى سوء طوية زوجتك. أترى كيف تتآمر ضدك؟*".

قالت السيدة راموتسوي: "لن يكون هذا سهلاً. إن الحياة ليست بهذه البساطة. إنها ليست هكذا وحسب".

قال مسؤول الحكومة: "من فضلك، يا سيدتي. دعينا نصغي إلى تلك المرأة الذكية ذات النظارة. فلديها أفكار حسنة جداً".

عدلت السيدة ماكوتسي نظارتها وتابعت قائلة: "هناك خدم في المنزل، أليس كذلك؟".

قال مسؤول الحكومة: "لدينا خمسة خدم بالإضافة إلى خدم آخرين يعملون في الخارج ورجال يعتنون بالماشية. وهناك خدم والدي المسنون. إنهم لم يعودوا يقوون على العمل، ولكنهم يجلسون باسترخاء في الشمس خارج المنزل، كما أن والدي يطعمهم جيداً. وهم بدناء جداً".

قالت السيدة ماكوتسي: "إن الخادم الذي يعمل داخل المنزل يرى كل شيء. فالخادمة ترى داخل سرير الزوج والزوجة، أليس كذلك؟ والطاهية ترى ما يدخل معدتيهما. إن الخدم موجودون دائماً يراقبون كل ما يجري ويتحدثون مع خدم آخرين. وهكذا، فالخدم يعرفون كل شيء".

سأل مسؤول الحكومة: "إذاً، هل ستذهبين وتتحدثين إلى الخدم؟ ولكن هل سيتحدثون إليك؟ سوف يقلقون بشأن وظائفهم. وهذا سيجعلهم يلتزمون الصمت ويقولون إن لا شيء يحدث".

عارضته السيدة ماكوتسي قائلة: "ولكن السيدة راموتسوي تجيد التحدث إلى الناس. وهذا يجعلهم يفتحون لها قلوبهم. وقد رأيت هذا يحدث بأم عيني. ألا يمكنك أن تؤمن لها إقامة في منزل والدك لبضعة أيام؟ ألا تستطيع أن ترتب لهذا؟".

قال مسؤول الحكومة: "بالطبع أستطيع ذلك. سأخبر والديَّ أن هناك امرأة أسدت إليّ معروفاً سياسياً وأنها بحاجة لأن تبقى بعيدة عن غابورون لبضعة أيام بسبب بعض المشاكل هنا. وسوف يصدقان هذا".

نظرت السيدة راموتسوي بشكل خاطف إلى السيدة ماكوتسي وفكرت أن موقع مساعدتها لا يؤهلها لتقديم اقتراحات من ذلك النوع ولا سيما إن ترتب عليها توريطها بقبول قضية لا تود أن تقبل بها. فكان سيتوجب عليها أن تتحدث إلى السيدة ماكوتسي بهذا الشأن، ولكنها لم تود أن تحرجها أمام ذلك الرجل المغرور ذي الطرق الاستبدادية. ولهذا وافقت على قبول القضية ليس لأن تهديده السافر نجح في إخافتها، وهذا ما تصدت له بشكل واضح بقولها إنها لم تسمعه، ولكن لأن طريقة اكتشاف الحقيقة قدمت لها.

قالت: "حسناً، سوف نقبل بهذا، يا سيدي، ليس بسبب أي شيء قلته لي ولا سيما تلك الأشياء التي لم أسمعها". وتوقفت قليلاً لتمنحه الوقت للشعور بتأثير كلماتها، ثم قالت: "وسأقرر ما سأفعله حالما أصل إلى هناك. ويجب ألا تتدخل أبداً".

أومأ مسؤول الحكومة برأسه بحماسة، وقال: "هذا حسن، يا سيدتي. يسرني هذا كثيراً. وأعتذر لأنني قلت أشياء لا ينبغي أن تقال. ويجب أن تدركي أن أخي يهمني كثيراً. فلم أكن لأقول شيئاً لولا خوفي على أخي ليس إلا".

نظرت السيدة راموتسوي إليه وأدركت أنه يحب أخاه فعلاً، ولهذا فليس من السهل عليه أن يراه متزوجاً من امرأة لا يثق بها. فقالت: "لقد سبق ونسيت كل ما قيل، يا سيدي. فلا تقلق بشأنه".

نهض مسؤول الحكومة على قدميه، وقال: "هلا تبدإين غداً؟ سوف أقوم بالإجراءات".

فقالت السيدة راموتسوي: "كلا، سوف أبدأ في غضون بضعة أيام. فلدي الكثير من العمل لأقوم به هنا في غابورون، ولكن لا تقلق. وإن يكن هناك ما يسعني تقديمه لمساعدة أخيك المسكين، فسوف أبذل كل جهدي لتقديمه. إذ إننا حالما نستلم قضية ما، لا نتعامل معها بأي استخفاف. وأعدك بذلك".

مد مسؤول الحكومة يده عبر الطاولة وأخذ بيدها ليصافحها، وقال: "إنك طيبة جداً، يا سيدتي. وكل كلمة قيلت لي عنك صحيحة تماماً".

ثم التفت إلى السيدة ماكوتسي، وقال: "وأنت، يا سيدتي، سيدة ذكية. وإن قررت يوماً ما أنك سئمت من العمل كتحرية خاصة فتعالي واعملي لدى الحكومة. فالحكومة بحاجة لنساء مثلك. إذ إن معظم النساء الذين يعملون في الحكومة لسن بذوات فائدة. فهن يجلسن ويطلين أظافرهن طوال الوقت. وقد رأيتهن يفعلن هذا. أما أنت فسوف تعملين بجد، على ما أظن".

أوشكت السيدة راموتسوي أن تقول شيئاً ما، ولكن مسؤول الحكومة كان قد سبق وتوجه في طريقه خارجاً. ومن النافذة، رأتا سائقه يفتح الباب بأناقة ويغلقه خلفه.

قالت السيدة ماكوتسي: "إن عملت لصالح الحكومة..." ثم أضافت بسرعة قائلة: "لن أفعل هذا، بالطبع، ولكنني أتساءل كم سيمضي من الوقت قبل أن يصبح لدي سيارة كهذه وسائق".

ضحكت السيدة راموتسوي، وقالت: "لا تصدقي كل ما يقوله هذا الرجل. فالرجال من أمثاله يقطعون شتى الوعود الكاذبة. إنه رجل غبي جداً ومغرور أيضاً".

سألت السيدة ماكوتسي بقلق: "ولكن هل قال الحقيقة بشأن زوجة أخيه؟".

قالت السيدة راموتسوي: "على الأرجح. فأنا لا أظن أنه اختلق تلك القصة. ولكن تذكري ما يقوله كلوفيس أندرسن: لكل قصة وجهان. وحتى الآن، سمعنا وجهاً واحداً: الوجه الغبي".

فكرت السيدة راموتسوي أن الحياة بدأت تصبح معقدة. فقد وافقت لتوها على قضية قد تبرهن أنها بعيدة كل البعد عن البساطة وستأخذها بعيداً عن غابورون. وهذا بحد ذاته مثير للجدل بما يكفي، ولكن الوضع برمته يصبح أكثر صعوبة عندما يفكر المرء بأمر السيد جي إل بي ميتكوني وكراج تلوكوينغ رود سبيدي موتورز. وهناك مسألة الطفلين اللذين استقرا في منزلها في زيبرا درايف. وهكذا، توجب عليها أن تعمل على تنظيم معيشتهما في المنزل. فشكلت خادمتها روز مصدر عون كبير في هذا المجال، ولكنها لا تستطيع أن تتحمل العبء كله وحدها.

كانت مهمة التحضير للانتقال تحتل رأس اللائحة التي بدأت تعدها في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم. ففكرت الآن أنه أصبح لزاماً عليها أن تضع الكراج على قمة اللائحة والمكتب ثانياً. وعندئذ يمكنها أن تضع الطفلين تحتهما: فكتبت كلمة: *المدرسة*، بأحرف كبيرة ورقم هاتف تحتها. وتلت ذلك عبارة: *إحضار رجل لتصليح الثلاجة*، وعبارة: *أخذ ابن روز لاستشارة الطبيب بشأن إصابته بالربو*. وأخيراً كتبت: *التحقيق بقضية الزوجة الشريرة*.

قالت: "أعتقد أنني سآخذك إلى الكراج، يا سيدة ماكوتسي. فلا يمكننا أن نخذل السيد جي إل بي ميتكوني على الرغم من سلوكه الغريب. ويجب أن تبدإي واجباتك كنائبة مدير منذ الآن. وسوف أوصلك بسيارة الفان إلى الكراج".

أومأت السيدة ماكوتسي برأسها، وقالت: "إنني على أهبة الاستعداد للإدارة، يا سيدتي".

الفصل السادس

في ظل الإدارة الجديدة

كان كراج "تلوكوينغ رود سبيدي موتورز" قائماً على بعد مسافة قصيرة عن الطريق العام وعلى بعد نصف ميل من المتجرين الكبيرين اللذين تم بناؤهما على طرف المنطقة المعروفة باسم "القرية". وكان عبارة عن مجمع مكون من ثلاثة أبنية: أحدهما متجر بيع عام يعرض كل شيء بدءاً من الملابس الرخيصة إلى البارافين وشراب السكر الذهبي، والآخر باحة بناء تتاجر بأخشاب النجارة وصفائح المعادن المستعملة لبناء الأسقف. أما الكراج فيقع عند الطرف الشرقي محاطاً بعدة أشجار شوك ومضخة وقود قديمة في المقدمة. وقد وُعد السيد جي إل بي ميتكوني بمضخة أكثر حداثة، ولكن شركة الوقود لم تحرص على بيعه للوقود منافسة لمضخاتها الحديثة. فسرعان ما نسى مسؤولو الشركة الوعد الذي قطعوه له وواصلوا تزويده بالوقود لأنهم ملزمون بذلك بموجب العقد، ولكنهم فعلوا ذلك بلا أي حماسة. وأصبحوا ميالين لنسيان الوقت الذي اتفقوا على القدوم فيه. نتيجة لذلك، ظلت صهاريج التخزين فارغة في أغلب الأحيان.

لم يكن أي من ذلك يهم فعلاً لأن الزبائن يقصدون كراج تلوكوينغ رود سبيدي موتورز ليعمل السيد جي إل بي ميتكوني على تصليح سياراتهم وليس ليشتروا الوقود. إذ إنهم أناس يدركون الفرق بين الميكانيكي البارع وذلك الذي بالكاد يجيد تصليح السيارات. فالميكانيكي البارع يفهم السيارات ويستطيع أن يشخص أعطالها كما يستطيع الطبيب المتمرس أن يشخص علة المريض من إلقاء نظرة واحدة عليه.

شرح لمتدربيه قائلاً: "إن المحركات تخاطب الإنسان، فأصغيا إليها. وستخبركما ما خطبها، لو أنكما تصغيان فقط".

وبالطبع، لم يفهم المتدربان ما كان يرمي إليه. إذ إن وجهة نظرهما عن الآلات مختلفة تماماً. وهذا يبقيهما عاجزين تماماً عن إدراك أن الآلات قد تتمتع بأمزجة ومشاعر وقد تشعر بالتوتر والضغط أو تحظى بالراحة والاسترخاء. ولكن وجود هذين المتدربين يعتبر بادرة إحسان من جانب السيد جي إل بي ميتكوني الذي شعر بالقلق من عدم وجود عدد كافٍ من الميكانيكيين المتدربين في بتسوانا ليحلوا محل جيله عندما يتقاعد في نهاية المطاف.

وكان قد علق للسيدة راموتسوي قائلاً: "ستضيع إفريقيا إن لم نحظَ بميكانيكيين بارعين. فالميكانيكيون هم حجر الأساس في بناء المجتمع. ويوجد أشخاص آخرون في القمة، كالأطباء

والممرضات والمعلمين، ولكن المجتمع برمته مبني على الميكانيكيين. ولهذا السبب من المهم أن نعلم الشبان أن يصبحوا ميكانيكيين".

والآن، وهما تدخلان كراج "تلوكوينغ رود سبيدي موتورز"، رأت السيدة راموتسوي والسيدة ماكوتسي أحد المتدربين جالساً عند مقود إحدى السيارات بينما يدفعها الآخر ببطء نحو الورشة. وبينما هما تتقدمان، ترك المتدرب الذي يدفع السيارة مهمته لينظر إليهما، فتراجعت السيارة للوراء.

ركنت السيدة راموتسوي سيارة الفان البيضاء الصغيرة تحت إحدى الأشجار ومشت برفقة السيدة ماكوتسي إلى مدخل المكتب.

قال المتدرب الأطول قامة من بينهما: "صباح الخير، يا سيدتاي. إن آلية تعليق سيارتك الفان سيئ جداً. فأنت ثقيلة الوزن فوق الحد بالنسبة إليها، لذا فهي مائلة إلى أحد الجانبين. ويمكننا أن نصلحها من أجلك".

أجابت السيدة راموتسوي: "ليست هناك أي مشكلة بها. فقد فحص السيد جي إل بي ميتكوني بنفسه الفان. ولم يذكر أي شيء عن آلية التعليق".

قال المتدرب: "ولكنه لا يقول أي شيء عن أي شيء هذه الأيام. فهو صامت تماماً".

توقفت السيدة ماكوتسي ونظرت إلى الصبي. وقالت: "أنا السيدة ماكوتسي". وحدقت به من خلال نظارتها الكبيرة، ثم قالت: "إنني نائبة المدير. وإن أردت أن تتحدث عن آلية التعليق فيمكنك أن تأتي إلي في المكتب وتتحدث معي. وفي غضون ذلك، ما الذي تفعلانه؟ سيارة من تلك؟ وما الذي تفعلانه بها؟".

نظر المتدرب من فوق كتفه إلى صديقه التماساً للدعم.

ضحك وقال: "إنها سيارة تلك المرأة التي تسكن خلف مخفر الشرطة. أعتقد أنها إحدى أولئك النساء الرخيصات. وهي تستخدم هذه السيارة لتتعرّف على الرجال، ولكن محركها لم يعد يعمل الآن. ولهذا، فلن تستطيع أن تحصل على مزيد من الرجال". وراح يقهقه ضاحكاً.

تجهمت السيدة ماكوتسي غضباً، وقالت: "لا يعمل المحرك، أليس كذلك؟".

قال المتدرب: "نعم، لا يعمل. ولهذا، وجب علي وعلى تشارلي أن نقود الشاحنة ونقطر بها السيارة إلى الداخل. ونحن الآن ندفعها إلى الكراج لنفحص المحرك. وهذا سيكون عملاً شاقاً، على ما أعتقد. فهي بحاجة إلى مبدء حركة ذاتي. تعرفين تلك الأشياء. إنها تكلف مبلغاً كبيراً من المال، ولهذا، فمن الجيد أن الرجال يدفعون لتلك المرأة كل ذلك المال لكي تتمكن من سداد الفاتورة". وأخذ يضحك ثانية.

أنزلت السيدة ماكوتسي نظارتها على أنفها وراحت تحدق بالصبي من فوقها.

وقالت: "وماذا عن البطارية؟ قد يكون العطل من البطارية. هل حاولت أن تصلها ببطارية أخرى؟".

فتوقف المتدرب عن الابتسام.

سألت السيدة راموتسوي: "حسناً؟ هل أوصلت الأسلاك؟ هل جربت القيام بذلك؟".

هز المتدرب رأسه، وقال: "إنها سيارة قديمة. ولا بد من وجود خطب آخر بها".

قالت السيدة ماكوتسي: "هراء. افتح المقدمة. ألديك بطارية في الورشة؟ أوصل الأسلاك بتلك البطارية وجربها".

نظر المتدرب إلى الآخر الذي هز كتفيه.

فقالت السيدة ماكوتسي: "هيا. أمامي الكثير من العمل في المكتب. اذهب من فضلك".

لم تقل السيدة راموتسوي شيئاً، بل راقبت والسيدة ماكوتسي بينما دفع المتدربان السيارة المسافة المتبقية إلى الورشة ثم أوصلا أسلاك البطارية ببطارية جديدة. وبعد ذلك، تسلق أحدهما بتجهم إلى مقعد السائق وشغل المشعلة. فدار المحرك على الفور.

قالت السيدة ماكوتسي: "اشحنا البطارية ثم غيرا الزيت من أجل تلك المرأة وأعيدا إليها السيارة. وقولا لها إنكما تعتذران لأن السيارة استغرقت وقتاً أطول من اللازم، ولكنكما غيرتما الزيت بلا مقابل تعويضاً لها". ثم التفتت إلى السيدة راموتسوي التي كانت واقفة تبتسم بجانبها، وأضافت: "إن ولاء الزبون مهم جداً. وإن قدم المرء شيئاً ما للزبون فسوف يبقى مخلصاً له إلى الأبد. وهذا مهم جداً في العمل".

وافقتها السيدة راموتسوي قائلة: "مهم جداً". وكانت بعض الشكوك قد خامرت السيدة راموتسوي حول مقدرة السيدة ماكوتسي على إدارة الكراج، ولكن تلك الشكوك كانت ستهدأ عما قريب.

سألت مساعدتها بشكل عفوي وهما تبدآن بتصنيف سطح المكتب الذي يعج بالأوراق: "هل تعرفين الكثير عن السيارات؟".

فأجابت السيدة ماكوتسي: "ليس كثيراً، ولكنني بارعة بالآلات الكاتبة. وكل الآلات متشابهة، ألا تعتقدين ذلك؟".

تمثلت مهمتهما الفورية في اكتشاف السيارات التي تنتظر أن يتم تصليحها وتلك التي تم تسجيلها للاهتمام بها في المستقبل. فاستدعتا المتدرب الأكبر، واسمه تشارلي، إلى المكتب وطلبتا منه أن يعد لائحة بالعمل المؤجل. فاتضح أن هناك ثماني سيارات مركونة في مؤخرة الكراج بانتظار قطع الغيار. وكان قد تم طلب بعض هذه القطع والبعض الآخر لا. فحالما أُعدت اللائحة بأسمائها اتصلت السيدة ماكوتسي بكل مزود من مزودي القطع بالدور واستفسرت عن القطعة المطلوبة.

وقالت بصرامة: "إن السيد جي إل بي ميتكوني غاضب جداً. ولن نتمكن من سداد ثمن الطلبات الماضية ما لم تفسح لنا مجال التقدم في هذا العمل الجديد. هل تفهم هذا؟".

قطع مزودو القطع وعوداً وأوفوا بمعظمها. فبدأت قطع الغيار تصل بعد بضع ساعات. وأحضرها المزودون بأنفسهم. وكان قد تم تصنيف هذه القطع كما يجب، وهذا أمر لم يحدث من قبل حسب قول المتدربين، ووضعت على نضد من أجل تسليمها على الفور. وفي غضون ذلك، تعاونت السيدة ماكوتسي مع المتدربين، فركبا القطع وجربا المحركات. وفي نهاية المطاف، سلما كل قطعة إلى السيدة ماكوتسي لتجربها بنفسها. فطلبت منهما شرحاً لما تم إنجازه طالبة أحياناً أن تتفقد العمل نفسه. ولأنها لا تجيد القيادة، سلمت السيارة للسيدة راموتسوي لتقوم بقيادة تجريبية لها قبل أن تتصل بالمالك وتخبره أن العمل قد انتهى. ثم شرحت أنها ستطالب بسداد نصف الفاتورة فقط للتعويض عن طول التأخير. فهدأ هذا من غضب جميع الزبائن باستثناء أحدهم. فقد قال إنه سيقصد كراجاً آخر في المرة القادمة.

قالت السيدة ماكوتسي: "إذاً لن تتمكن من الاستفادة من عرض خدمتنا المجانية. وهذا أمر مؤسف".

فسبب هذا تغييراً ضرورياً في رأيه. وفي نهاية المطاف أعاد كراج "تلوكوينغ رود سبيدي موتورز" ست سيارات لأصحابها. وبدا على جميع الزبائن أنهم قد استعادوا ثقتهم بالكراج.

قالت السيدة ماكوتسي: "لقد كان اليوم الأول جيداً". فراقبت السيدة راموتسوي الشابين المنهكين يمشيان إلى آخر الشارع. ثم أضافت السيدة ماكوتسي قائلة: "لقد عمل هذان الشابان بجد. فكافأتهما بخمسين بولا لكل واحد منهما. إنهما سعيدان. وأنا واثقة من أنهما سيصبحان متدربين أفضل مما هما عليه الآن. وسترين هذا بنفسك".

ذُهلت السيدة راموتسوي، ثم قالت: "أحسبك على حق، يا سيدتي. فأنت مديرة استثنائية".

قالت السيدة ماكوتسي: "شكراً لك، ولكن يجب علينا أن نذهب إلى البيت الآن. فلدينا الكثير لنقوم به غداً".

أوصلت السيدة راموتسوي مساعدتها إلى البيت في سيارة الفان البيضاء الصغيرة عبر طرق تعج بأناس عائدين من أعمالهم. فكانت هناك حافلات صغيرة محملة فوق طاقتها ومائلة بشكل خطر إلى أحد جانبيها بسبب الثقل، ودراجات يجلس ركابها على وعاء للحمل، وأناس يمشون على أقدامهم بكل بساطة وأذرعهم تتأرجح وهم يصفرون ويفكرون ويأملون. كانت تعرف الطريق جيداً بعد أن أوصلت السيدة ماكوتسي إلى بيتها في مناسبات عدة ورأت البيوت المتداعية التي تحيط بها زمر من الأطفال المحدقين الفضوليين الذين يبدو على المنطقة أنها تعج بهم. أنزلت مساعدتها عند البوابة الأمامية وراقبتها وهي تمشي متجهة إلى مؤخرة البناء والكوخ القرميدي الذي تعيش فيه.

وظنت أنها لمحت شخصاً في المدخل، أو مجرد ظل ربما، ولكن السيدة ماكوتسي التفتت حينئذ. فتوجب على السيدة راموتسوي، التي لم ترغب أن تُشاهد وهي تراقبها، أن تنطلق بسيارتها مبتعدة.

الفصل السابع

الفتاة التي عاشت ثلاث مرات

لا يحظى كل شخص بخادمة في منزله، ولكن إن كان المرء يعمل في وظيفة ذات دخل محترم ولديه منزل بحجم المنزل الذي تملكه السيدة راموتسوي، فعدم توظيف خادمة، أو عدم إعالة عدة خدم منزليين بالفعل، يعتبر تصرفاً أنانياً. وقد أيقنت السيدة راموتسوي أن هناك بلداناً لا يوظف الناس فيها خدماً رغم أنهم ميسورو الحال بما يكفي للقيام بذلك، ووجدت هذا أمراً عصياً على التفسير. فإن كان الناس الذين يتمتعون بموقع يؤهلهم لتوظيف خدم يؤثرون ألا يفعلوا ذلك، فما الذي سيحل بالخدم عندئذ؟

أما بالنسبة إلى بتسوانا، ففي كل منزل في منطقة مثل زيبرا درايف، أو حتى كل منزل يحوي غرفتي نوم، من المرجح أن يكون هناك خادم. وقد سنت قوانين تحدد مقدار الراتب الذي يجب أن يتقاضاه الخدم، ولكن الناس غالباً ما يهزأون بها. فمنهم من يعاملون خدمهم معاملة سيئة ويدفعون لهم مبالغ شحيحة ويتوقعون منهم أن يعملوا طوال ساعات اليوم. وهؤلاء الناس على حد علم السيدة راموتسوي هم الغالبية العظمى. هذا هو سر بتسوانا المظلم – إنه الاستغلال الذي لا يحب أحد أن يتكلم عنه. فلا أحد بالتأكيد يحب أن يتكلم عن الطريقة التي عومل بها شعب البساروا في الماضي، أي كعبيد فعليين. وإن ذكر أحد هذا الأمر، راوغ الناس وتملصوا من الموضوع. ولكن هذه الأمور قد حدثت وما زالت تحدث هنا وهناك والجميع يعرف عنها. وبالطبع، هذا النوع من الأشياء يحدث في كل أرجاء إفريقيا. إن العبودية ظلم كبير ارتكب ضد إفريقيا، ولكنْ هناك أيضاً نخاسون إفريقيون راغبون ببيع شعوبهم. فلا تزال هناك حشود من الإفريقيين يعملون بأجور زهيدة في ظروف أشبه بظروف العبيد، ولكنْ هؤلاء أناس هادئون وضعفاء، وخدم المنازل من بينهم.

لطالما أصابت الدهشة السيدة راموتسوي لتعامل الناس بقسوة مع خدمهم. فأثناء زيارة قامت بها لإحدى صديقاتها في منزلها، أشارت الصديقة بلا مبالاة إلى أنها تمنح خادمتها خمسة أيام عطلة في السنة دون أن تتقاضى أي أجر عليها. وتفاخرت الصديقة بأنها تمكنت من تخفيض أجور الخادمة مؤخراً لأنها اعتبرتها كسولة.

سألت السيدة راموتسوي: "ولكن لماذا لم تترك العمل عندما فعلت هذا بها؟".

ضحكت الصديقة، وقالت: "أين تذهب؟ هناك أناس كثيرون يريدون وظيفتها. وهي تدرك ذلك وتعلم أنني أستطيع أن أحضر شخصاً آخر يقوم بعملها بنصف الأجور التي تتقاضاها".

لم تقل السيدة راموتسوي شيئاً، ولكنها أنهت صداقتها مع تلك المرأة بينها وبين نفسها منذ ذلك الحين. ومنحها هذا سبباً للتفكير. ففكرت قائلة في نفسها: أيمكن للمرء أن يصادق شخصاً يتصرف هذا التصرف السيئ؟ أم أنه يمكن للناس الأشرار أن يحظوا بأصدقاء أشرار فقط لأن الأشرار هم وحدهم من تجمع بينهم صفات مشتركة كافية ليصبحوا أصدقاء؟ فكرت السيدة راموتسوي بأناس ذاع صيتهم لشرهم. فهناك عيدي أمين، رئيس أوغندا السابق، على سبيل المثال، أو هنريك فيرفورد، رئيس وزراء جنوب إفريقيا الأسبق. لقد كان عيدي أمين بالتأكيد يعاني من خطب ما، فربما لم يكن سيئاً بنفس قدر فيرفورد، الذي بدا عاقلاً تماماً ولكن قلبه قدَّ من صخر. ترى هل أحب أحد فيرفورد؟ هل أمسك أحد بيده وعاضده؟ وافترضت السيدة راموتسوي أنهم فعلوا ذلك. فقد مشى الناس في جنازته، أليس كذلك؟ ألم يبكوا عليه كما يفعل جميع الناس في جنائز الرجال الصالحين؟ لقد كان لفيرفورد رجاله، ولكن ربما لم يكن جميع رجاله سيئين. والآن، بعد أن تغيرت الأمور هناك في جنوب إفريقيا، ما زال على أولئك الناس أن يواصلوا العيش. وربما يكونون الآن قد أدركوا الخطأ الذي ارتكبوه. وحتى لو لم يفعلوا ذلك، فقد غفر الناس لمعظمهم. إذ إن الناس العاديين في إفريقيا يميلون لئلا يحتفظوا بمكان للكراهية في قلوبهم. إنهم حُمْق في بعض الأحيان، كما هم جميع الناس في كل مكان، ولكنهم لا يحقدون على أحد، كما أظهر السيد مانديلا للعالم أجمع. وفكرت السيدة راموتسوي بما فعله سير سيريتس خاما رغم أنه لا يبدو على أحد خارج بتسوانا أنه يتذكره بعد الآن. وعلى الرغم من ذلك، فهو من أعظم رجال إفريقيا. وقد صافح والدها، أوبيد راموتسوي، عندما زار موتشودي ليلقي خطاباً على الشعب هناك. فرأته، وهي لا تزال فتاة صغيرة آنذاك، يترجل من سيارته والناس يتجمهرون حوله، ومن بينهم والدها الذي يمسك قبعته المعطوبة القديمة بيده. وعندما أمسك خاما يد والدها، غمر الفخر العارم قلبها. ولطالما تذكرت تلك المناسبة كلما نظرت إلى صورة رجل الدولة العظيم هذا فوق رف الموقد في منزلها.

لم تكن صديقتها التي عاملت خادمتها معاملة سيئة امرأة شريرة بطبيعتها. إذ إنها تعامل عائلتها معاملة حسنة ولطالما أبدت طيبتها تجاه السيدة راموتسوي، ولكن عندما يتعلق الأمر بخادمتها يبدو عليها أنها لا تكترث لمشاعرها. وكانت السيدة راموتسوي قد قابلت تلك الخادمة ووجدتها امرأة نشيطة محببة من مولبولول. فخطر ببال السيدة راموتسوي أن سلوكاً كهذا ليس أكثر من جهل وعدم قدرة على تفهم آمال الآخرين وتطلعاتهم. وفكرت السيدة راموتسوي أن هذا التفهم هو منبع كل القيم الأخلاقية. فإن كان المرء يتفهم شعور شخص ما ويضع نفسه في مكانه، عندئذ فمن المستحيل بكل تأكيد أن يتسبب له بالمزيد من الألم. فالتسبب بالألم في ظل ظروف كتلك هو أشبه بإيذاء المرء لنفسه.

كانت السيدة راموتسوي تعلم أن هناك جدلاً كثيراً يدور حول القيم الأخلاقية، ولكنها من وجهة نظرها بسيطة جداً. ففي المقام الأول، هناك أخلاقيات بتسوانا القديمة، وهي محقة بكل بساطة. وإن التزم المرء بها، فهو على جادة الصواب ولا يتوجب عليه أن يقلق حيال أي شيء. كما أن هناك أخلاقيات أخرى بالطبع، فهناك الوصايا العشر، التي حفظتها عن ظهر قلب في مدرسة الأحد في موتشودي قبل كل تلك السنوات. فهذه الوصايا أيضاً محقة بنفس الطريقة الحتمية. وقوانين الأخلاق هذه هي أشبه بقانون العقوبات في بتسوانا ويجب أن تطاع بحذافيرها. فلا يجدي المرء نفعاً أن يتظاهر أنه محكمة بتسوانا العليا ويقرر أي أجزاء منها سيراعي وأي أجزاء لن يراعي لأن القوانين الأخلاقية لم تصمم لكي ينتقي المرء منها ما يريد ولا أن يرتاب فيها. فلا يمكن للمرء أن يقول إنه سيراعي تحريماً بحد ذاته دون آخر، فيقول: *إنني لن أرتكب السرقة، بالتأكيد لن أرتكبها، أما الزنا، فهو مسألة مختلفة كلياً: أي أنه يعتبر خطيئة بالنسبة إلى الناس الآخرين ولكن ليس بالنسبة إليّ أنا*.

فكرت السيدة راموتسوي أن معظم القيم الأخلاقية تدعو إلى القيام بما هو صواب بعد أن تم التعرف عليه من خلال عملية طويلة الأمد من التقبل والمراعاة. فلا يمكن للمرء بكل بساطة أن يستنبط أخلاقياته الخاصة لأن تجربته الشخصية ليست كافية لفعل ذلك. فما الذي يمنحه الحق أن يقول إنه أفضل من أسلافه؟ إن الأخلاقيات تخص الجميع، وهذا يعني أن وجهات نظر عدد كبير من الأشخاص مطلوبة لاستنباطها. وهذا هو ما يجعل الأخلاقيات الحديثة، بتأكيدها على الأفراد، ضعيفة جداً. فإن منح المرء الناس الفرصة ليبتكروا أخلاقياتهم الخاصة، فهم عندئذ سيستنبطون نسخة تسهل الأمور عليهم وتفسح لهم الطريق للقيام بما يناسبهم لأطول وقت ممكن. وهذا من وجهة نظر السيدة راموتسوي يعتبر أنانية محضة مهما أطلق عليها الإنسان من أسماء براقة وفخمة.

أصغت السيدة راموتسوي إلى نشرة أخبار على جهاز المذياع. فاعترتها دهشة كبيرة. إذ إنها تتحدث عن بعض الفلاسفة الذين سموا أنفسهم الوجوديين والذين، كما تبين للسيدة راموتسوي، عاشوا في فرنسا. وكان هؤلاء الفرنسيون يقولون إنه ينبغي على المرء أن يعيش بطريقة تجعله يشعر أنه حقيقي وأن الحقيقة الملموسة وحدها هي الصواب. فأصغت السيدة راموتسوي بدهشة. وفكرت في نفسها متأملة أنه يجب على المرء أن لا يذهب إلى فرنسا ليقابل الوجوديين. فهناك الكثير من الوجوديين هنا في بتسوانا، كزوجها السابق نوت موكوتي، على سبيل المثال. لقد كانت متزوجة من رجل وجودي دون أن تدرك ذلك. فذلك الرجل الأناني الذي لم يضع نفسه قط في موضع شخص آخر، ولا حتى زوجته، يتفق مع الفلسفة الوجودية كما يتفق الوجوديون مع تصرفاته. فالفلسفة الوجودية تسمح ربما للرجل أن يخرج إلى الحانات كل ليلة مخلفاً زوجته الحامل بانتظاره في البيت أو حتى أن يخرج مع بعض الفتيات الوجوديات الشابات ويقابلهن في الحانات. إنها لحياة ممتعة أن

يكون المرء وجودياً رغم أنها ليست ممتعة على الإطلاق بالنسبة إلى كل الناس غير الوجوديين من حوله!

لم تكن السيدة راموتسوي تعامل خادمتها روز بطريقة وجودية. وكانت روز قد عملت لديها من اليوم الذي انتقلت فيه إلى زيبرا درايف. فقد اكتشفت السيدة راموتسوي وجود شبكة من الناس العاطلين عن العمل. إذ إن هذه الشبكة أرسلت خبراً لأي شخص ينتقل إلى بيت جديد ومن المتوقع أن يكون بحاجة لخادمة. فوصلت روز إلى المنزل بعد وصول السيدة راموتسوي نفسها بساعة واحدة.

وقالت لها: "ستحتاجين إلى خادمة، يا سيدتي. وأنا خادمة بارعة جداً. وسأعمل بجد ولن أسبب لك أي مشكلة طوال حياتك. وأنا مستعدة للبدء بالعمل منذ الآن".

كونت السيدة راموتسوي رأياً حيالها على الفور. فقد رأت فيها امرأة محترمة أنيقة المظهر تبلغ حوالى الثلاثين، ولكنها رأت فيها أيضاً أماً تنتظرها طفلتها بجانب البوابة وهي تحدق بها. وتساءلت عما قالته الأم لطفلتها قبل أن تأتي: *سوف نتناول طعاماً الليلة إن قبلت بي تلك المرأة كخادمة لها. لنأمل أن توافق. انتظري هناك وقفي على إصبع قدمك.* "قف على إصبع قدمك" هو تعبير اصطلاحي يقوله الناس في بتسوانا إن كانوا يأملون حدوث شيء ما. وهو شبيه بتعبير يستخدمه البيض وهو: "أبقِ أصابعك متصالبة".

ألقت السيدة راموتسوي نظرة خاطفة إلى البوابة، ورأت الطفلة واقفة فعلاً على إصبع قدمها. فأيقنت عندئذ أن هناك جواباً واحداً تستطيع أن تجيبها إياه.

فنظرت إلى المرأة وقالت: "نعم. إنني بحاجة لخادمة، وسوف أمنحك الوظيفة، يا سيدتي".

ضمت المرأة يديها لبعضهما البعض امتناناً ولوحت للطفلة. ففكرت السيدة راموتسوي أنها سعيدة الحظ أيضاً لأنها استطاعت أن تدخل السرور على قلب شخص ما بمجرد قول كلمة واحدة.

انتقلت روز إلى البيت مباشرة، وسرعان ما أثبتت كفاءتها. وكان المنزل قد خلف في حالة يرثى لها. فالغبار مكوم في كل ركن من أركانه. إذ إن سكانه السابقين كانوا أناساً فوضويين كثيراً. وفي غضون ثلاثة أيام كنست روز الأرض ولمعتها إلى أن أصبح المنزل يعبق برائحة شمع الأرضيات وباتت كل الأسطح براقة. وفوق كل ذلك، كانت روز بارعة بالطهو والكي إلى حد مدهش. وقد كانت السيدة راموتسوي امرأة أنيقة الملبس، ولكنها لطالما اعتبرت من الصعب أن تجد الطاقة لأن تكوي بلوزاتها بقدر ما ترغب أن تفعل. ففعلت روز ذلك ببراعة انعكست على الفور في الملابس المنشاة التي لم تعد تعرف معنى التجاعيد والغضون.

أقامت روز في قسم الخدم في الباحة الخلفية. ويتألف هذا القسم من مجمع صغير من غرفتين وحمام ومرحاض إلى أحد الجوانب وشرفة مغطاة يمكن أن تشعل ناراً للطهو تحتها. فأقامت روز في

إحدى الغرف بينما أقام طفلاها الصغيران في الغرفة الأخرى. وكان لها أطفال آخرون كبار بمن فيهم فتى يعمل نجاراً ويجني دخلاً جيداً. ورغم ذلك، فتكاليف العيش لم تترك لها الكثير ولا سيما أن أحد طفليها الصغيرين مصاب بالربو وبحاجة دائمة لأجهزة استنشاق باهظة لتساعده على التنفس.

عندما وصلت السيدة راموتسوي إلى البيت، بعد أن أوصلت السيدة ماكوتسي إلى بيتها، وجدت روز في المطبخ تجلي قدر طهو مسوداً. فسألتها بأدب عن يومها. وقالت لها روز إنها أمضت يوماً طيباً.

قالت: "لقد ساعدت موثوليلي على الاستحمام. وهي الآن تقرأ لأخيها الأصغر بعد أن قضى سحابة يومه وهو يركض ويلعب. فنال منه التعب. وسينام عما قريب. وأعتقد أن فكرة تناول العشاء هي ما يبقيه ساهراً".

قالت لها السيدة راموتسوي مبتسمة: "شكراً لك".

لقد مر شهر منذ أحضر السيد جي إل بي ميتكوني الطفلين من مزرعة الأيتام. فبدأت الآن تعتاد على وجودهما في البيت. وقد كان تبنيهما في الأصل فكرته هو. ولم يستشرها قبل أن يوافق على أن يصبح والدهما بالتبني، ولكنها تقبلت الوضع، وسرعان ما اعتادت عليهما. وبرهنت موثوليلي، رغم كونها مقعدة، على أنها بارعة بأعمال المنزل وأبدت اهتماماً بتصليح السيارات أيضاً، مما أدخل سروراً كبيراً على قلب السيد جي إل بي ميتكوني. أما أخوها، وهو أصغر منها بكثير، فقد بدا من الصعب سبر أغوار شخصيته. وقد كان يتمتع بقدر وافر من النشاط والحيوية ويتحدث بأدب عندما يخاطبه أحد، ولكنه بدا حريصاً أكثر على الاختلاء بنفسه أو بأخته بدلاً من مخالطة الأطفال الآخرين. وبدأت موثوليلي منذ الآن تتعرف على بعض الأصدقاء، ولكن الخجل منع الصبي من فعل ذلك.

بدأت موثوليلي الدراسة في مدرسة غابورون الإعدادية التي تقع في مكان غير بعيد عن المنزل. فسرت كثيراً لالتحاقها بها. وكل صباح، كانت إحدى زميلاتها في الصف تأتي إلى باب المنزل وتتطوع لأن تدفع بها الكرسي المتحرك إلى المدرسة.

فتأثرت السيدة راموتسوي كثيراً لتصرف الفتيات.

وسألت إحداهن: "هل طلبت منكن المعلمات أن تفعلن هذا؟".

فأجابت الفتاة: "إنهن لا يطلبن ذلك، يا سيدتي. ولكننا صديقات هذه الفتاة ونحب أن نساعدها".

قالت السيدة راموتسوي: "أنتن فتيات طيبات، ولهذا ستصبحن سيدات رائعات أيضاً في المستقبل. أحسنتن صنعاً".

عثرت السيدة راموتسوي على مكان للصبي في مدرسة ابتدائية محلية، ولكنها ودت أن يدفع السيد جي إل بي ميتكوني لقاء إرساله لمدرسة ثورنهيل رغم أنها تكلف مبلغاً كبيراً من المال.

فتساءلت الآن عن إمكانية تحقيق ذلك على الإطلاق. إذ إنه واحد من الأمور الكثيرة التي يجب اتخاذ قرار بشأنها: كالكراج، والمتدربين، والبيت الذي يقع قرب نادي قوة دفاع بتسوانا القديم، والطفلين. وهناك أيضاً الزفاف رغم أن السيدة راموتسوي بالكاد تجرأت أن تفكر في أمره في الوقت الحاضر.

ذهبت إلى غرفة المعيشة ووجدت الصبي جالساً بجانب كرسي أخته المتحرك وهو يصغي لما تلقيه على مسامعه.

قالت السيدة راموتسوي: "إذاً، أنت تقرأين قصة لأخيك الصغير. أهي قصة جيدة؟".

التفتت موثوليلي لتنظر إليها وابتسمت.

وقالت: "إنها ليست قصة، يا سيدتي، أو إنها بالأحرى ليست قصة من كتاب، بل قصة كتبتها في المدرسة وألقيها الآن على مسامعه".

انضمت السيدة راموتسوي إليهما وجلست على ذراع الأريكة.

وقالت: "لم لا تبدأين من أول القصة. فإنني أود أن أسمعها".

اسمي موثوليلي. وأنا في الثالثة عشرة من عمري وأكاد أبلغ الرابعة عشرة. لدي أخ في السابعة من عمره. وأمي وأبي متوفيان. وأنا حزينة جداً بشأن هذا، ولكنني سعيدة أيضاً أنني ما زلت على قيد الحياة وأحظى بأخي الأصغر.

إنني فتاة عاشت ثلاث مرات. فقد عشت حياتي الأولى مع أمي وعماتي وأعمامي في غور ماغاديغادي قرب ناتا. وقد حدث هذا وأنا صغيرة جداً قبل وقت طويل. وكان أهلي يسكنون القفر ويرتحلون من مكان إلى آخر. وكانوا يبرعون في العثور على الطعام في القفر بنبش الجذور، فهم أناس أذكياء جداً، ولكن أحداً لا يحبهم.

أعطتني أمي سواراً مصنوعاً من جلد النعام عُلقت فيه كسر من قشر بيض النعام. ولا يزال السوار بحوزتي. فهذا هو الشيء الوحيد الذي ما زلت أحتفظ به تذكاراً من أمي، الآن بعد أن توفيت.

عندما توفيت أمي، أنقذت أخي الصغير الذي دفن معها. وكان مدفوناً تحت الرمال مباشرة، لذا أزلت الرمل عن وجهه ورأيت أنه ما زال يتنفس. وأتذكر أنني انتزعته وركضت عبر القفر إلى أن عثرت على طريق تمر فيه السيارات. فأتى رجل يقود شاحنة من آخر الطريق. وعندما رآني توقف واصطحبني إلى فرانسيستاون. ولا أتذكر ما حدث هناك، ولكنهم أعطوني لامرأة. فأقمت في باحة منزلها. وكان لديها كوخ خشبي صغير يصبح حاراً جداً عندما تسطع عليه الشمس، ولكنه يصبح بارداً ليلاً. فأصبحت أنام فيه مع أخي الطفل.

كنت أطعم أخي الطعام الذي يعطونني إياه في المنزل. واعتدت أن أنجز بعض الأعمال من أجل أولئك الناس الطيبين لأنه لم يكن لديهم خادمة. فكنت أغسل غسيلهم وأنشره على الحبل وأنظف بعض القدور. وكان هناك كلب يعيش في الباحة أيضاً. وذات يوم، عضني عضة شديدة في قدمي. فثارت ثائرة زوج المرأة على الكلب وضربه بعصا خشبية. فمات الكلب الآن بعد كل ذلك الضرب لأنه شرير.

أصبت بمرض شديد. فأخذتني المرأة إلى المستشفى. وهناك أعطوني بعض الإبر وأخذوا مني بعض الدم، ولكن حالتي لم تتحسن. وبعد فترة من الوقت، لم أعد أقوى على المشي. فأعطوني عكازين، ولكنني لم أستطع أن أمشي بهما بشكل جيد. فوجدوا لي كرسياً متحركاً، مما يعني أنه أصبح بوسعي أن أعود إلى البيت ثانية. ولكن المرأة قالت إنها لا تستطيع أن تدع فتاة مقعدة تعيش في باحة منزلها لأن هذا لن يبدو جيداً وسيقول الناس: *ما الذي تفعلينه بالاحتفاظ بفتاة مقعدة في باحة منزلك؟ إن هذا عمل قاسٍ جداً*.

ثم أتى رجل وقال إنه يبحث عن أيتام ليأخذهم إلى مزرعة الأيتام الخاصة به. وأتت برفقته سيدة من الحكومة. فقالت لي إنني محظوظة جداً لأن أحظى بمكان في مزرعة أيتام راقية كتلك وإنه يمكنني أن آخذ أخي معي وسيكون سعيداً جداً بالعيش هناك، ولكن يجب علي دائماً أن أتذكر أن أحب الله. فأجبتها أنني مستعدة لأن أحبه وأن أعلم أخي الصغير أن يحبه أيضاً.

وهكذا انتهت حياتي الأولى. فبدأت حياتي الثانية في اليوم الذي وصلت فيه إلى مزرعة الأيتام. ركبنا الشاحنة من فرانسيستاون. فشعرت بالحر وعدم الراحة في مؤخرتها. ولم أستطع أن أخرج لأن السائق لم يعرف كيف يتصرف مع فتاة مقعدة. وهكذا، عندما وصلت إلى مزرعة الأيتام، كان فستاني مبللاً. فشعرت بالخزي الشديد وخاصة أن كل الأيتام الآخرين راحوا يراقبوننا ونحن ندخل مزرعتهم. ثم أمرت إحدى السيدات هناك الأطفال أن ينصرفوا للعب وألا يحدقوا بنا، ولكنهم ابتعدوا مسافة قصيرة فقط وراقبوني من خلف الأشجار.

كان الأيتام يعيشون في منازل، كل منزل منها يؤوي عشرة أيتام وأماً تعتني بهم. وكانت أمي بالرعاية سيدة لطيفة جداً. فأعطتني ثياباً جديدة وخزانة لأحتفظ فيها بأشيائي. ولم أمتلك خزانة من قبل قط. فشعرت بفخر عارم بها. ومنحت أيضاً بعض المشابك الخاصة لأزين بها شعري. ولم أحظَ قط بأشياء جميلة كهذه. فاحتفظت بها تحت وسادتي حيث تبقى آمنة. وفي بعض الأحيان، كنت أستيقظ في الليل وأفكر بمدى حسن طالعي، ولكنني كنت أبكي أيضاً عندما أتذكر حياتي الأولى وأفكر بأعمامي وعماتي وهم يتجولون في مكان ما. استطعت وأنا في سريري أن أرى النجوم من خلال فتحة في الستارة. ففكرت في نفسي: إن كانوا ينظرون إلى السماء الآن فسيرون نفس النجوم

التي أنظر إليها في نفس الوقت، ولكنني تساءلت إن كانوا لا يزالون يتذكرونني لأنني لست أكثر من مجرد فتاة هربت منهم.

شعرت بسعادة غامرة وأنا أعيش في مزرعة الأيتام. فعملت بجد، وقالت لي السيدة بوتوكوين، وهي مشرفة على مزرعة الأيتام، إنني يوماً ما إن حالفني الحظ سأحظى بشخص ما يصبح والدي الجديد. ولكنني لم أظن أن هذا ممكن لأن أحداً لن يرغب بأخذ فتاة مقعدة بوجود وفرة من الفتيات الممتازات اللواتي يستطعن أن يمشين جيداً، وهن أيضاً يبحثن عن عائلات تتبناهن.

ولكنها كانت محقة. ولم يدر بخلدي أن السيد جي إل بي ميتكوني هو من سيأخذنا، ولكنني سررت كثيراً عندما قال إننا سنعيش في منزله. وهكذا بدأت حياتي الثالثة.

أعدوا لنا كعكة خاصة عندما غادرنا مزرعة الأيتام. فتناولناها مع الأم بالرعاية. وقالت إنها تشعر بالحزن لأن أحد الأيتام سيغادر منزلها، فهذا أشبه بمغادرة أحد أفراد العائلة. ولكنها كانت تعرف السيد جي إل بي ميتكوني حق المعرفة. فقالت لي إنه أحد أفضل الرجال في بتسوانا وإنني سأعيش بسعادة في منزله.

وهكذا، ذهبنا إلى منزله. وسرعان ما قابلنا صديقته السيدة راموتسوي التي ستصبح زوجته عما قريب. وقالت إنها ستصبح أمنا الجديدة وأحضرتنا إلى منزلها لأنه ملائم للأطفال أكثر من منزل السيد جي إل بي ميتكوني. فحظيت بغرفة نوم جميلة جداً هنا وحصلت على ثياب كثيرة. إنني سعيدة جداً أن هناك أناساً طيبين كهؤلاء في بتسوانا. لقد عشت حياة محظوظة جداً. وأشكر السيدة راموتسوي والسيد جي إل بي ميتكوني من أعماق قلبي.

إنني أود أن أصبح ميكانيكية يوماً ما عندما أكبر. وسوف أساعد السيد جي إل بي ميتكوني في الكراج ثم أصلح ثياب السيدة راموتسوي وأطبخ طعامها ليلاً. وعندما يصبحان مسنين، سيشعران بالفخر مني ويقولان إنني ابنة صالحة لهما ومواطنة صالحة من مواطنات بتسوانا.

هذه قصة حياتي. إنني فتاة عادية من بتسوانا، ولكنني محظوظة جداً لأنني عشت ثلاث مرات. فمعظم الناس يعيشون مرة واحدة.

هذه القصة حقيقية. ولم أختلق أي جزء فيها، بل كلها حقيقية.

بعد أن فرغت الفتاة من القراءة، خيم الصمت عليهم جميعاً. فرفع الصبي نظره إلى أخته وابتسم. وفكر في نفسه: *إنني صبي محظوظ لأن أحظى بأخت ذكية كهذه. آمل أن يشفي الله ساقيها ثانية يوماً ما*. ونظرت السيدة راموتسوي إلى الفتاة ووضعت يداً حانية على كتفها، وفكرت: *سأعتني بهذه الطفلة. فأنا أمها الجديدة الآن*. أما روز، التي كانت واقفة تراقب من الممر، فقد أطرقت نحو الأرض وفكرت في نفسها: *يا لها من طريقة غريبة في التعبير: لقد عاشت ثلاث مرات!*

الفصل الثامن

هبوط في معدلات هرمون السعادة

كان أول شيء فعلته السيدة راموتسوي في صباح اليوم التالي هو أنها اتصلت بالسيد جي إل بي ميتكوني في منزله الكائن قرب "نادي قوة دفاع بتسوانا" القديم، إذ إنهما غالباً ما كانا يتصلان ببعضهما البعض في وقت مبكر من الصباح، أو على الأقل بعد أن عقدت خطوبتهما، ولكن السيد جي إل بي ميتكوني هو من كان يتصل عادة. فينتظر إلى أن تحتسي السيدة راموتسوي فنجان شاي الأعشاب الذي تحب أن تشربه في الحديقة قبل أن يطلب رقمها ويعلن عن نفسه بشكل رسمي كما يحب أن يفعل: أنا السيد جي إل بي ميتكوني، يا سيدتي. هل نمت جيداً؟

رن الهاتف لأكثر من دقيقة قبل أن يرفع السماعة.

"سيد جي إل بي ميتكوني؟ هذه أنا. كيف حالك؟ هل نمت جيداً؟".

بدا صوته على الجهة الأخرى من الخط موحياً بالارتباك. فأدركت السيدة راموتسوي أنها أيقظته من نومه.

"أوه! نعم. إنني مستيقظ الآن".

كانت السيدة راموتسوي تحرص على إلقاء التحية الرسمية. فمن المهم أن يسأل المرء الشخص الآخر إن كان قد نام جيداً. وهو تقليد قديم ولكن يجب أن يحافظ عليه.

"ولكن هل نمت جيداً، يا سيدي؟".

أجابها السيد جي إل بي ميتكوني بصوت فاتر قائلاً: "لا أعتقد ذلك. فقد أمضيت الليل بطوله مفكراً. وجافاني النوم. وغفوت فقط عندما بدأ الناس الآخرون يستيقظون، ولهذا فأنا متعب جداً الآن".

"هذا مؤسف جداً، يا سيدي. وأنا أعتذر أنني أيقظتك. يجب أن تعود للفراش الآن وتحظى ببعض النوم. فلا يمكنك أن تعيش بدون نوم".

قال السيد جي إل بي ميتكوني بغضب: "أعرف هذا. وأنا أحاول دائماً أن أنام في هذه الأيام، ولكنني لا أنجح في ذلك. وأشعر أن هناك حيواناً غريباً في غرفتي لا يريدني أن أنام ويواصل إزعاجي".

سألت السيدة راموتسوي: "حيوان؟ ما هو هذا الحيوان؟".

"ليس هناك حيوان! أو على الأقل ليس عندما أشعل الضوء. والأمر فقط هو أنني أظن أن هناك أحداً لا يريدني أن أنام. هذا هو ما قلته. وليس هناك حيوان فعلاً".

التزمت السيدة راموتسوي الصمت. ثم سألت: "هل تشعر بحال جيدة، يا سيدي؟ ربما تكون مريضاً".

قال السيد جي إل بي ميتكوني بسخط: "لست مريضاً. إن قلبي ينبض في صدري. ورئتاي ممتلئتان بالهواء، ولكنني متخم وحسب من كل المشكلات التي تؤرق حياتي وقلق من أن يكتشفوا أمري. فعندئذ سينهار كل شيء".

عبست السيدة راموتسوي، وقالت: "يكتشفون أمرك؟ ما الذي سيكتشفونه؟".

خفض السيد جي إل بي ميتكوني صوته، وقال: "إنك تعرفين ما الذي أتحدث عنه. تعرفينه جيداً".

"إنني لا أعرف شيئاً، يا سيدي. وكل ما أعرفه هو أنك تتفوه ببعض الأمور الغريبة جداً".

"إنك تقولين ذلك، يا سيدتي، ولكنك تعرفين حق المعرفة ما الذي أتحدث عنه. لقد ارتكبت أعمالاً شريرة جداً في حياتي. والآن سيكتشفون أمري ويعتقلونني. وهكذا سأنال عقابي وستشعرين بالخزي مني، يا سيدتي. أؤكد لك هذا".

أصبحت السيدة راموتسوي عاجزة عن الكلام وهي تبذل جهدها لتستوعب ما سمعته. أمن الممكن أن السيد جي إل بي ميتكوني قد ارتكب جريمة شريرة ما وأخفاها عنها؟ وأن جريمته قد كشفت الآن؟ لقد بدا لها من المستحيل أن يكون هذا صحيحاً، فهو رجل صالح لا يطاوعه ضميره على ارتكاب أي فعل ينافي المبادئ والشرف، ولكن أناساً كهؤلاء يخفون أحياناً أسراراً دفينة في ماضيهم. فكل شخص ارتكب على الأقل عملاً واحداً يخجل به، أو أن هذا هو ما سمعته. وكان الأسقف ماخولو نفسه قد ألقى محاضرة عن هذا الموضوع في نادي السيدات. وقال إنه لم يقابل قط أي شخص حتى في دار العبادة لم يرتكب خطأ ويندم عليه فيما بعد. والقديسون أنفسهم ارتكبوا أعمالاً سيئة. فربما يكون القديس فرانسيس قد داس على حمامة. كلا، بالتأكيد لم يفعل ذلك، ولكنه ربما فعل شيئاً آخر تسبب له بالندم. أما من ناحيتها هي، فهناك أشياء كثيرة تفضل أنها لم تفعلها، بدءاً باليوم الذي وضعت فيه دبس السكر على الفستان المفضل لفتاة أخرى وهي في السادسة من عمرها لأنه لم يكن لديها فستان مثله. وكانت لا تزال ترى تلك المرأة من وقت لآخر، فهي مقيمة في غابورون ومتزوجة من رجل يعمل في مبنى تصنيف الماس. تساءلت السيدة راموتسوي إن كان ينبغي عليها أن تعترف بفعلتها بعد مضي أكثر من ثلاثين عاماً الآن وتخبر تلك المرأة بما فعلته، ولكنها لم تقوَ على استجماع شجاعتها لذلك. ولكن كلما ألقت تلك المرأة التحية على السيدة راموتسوي بطريقة ودودة، تذكرت السيدة راموتسوي كيف أخذت علبة دبس السكر وصبتها على القماش الزهري عندما تركت الفتاة الفستان في غرفة الصف في أحد الأيام. سوف يتوجب عليها أن تخبرها في أحد الأيام أو ربما أن تطلب من الأسقف ماخولو أن يوجه لها رسالة نيابة عنها ويقول:

إن واحدة من أفراد رعيتي تطلب منك السماح، يا سيدتي. فهي تشعر بعبء ثقيل بسبب غلطة ارتكبتها في حقك قبل سنوات عديدة. هل تتذكرين فستانك الزهري المفضل...

إن كان السيد جي إل بي ميتكوني قد ارتكب غلطة مماثلة، كأن يكون قد صب زيت المحركات فوق شخص ما، فعندئذ لا ينبغي عليه أن يقلق حيال ذلك. فهناك بضع أخطاء، باستثناء القتل بالطبع، لا يمكن إصلاحها، ومعظمها في الواقع أتفه مما يظنه المرتكب. فمن الأفضل له أن يتركها بأمان حيث هي في الماضي. وحتى الأخطاء الأكثر خطورة يمكن أن تغفر إن اعترف الإنسان بها. وهكذا، توجب عليها أن تهدئ من روع السيد جي إل بي ميتكوني. فمن السهل أن يضخم المرء مسألة ضئيلة إن أمضى الليل بطوله وهو يفكر فيها.

وقالت: "لقد ارتكبنا جميعاً أخطاء في حياتنا، يا سيدي، أنت وأنا والسيدة ماكوتسي وحتى البابا نفسه. ولا يستطيع أحد منا أن يقول إنه كامل. فهذه هي طبيعة البشر. ويجب أن لا تقلق لهذا الشأن. أخبرني وحسب ما هو الخطأ. وأنا واثقة من أنني أستطيع أن أريح بالك".

"كلا، لا أستطيع ذلك، يا سيدتي. لا أستطيع حتى أن ألمح مجرد تلميح. فسوف تصابين بصدمة كبيرة ولن تودي أن تري وجهي ثانية. فأنا لا أستحقك لأنك طيبة فوق الحد بالنسبة إلي، يا سيدتي".

شعرت السيدة راموتسوي بمراجل غضبها تغلي. فقالت: "إنك تتفوه بكلام غير منطقي. بالطبع أنت جدير بي. فأنا مجرد امرأة عادية. وأنت رجل صالح وطيب. وأنت بارع بعملك والناس ينظرون إليك بعين التقدير والاحترام. إلى أين ذهب المفوض السامي البريطاني عندما أخذ سيارته للصيانة؟ إليك أنت. إلى من تلجأ مديرة مزرعة الأيتام عندما تحتاج إلى أحد يصلح لها شيئاً ما؟ إليك أنت. إنك تحظى بكراج جيد ويشرفني أن أتزوجك. وهذا هو كل ما في الأمر".

قوبلت ملاحظاتها بالصمت، ثم قال: "ولكن هل تعرفين كم أنا شرير؟ إنني لم أخبرك عن هذه الأمور الشريرة".

"أخبرني الآن إذاً. فأنا قوية".

"كلا، لا أستطيع أن أفعل ذلك، يا سيدتي. فسوف تصابين بالصدمة".

أدركت السيدة راموتسوي أن المناقشة لن تصل إلى أي نتيجة، لذا غيرت وجهة الحديث. وقالت: "بالنسبة إلى الكراج. إنك لم تذهب إليه البارحة أو أول البارحة. والسيدة ماكوتسي تديره الآن نيابة عنك. ولكن هذا لن يستمر إلى الأبد".

قال السيد جي إل بي ميتكوني ببرود: "يسرني أنها تديره. فأنا لا أشعر أنني قوي جداً في هذه اللحظة. وأعتقد أنني يجب أن ألزم منزلي. وسوف تعتني هي بكل شيء. من فضلك، اشكريها نيابة عني".

أخذت السيدة راموتسوي نفساً عميقاً، وقالت: "إنك لست على ما يرام، يا سيد جي إل بي ميتكوني. وأظن أنني أستطيع أن أرتب لك موعداً مع الطبيب. لقد تحدثت إلى الدكتور موفات. فقال إنه سيعاينك. وهو يظن أنها فكرة جيدة".

قال السيد جي إل بي ميتكوني: "لست منهاراً. ولا أحتاج إلى رؤية الدكتور موفات. ماذا يسعه أن يفعل من أجلي؟ لا شيء".

لم تبعث تلك المكالمة على الطمأنينة. فأمضت السيدة راموتسوي بضع دقائق وهي تذرع مطبخها بقلق بعد أن أغلقت السماعة. وكان من الواضح أن الدكتور موفات على حق بقوله إن السيد جي إل بي ميتكوني يعاني من مرض الكآبة، ولكن القلق استبد بها الآن من الشيء المريع الذي قال إنه ارتكبه. إن السيد جي إل بي ميتكوني أكثر رجل يستبعد أن يكون مجرماً، ولكن ماذا إن اتضح أن ما قاله صحيح؟ هل ستتغير مشاعرها تجاهه إن اكتشفت أنه قتل شخصاً ما أم أنها ستقول لنفسها إن الغلطة ليست غلطته وإنه دافع عن نفسه عندما ضرب ضحيته على رأسه بمفتاح الربط؟ هذا هو ما تفعله زوجات المجرمين أو صديقاتهم في كل الأحوال. فهن لا يتقبلن حقيقة أن رجالهن قادرون على القتل. والأمهات كذلك أيضاً. فأمهات القتلة يصررن دائماً أن أبنائهن ليسوا أشراراً بقدر ما يقول الناس عنهم. والرجل بالطبع يبقى صبياً صغيراً في نظر أمه مهما تقدم به السن. ولا يمكن للصبية الصغار أن يدانوا بجرائم القتل أبداً.

من المرجح لنوت موكوتي بالطبع أن يرتكب جريمة قتل. إذ إنه كان يملك القدرة التامة على قتل رجل بدم بارد لأنه لم يكن لديه أي مشاعر طيبة. كان من السهل على المرء أن يتخيل نوت يطعن ضحيته ويمشي بلا مبالاة وكأنه لم يفعل أكثر من مصافحته. وعندما ضربها، كما فعل في مناسبات عديدة قبل أن يرحل، لم يظهر لها أي رحمة. وفي إحدى المرات، عندما مزق الجلد فوق حاجبها بضربة عنيفة وحشية، توقف ليتأمل صنع يديه وكأنه طبيب يعاين جرحاً.

وقال لها بصوت هادئ تماماً: "يجب عليك أن تذهبي إلى المستشفى. فهذا جرح عميق. ويجب أن تتوخي الحذر أكثر من ذلك".

كان الأمر الوحيد الذي شعرت بالامتنان من أجله في حكاية نوت برمتها هو أن والدها كان لا يزال على قيد الحياة عندما تركته. فعلى الأقل، سرَّه أن يعرف أن ابنته لم تعد تعيش مع ذلك الرجل رغم أنه عانى لعامين أثناء وجودها معه. وعندما ذهبت إليه وقالت له إن نوت قد رحل، لم يذكر شيئاً عن حماقتها في الزواج منه رغم أن ذلك خطر بباله، بل قال ببساطة إنه يجب عليها أن تعود إلى منزله ليعتني بها دائماً وإنه يأمل أن حياتها ستصبح الآن أفضل من سابق عهدها. لقد أظهر كرامة كبيرة، كما لطالما فعل. فبكت وذهبت إليه. وقال لها إنها أصبحت بأمان الآن ولم يعد يتوجب عليها أن تخشى ذلك الرجل ثانية.

ولكن نوت موكوتي والسيد جي إل بي ميتكوني مختلفان اختلاف الليل والنهار. فنوت هو الرجل القادر على ارتكاب الجرائم، وليس السيد جي إل بي ميتكوني. ومع ذلك، فلماذا أصر على أنه ارتكب عملاً رهيباً إن لم يكن قد فعل ذلك؟ وجدت السيدة راموتسوي هذا أمراً محيراً. فقررت، كما تفعل دائماً عندما يحيرها أمر ما، أن تلجأ إلى أول مصدر من مصادر المعلومات والعزاء في كل مسائل الشك أو الجدل، ألا وهو: "مكتبة بتسوانا المركزية".

تناولت فطورها بسرعة تاركة الطفلين في رعاية روز. وكانت لتود أن تمنحهما بعض الاهتمام، ولكن حياتها أصبحت الآن شديدة التعقيد. واحتل التعامل مع السيد جي إل بي ميتكوني رأس قائمة مهماتها يليه الكراج والتحقيق في مصاعب حياة شقيق مسؤول الحكومة والانتقال إلى المكتب الجديد. وكانت كل مهمة في تلك اللائحة ملحة. ومع ذلك فهناك عدد ساعات محدود في يومها.

قادت سيارتها لتقطع تلك المسافة القصيرة وعثرت على مكان جيد لتركن سيارة الفان البيضاء الصغيرة خلف مصرف ستاندرد. ثم حيت بعض الوجوه المألوفة في الساحة، وتوجهت إلى أبواب "مكتبة بتسوانا المركزية"، مقصدها المفضل في البلدة. وقد اعتادت أن تمنح نفسها وقتاً طويلاً لشراء شيء بسيط مما يوفر لها متسعاً من الوقت لتصفح الكتب والمجلات على الرفوف، ولكنها صباح هذا اليوم، بوجود مهمة واضحة تؤرقها، نأت بنفسها بصرامة عن إغراءات رفوف المجلات بكل ما تحويه من صور لزينة المنازل والفساتين المتألقة.

قالت لإحدى الموظفات: "إنني أود أن أتحدث إلى المدير".

قالت الموظفة الشابة: "يمكنك أن تتحدثي إلي".

فأصرت السيدة راموتسوي على طلبها. وقد كانت الموظفة مؤدبة، ولكنها صغيرة السن. ولهذا، فمن الأفضل لها أن تتحدث إلى رجل يعرف الكثير عن الكتب. فقالت السيدة راموتسوي: "كلا، إنني أرغب أن أتحدث إلى المدير، يا سيدتي. فهذه مسألة هامة".

تم استدعاء المدير. فحيا السيدة راموتسوي بأدب.

وقال: "من الجيد أن أراك. هل أنت هناك بصفتك كتحرية، يا سيدتي؟".

ضحكت السيدة راموتسوي قائلة: "كلا، يا سيدي، ولكنني أود أن أعثر على كتاب يساعدني في حل مشكلة دقيقة. هل لي أن أتحدث إليك على انفراد؟".

قال: "بالطبع، لك ذلك. إنك لن تجدي أبداً بائع كتب يتحدث عن الكتب التي يقرأها زبائنه إن أرادوا أن يبقوا الأمر سراً. فنحن محكومون بالكتمان".

قالت السيدة راموتسوي: "هذا حسن. إنني أبحث عن كتاب يتحدث عن مرض اسمه الكآبة. هل سمعت عن هذا الكتاب؟".

أومأ المدير برأسه، وقال: "لا تقلقي، يا سيدتي. فأنا لم أسمع عن كتاب كهذا فقط، ولكن لدي نسخة منه أيضاً. ويمكنني أن أبيعك إياه". وتوقف ثم قال: "يؤسفني هذا، يا سيدتي. فالكآبة مرض مزعج جداً".

نظرت السيدة راموتسوي من فوق كتفها، وقالت: "لست أنا المريضة بل السيد جي إل بي ميتكوني. وأظن أنه مصاب بالكآبة".

أظهر تعبير وجه المدير إحساسه بالتعاطف وهو يرشدها إلى رف في الزاوية ويخرج كتاباً رقيقاً ذا غلاف أحمر.

قال وهو يسلمها الكتاب: "هذا كتاب جيد جداً حول الكآبة. وإن قرأت ما كتب على الغلاف الخلفي فسترين أن الكثير من الناس قالوا إن هذا الكتاب قد ساعدهم كثيراً بمعالجة هذا المرض. إنني آسف جداً بشأن السيد جي إل بي ميتكوني، بالمناسبة. وآمل أن يجعله هذا الكتاب يشعر بحال أفضل".

قالت: "إنك مصدر عون كبير، يا سيدي. شكراً لك. ونحن محظوظون جداً لأن نحظى بمكتبة جيدة مثل مكتبتك. شكراً لك".

دفعت ثمن الكتاب وعادت إلى سيارة الفان البيضاء الصغيرة وهي تتصفح الكتاب أثناء سيرها. ثم لفتت نظرها جملة معينة فتوقفت عن السير فجأة:

إن السمة المميزة للكآبة الحادة هي شعور المرء أنه قد ارتكب عملاً مريعاً جداً وربما جلب لنفسه ديناً لا يستطيع الإيفاء به أو ارتكب جريمة ما. وهذا يأتي مصاحباً عادة بشعور من هبوط التقدير الذاتي. ومن الجدير بالذكر أن الخطأ المتخيل عادة لا يكون مرتكباً قط، ولكن لا يستطيع أي نوع من الحجة والمنطق أن يقنع المريض بذلك.

أعادت السيدة راموتسوي قراءة المقطع فارتفعت روحها المعنوية إلى حد كبير. ومن غير المتوقع لكتاب عن الكآبة أن يحدث هذا التأثير في نفس القارئ، ولكنه فعل ذلك حقاً. وبالطبع، لم يكن السيد جي إل بي ميتكوني قد ارتكب أي شيء مريع. فهو، كما لطالما عرفته، رجل يتمتع بشرف لا تشوبه شائبة. والآن، كل ما يجب عليها فعله هو أن تقنعه بزيارة الطبيب والخضوع للعلاج. أغلقت الكتاب وألقت نظرة خاطفة إلى المختصر المدون على الغلاف الخلفي، ويقول: *هذا المرض القابل للعلاج...* فأبهجها هذا حتى أكثر. وأدركت ما عليها أن تفعله. فلم تعد قائمتها، مهما بدت لها في الصباح طويلة ومعقدة، في نظرها الآن ضخمة ومثبطة للهمة.

توجهت من "مكتبة بتسوانا المركزية" إلى كراج تلوكونيغ رود سبيدي موتورز مباشرة. ومما أدخل الراحة إلى نفسها، فقد وجدت الكراج مفتوحاً والسيدة ماكوتسي واقفة خارج المكتب تشرب

فنجاناً من الشاي. وكان المتدربان جالسين على براميل الزيت، أحدهما يدخن سيجارة والآخر يحتسي مشروباً خفيفاً من علبة معدنية.

قالت السيدة راموتسوي وهي تلقي نظرة خاطفة إلى المتدربين: "ما زال الوقت مبكراً بعض الشيء لأخذ استراحة".

قالت السيدة ماكوتسي: "أوه، كلا، يا سيدتي، إننا جميعاً نستحق استراحة. فنحن هنا منذ ساعتين ونصف. وقد أتينا في الساعة السادسة وعكفنا على العمل بجد كبير".

قال أحد المتدربين: "نعم، بجد كبير. وقد أنجزنا عملاً بارعاً جداً، يا سيدتي. أخبريها، يا سيدتي. أخبريها بما فعلناه".

تدخل المتدرب الآخر وقال: "إن نائبة المدير هذه ميكانيكية من الطراز الأول. إنها حتى أفضل من المدير، على ما أعتقد".

ضحكت السيدة ماكوتسي، وقالت: "إنكما، أيها الشابان، معتادان على قول الأشياء اللطيفة للنساء، ولكن هذا لن يجديَ نفعاً معي. فأنا هنا بصفتي نائبة المدير وليس بصفتي امرأة عادية".

قال المتدرب الأكبر: "ولكن هذا صحيح، يا سيدتي. وإن لم تكن ستخبرك، فسوف أفعل هذا بنفسي. لقد كانت لدينا سيارة بقيت في الكراج لأربعة أو خمسة أيام. وهذه السيارة تخص كبيرة الممرضات في "مستشفى الأميرة مارينا"، وهي امرأة قوية جداً لن أود الرقص معها يوماً ما. يا الله!"

قالت السيدة ماكوتسي بسرعة: "إن تلك المرأة لن تراقصك قط. فما الذي سيحملها على الرقص مع فتى ملوث بالشحم مثلك في الوقت الذي يمكنها فيه الرقص مع الجراحين وأناس من ذلك المستوى!"

ضحك المتدرب من هذه الإهانة. وقال: "على أي حال، عندما أحضرت المرأة السيارة قالت إنها تتوقف من وقت إلى آخر في وسط الشارع. فيتوجب عليها أن تنتظر لبعض الوقت إلى أن تشغلها ثانية. فتسير السيارة لبعض الوقت ثم تتوقف.

"فحصنا السيارة. وجربتها بنفسي، فدارت. وقدتها إلى المطار القديم وحتى إلى طريق لوبيتس. فلم يحدث شيء ولم تتوقف السيارة. ولكن تلك المرأة قالت إنها كانت تتوقف دائماً. وهكذا استبدلت شمعات الإشعال وجربتها ثانية. وهذه المرة توقفت عند المنعطف بجانب نادي الجولف. توقفت هكذا وحسب ثم دارت ثانية. وحدث شيء غريب أخبرتنا عنه تلك المرأة. فقد بدأت مساحات الزجاج تعمل عندما توقفت السيارة، رغم أنني لم ألمسها.

"وهكذا قلت هذا الصباح للسيدة ماكوتسي: "هذه سيارة غريبة، يا سيدتي. إنها تتوقف ثم تدور ثانية".

"أتت السيدة ماكوتسي وفحصت السيارة. فنظرت إلى المحرك ورأت أن الشمعات جديدة والبطارية جديدة أيضاً. ثم فتحت الباب ودخلت. فتغيرت ملامحها. وتجعد أنفها هكذا. وقالت: "تفوح من هذه السيارة رائحة الفئران. لا بد أن فيها فأراً".

"بدأت تنظر في الأنحاء. فبحثت تحت المقاعد ولم تجد شيئاً هناك. ثم نظرت تحت لوحة أجهزة القياس وبدأت تصيح علي وعلى أخي قائلة: "يوجد وكر فئران في هذه السيارة. فقد أكلت الفئران المادة العازلة عن الأسلاك. انظرا".

"لذا نظرنا إلى هذه الأسلاك. وهي أسلاك مهمة جداً للسيارة ومرتبطة بالإشعال. فرأينا أن اثنين منهما متلامسان أو شبه متلامسين في المكان الذي قضمت عنه الفئران العازل، وهذا يعني أن المحرك ظن أن الإشعال مطفأ عندما تلامس السلكان فحول الطاقة إلى مساحات الزجاج. وهذا هو ما حدث. وفي غضون ذلك، هربت الفئران من السيارة لأن أمرها انكشف. فأخرجت السيدة ماكوتسي الوكر وتخلصت منه ثم جمعت السلكين معاً بشريط أعطيناها إياه. وهكذا صلحنا السيارة. والمشكلة برمتها مجرد مشكلة تسببت بها الفئران، ولكننا تمكنا من حلها لأن هذه المرأة تحرية بارعة".

قال المتدرب الآخر: "إنها تحرية ميكانيكية ستجعل أي رجل سعيداً جداً ولكن متعباً جداً، على ما أعتقد! يا الله!"

قالت السيدة ماكوتسي بمرح: "صه! يجب عليكما أيها الشابان أن تعودا للعمل. إنني نائبة المدير هنا ولست إحدى الفتيات اللواتي تلتقون بهن في الحانات. عودا إلى عملكما".

ضحكت السيدة راموتسوي وقالت: "من الواضح أنك تتمتعين بموهبة في اكتشاف الأمور، يا سيدتي. وربما لا يكون العمل في التحريات والميكانيك مختلفاً إلى هذا الحد على أي حال".

دخلتا إلى المكتب. فلاحظت السيدة راموتسوي على الفور العمل البارع الذي أنجزته السيدة ماكوتسي في ترتيب الفوضى. فرغم أن مكتب السيد جي إل بي ميتكوني ما زال مغطى بالأوراق، فقد بدا عليها أنها باتت مصنفة في أنواع محددة. فالفواتير التي يجب إرسالها للزبائن موضوعة في كومة واحدة بينما تلك التي يجب سدادها موضوعة في كومة أخرى. ووضعت النشرات المرسلة من مزودي القطع في كومة على خزانة الملفات وحلت كتيبات السيارات محلها على الرف فوق مكتبه. وفي آخر الغرفة، سندت السيدة ماكوتسي على الجدار لوحاً أبيض كبيراً رسمت عليه عمودين هما: *السيارات التي دخلت – والسيارات التي خرجت*.

قالت السيدة ماكوتسي: "لقد علمونا في "كلية بتسوانا للسكرتاريا" أنه من المهم للمرء أن يخضع لنظام معين. وإن كان لديه نظام يوجه عمله فلن يتوه أبداً".

وافقتها السيدة راموتسوي وقالت: "هذا صحيح. من الواضح أنهم يعرفون كيف يديرون المشاريع التجارية هناك".

ابتسمت السيدة ماكوتسي سعادة، وقالت: "وهناك شيء آخر. أعتقد أنه من المفيد أن أعد لك لائحة".

"لائحة لي؟".

قالت السيدة ماكوتسي وهي تسلمها ملفاً أحمر كبيراً: "نعم. لقد وضعت لائحتك هنا. وسأعمل كل يوم على تحديث هذه اللائحة. وسترين أنها تحوي ثلاثة أعمدة، وهي: قضايا ملحة و... غير ملحة و... يمكن تأجيلها لوقت لاحق".

تنهدت السيدة راموتسوي. فهي لم ترغب بلائحة أخرى، ولكنها لم ترد بشكل مماثل أن تثبط همة السيدة ماكوتسي التي تبرع بالتأكيد بأصول إدارة الكراجات.

قالت وهي تفتح الملف: "شكراً لك، يا سيدتي. أرى أنك قد سبق وبدأت كتابة لائحتي".

قالت السيدة ماكوتسي: "نعم، فقد اتصلت السيدة بوتوكوين من مزرعة الأيتام. وأرادت أن تتكلم إلى السيد جي إل بي ميتكوني، ولكنني قلت لها إنه ليس هنا. لذا قالت إنها تريد أن تتحدث إليك وتساءلت إن كنت تستطيعين أن تتصلي بها. وترين هنا أنني وضعت مكالمتها في عمود القضايا غير الملحة".

قالت السيدة راموتسوي: "سوف أتصل بها. لا بد أنه أمر يتعلق بالأطفال. فمن الأفضل أن أتصل بها على الفور".

عادت السيدة ماكوتسي إلى الورشة حيث سمعتها السيدة راموتسوي وهي تصيح بتوجيهاتها على المتدربين. ثم رفعت السماعة بعد أن لاحظت أنها ملطخة ببصمات مشحمة وطلبت الرقم الذي دونته السيدة ماكوتسي على لائحتها. وبينما كان الهاتف يرن رسمت إشارة "صح" كبيرة حمراء بجانب البند الوحيد على اللائحة.

أجابت السيدة بوتوكوين.

فقالت: "إنه لطف منك أن تتصلي، يا سيدة راموتسوي. آمل أن الطفلين على ما يرام؟".

قالت السيدة راموتسوي: "إنهما مستقران تماماً".

"هذا حسن. الآن، هل يمكنني أن أطلب منك خدمة، يا سيدتي؟".

كانت السيدة راموتسوي تعرف أن هذه هي الطريقة التي تعمل بها مزرعة الأيتام. فهي بحاجة دائمة للمساعدة. والجميع مستعدون بالطبع لمدها بيد العون. فلا أحد يستطيع أن يرفض طلباً للسيدة سيلفيا بوتوكوين.

"سوف أساعدك، يا سيدتي، أخبريني ما الأمر".

قالت السيدة بوتوكوين: "أود أن تأتي وتحتسي الشاي معي عصر هذا اليوم، إن كان ذلك ممكناً. فهناك شيء ينبغي أن تريه".

"أيمكن أن تخبريني ما هو؟".

قالت السيدة بوتوكوين: "كلا، يا سيدتي. يصعب أن أشرحه لك على الهاتف، لذا فمن الأفضل أن تريه بنفسك".

الفصل التاسع

في مزرعة الأيتام

تقع مزرعة الأيتام على بعد عشرين دقيقة بالسيارة من البلدة. وكانت السيدة راموتسوي قد زارتها في مناسبات عدة، ولكن ليس بشكل متكرر كما يفعل السيد جي إل بي ميتكوني الذي يزورها بشكل منتظم ليصلح الآلات الصغيرة التي يبدو عليها أنها كثيرة الأعطال. فهناك مضخة المياه التي تتطلب اهتمامه الدائم ثم الحافلة الصغيرة التي تحتاج مكابحها إلى عناية مستمرة. ولم يكن يضن عليهم بوقته، فنال تقديرهم وامتنانهم، كما نال تقدير الجميع.

لطالما استلطفت السيدة راموتسوي السيدة بوتوكوين التي تقربها قرابة بعيدة جداً من ناحية أمها. وإنه لمن الشائع تماماً أن يكون المرء قريباً لأي شخص في بتسوانا. وهذا درس يتعلمه الأجانب بسرعة عندما يدلون بملاحظة انتقادية عن شخص ما ثم يدركون أنهم يتحدثون مع أحد أقاربه البعيدين.

كانت السيدة بوتوكوين واقفة خارج المكتب تتحدث إلى أحد موظفيها عندما وصلت السيدة راموتسوي. فأرشدت ضيفتها إلى موقف سيارات الزوار تحت شجرة ليلك (اللِّيلَج) لتركن سيارتها هناك، ثم دعتها للدخول.

قالت: "إن الطقس حار جداً في هذه الأيام، يا سيدة راموتسوي. ولكن لدي مروحة قوية جداً في مكتبي. وإن أرفعها إلى أعلى مستوى، يمكنها أن تطير الناس خارج الغرفة. وهكذا تصبح سلاحاً مفيداً جداً".

قالت السيدة راموتسوي: "آمل ألا تفعلي هذا بي". وتخيلت نفسها للحظة والمروحة تعصف بها من مكتب السيدة بوتوكوين وفستانها يطير في كل مكان وهي تحلق نحو السماء وتنظر إلى الأرض فترى الأشجار والطرق والماشية تحدق بها بدهشة.

قالت السيدة بوتوكوين: "بالطبع لا. فأنت أحد الزوار الذين أحب أن أستقبلهم. أما النوع الذي لا أحبه، فهم الناس الذين يتدخلون في ما لا يعنيهم ويحاولون أن يعلموني كيف أدير مزرعة الأيتام. وهناك أناس كثر على هذه الشاكلة. فأحياناً يزورني هؤلاء الأشخاص الذين يحشرون أنوفهم في الأمور ويظنون أنهم يعرفون بشأن الأيتام، ولكنهم لا يعرفون شيئاً في حقيقة الأمر. أما الناس الذين يعرفون كل شيء عن الأيتام، فهم أولئك السيدات". وأشارت من النافذة إلى اثنتين من الأمهات بالرعاية، وهما امرأتان قويتان ترتديان رداءين منزليين أزرقين، تأخذان طفلين حديثي المشي في

نزهة على طول أحد الممرات وتمسكان بأيديهما الصغيرة بقوة وتشجعان خطواتهما المترددة المترنحة بكل لطف وحنان.

تابعت السيدة بوتوكوين قائلة: "نعم، هؤلاء السيدات يعرفن. ويستطعن التعامل مع أي نوع من الأطفال: كالطفل الحزين الذي يبكي على أمه المتوفاة طوال الوقت والطفل الشرير الذي تعلم السرقة والطفل الوقح الذي لم يتعلم أن يحترم الكبار ويتفوه بكلمات بذيئة. هؤلاء السيدات يستطعن الاهتمام بكل أولئك الأطفال".

قالت السيدة راموتسوي: "إنهن نساء صالحات فعلاً. وقد كان اليتيمان اللذان أخذتهما والسيد جي إل بي تيكوني سعيدين جداً هنا. والبارحة فقط، قرأت لي موثوليلي قصة كتبتها في المدرسة. إنها قصة حياتها. وتحدثت فيها عنك، يا سيدتي".

قالت السيدة بوتوكوين: "يسرني أنها عاشت بسعادة هنا. فهي فتاة شجاعة جداً". وتوقفت ثم قالت: "ولكنني لم أدعك للقدوم إلى هنا للحديث عن هذين الطفلين، يا سيدتي. بل أردت أن أخبرك عن شيء غريب جداً حدث هنا. وهو غريب جداً بحيث إن الأمهات بالرعاية عجزن عن التعامل معه. ولهذا السبب فكرت أن أطلب مشورتك. فاتصلت بالسيد جي إل بي ميتكوني لآخذ رقمك".

مدت يدها عبر المكتب وصبت فنجاناً من الشاي للسيدة راموتسوي. ثم قطعت شريحة كبيرة من الكعك كانت في طبق على صينية الشاي. وقالت: "لقد خبزت فتياتنا الكبيرات هذه الكعكة. فنحن ندربهن على الطهو".

قبلت السيدة راموتسوي قطعتها الكبيرة من الكعك ونظرت إلى الفاكهة الشهية بداخلها. واعتقدت أنها تحوي سبعمائة سعرة حرارية على الأقل، ولكن هذا لا يهمها. فهي امرأة ذات بنية تقليدية ولا يتوجب عليها أن تقلق بشأن هذه الأشياء.

تابعت السيدة بوتوكوين حديثها قائلة: "إننا نستقبل كل أنواع الأطفال. فيحضرهم الناس إلينا عادة إن توفيت الأم ولم يعرف أحد هوية الأب. وغالباً ما تعجز الجدة عن التكيف مع الوضع بسبب مرضها أو فقرها. وعندئذ لا يتبق أي أقارب للأطفال. فنأخذهم من الموظفين الاجتماعيين أو الشرطة أحياناً. وأحياناً يتركون في مكان ما فيتصل بنا بعض الأشخاص من العامة".

قالت السيدة راموتسوي: "إنهم محظوظون بوصولهم إلى هنا".

"نعم، ومهما يكن ما حدث لهم في الماضي، فقد سبق وصادفنا أموراً من هذا القبيل. ولا شيء يصدمنا. ولكن بين الحين والآخر تأتينا قضية غريبة لا ندري ماذا نتصرف حيالها".

"وهل يوجد طفل من هذا النوع الآن؟".

قالت السيدة بوتوكوين: "نعم، وبعد أن تنتهي من تناول قطعة الكعك الكبيرة تلك سآخذك وأريك صبياً أتى إلينا بدون أي اسم. في الأحوال العادية، إن لم يكن للأطفال أسماء، نعثر على أسماء

تقليدية جميلة ندعوهم بها. ولكن هذا يحدث عادة مع الأطفال الرضع. فالأطفال الكبار يخبروننا بأسمائهم. ولكن هذا الصبي لم يطلعنا على اسمه. وفي الواقع، لا يبدو عليه أنه قد تعلم الكلام على الإطلاق. لذا قررنا أن نسميه ماتيلا".

أنهت السيدة راموتسوي كعكتها وشربت الشاي. ثم توجهت مع السيدة بوتوكوين إلى أحد المنازل في آخر حلقة الأبنية التي يعيش فيها الأيتام. وكان هناك حقل مزروع بالفول. وبدت الباحة الصغيرة أمام المنزل مكنوسة بأناقة. فاعتقدت السيدة راموتسوي أن الأم التي تديره بارعة برعاية المنزل. ولكن إن كانت هذه هي حالها، فكيف يمكن لمجرد صبي صغير أن يهزمها؟

وجدتا الأم بالرعاية، واسمها السيدة كيريلنغ، في المطبخ. فحيت السيدة راموتسوي بحرارة وهي تجفف يديها بمئزرها ودعت المرأتين إلى غرفة المعيشة. فبدت الغرفة مليئة بزينة مبهجة وصور مرسومة من قبل الأطفال معلقة على لوح كبير. وكان هناك صندوق مليء بالألعاب موضوع في ركن الغرفة.

انتظرت السيدة كيريلنغ إلى أن جلست ضيفتاها ثم جلست على أحد الكراسي الضخمة المحيطة بطاولة مركزية منخفضة.

قالت للسيدة راموتسوي: "لقد سمعت عنك، يا سيدتي، ورأيت صورتك في الصحيفة. وبالطبع، قابلت السيد جي إل بي ميتكوني عندما أتى إلى هنا ليصلح الآلات التي تتعطل دائماً. إنك سيدة محظوظة لأن تتزوجي رجلاً يصلح الأشياء. فمعظم الأزواج يكسرون الأشياء فقط".

أومأت السيدة راموتسوي برأسها شكراً لمجاملتها. وقالت: "إنه رجل صالح، ولكنه لا يشعر أنه على ما يرام في الوقت الحاضر، لذا آمل أن يتحسن عما قريب".

قالت السيدة كيريلنغ: "آمل هذا أيضاً". ونظرت إلى السيدة بوتوكوين بترقب.

فقالت: "لقد أردت من السيدة راموتسوي أن تقابل ماتيلا. فربما تستطيع أن تنصحنا بشأنه. كيف حاله اليوم؟".

قالت السيدة كيريلنغ: "كحاله أمس وأول الأمس. فذلك الصبي لا يتغير".

فتنهدت السيدة بوتوكوين قائلة: "هذا مؤسف جداً. هل هو نائم الآن؟ أيمكن أن تفتحي الباب؟".

قالت الأم بالرعاية: "أظن أنه مستيقظ. لنذهب لرؤيته على أي حال".

نهضت من كرسيها وأرشدتهما إلى آخر ممر يلمع من شدة النظافة. فتأملت السيدة راموتسوي المنزل النظيف بإعجاب. وأدركت مقدار العمل الجاد الذي تنجزه تلك المرأة. وفكرت أن هناك نساء في طول البلاد وعرضها لا يتوانين عن العمل والكد ولكنهن نادراً ما يتلقين أي إطراء. إن السياسيين يطالبون بنيل شرف بناء بتسوانا، ولكن كيف يجرؤون على ذلك؟ كيف يجرؤون أن يطالبوا بشرف كل العمل الشاق الذي تقوم به نساء كالسيدة كيريلنغ ومثيلاتها؟

وقفتا خارجاً عند الباب في آخر الممر. وأخرجت السيدة كيريلنغ المفتاح من جيب ردائها المنزلي.

وقالت: "لا أتذكر آخر مرة حبسنا فيها طفلاً في الغرفة. وفي الواقع، أعتقد أن هذا لم يحدث من قبل. إذ لم يتوجب علينا قط أن نفعل شيئاً من هذا القبيل".

لم يبدُ أن الملاحظة جعلت السيدة بوتوكوين تشعر بالارتياح. فقالت: "ليست هناك طريقة أخرى نتبعها. فسوف يهرب منا إلى القفر".

قالت السيدة كيريلنغ: "بالطبع. وهذا الوضع برمته مؤسف جداً".

فتحت الباب. فظهرت أمامهن الغرفة المفروشة بفراش واحد فقط. ولم يكن هناك زجاج في النوافذ المغطاة بشبكة من الحديد المطاوع من النوع الذي يستخدم في قضبان السجون. ثم رأين الصبي ذا الخمسة أو الستة أعوام جالساً على الفراش وساقاه ممدودتان أمامه وهو عارٍ تماماً.

نظر الصبي إلى النساء وهن يدخلن. وللحظة وجيزة، رأت السيدة راموتسوي عينيه تكتسبان تعبيراً يوحي بالرعب من النوع الذي قد يراه المرء في عيني حيوان خائف. ولكن ذلك التعبير استمر لوقت قصير فقط ثم حلت محله نظرة توحي بالفراغ أو الغياب.

قالت السيدة بوتوكين متحدثة بلغة السيتسوانا ببطء شديد: "يا ماتيلا، كيف حالك اليوم؟ هذه السيدة تدعى السيدة راموتسوي. راموتسوي. هل تراها؟".

رفع الصبي نظره إلى السيدة بوتوكوين وهي تتحدث وظل نظره مثبتاً عليها إلى أن توقفت عن الكلام. ثم أطرق نحو الأرض ثانية.

قالت السيدة بوتوكوين: "لا أظن أنه يفهم ما أقوله. ولكننا نتحدث إليه على أي حال".

قالت السيدة راموتسوي: "هل حاولت التحدث إليه بلغات أخرى؟".

أومأت السيدة بوتوكوين برأسها وقالت: "جربنا كل شيء يخطر ببالك. واستدعينا شخصاً من قسم اللغات الإفريقية في الجامعة. فجرب بعض اللغات النادرة في حال أن يكون قد تاه من زامبيا. وجربنا بعض لغات القبائل رغم أنه من غير المحتمل أن يكون من قبيلة البساروا. فلم يستجب لأي شيء على الإطلاق".

اقتربت السيدة راموتسوي خطوة إلى الأمام لتلقي نظرة عن كثب إلى الصبي. فرفع رأسه قليلاً، ولكنه لم يفعل شيئاً آخر. فتقدمت إلى الأمام ثانية.

قالت السيدة بوتوكوين: "توخي الحذر. فهو يعض، ليس دائماً، ولكن في أغلب الأحيان".

تسمرت السيدة راموتسوي في مكانها. وقد كان العض طريقة شائعة للقتال في بتسوانا، لذا فليس من المفاجئ أن يجد المرء طفلاً يعض. ففي قضية حديثة أبلغ أحدهم الشرطة أنه تعرض للاعتداء بالعض. إذ عض نادل أحد الزبائن بعد أن تجادلا على بقية قيمة الفاتورة. فأدى هذا إلى

مقاضاة النادل في محكمة لوبيتس. وحكم عليه بالسجن لشهر واحد. فعض على الفور الشرطي الذي قاده إلى الزنزانة. وفكرت السيدة راموتسوي أن هذا مثال إضافي على قلة تبصر الأشخاص العنيفين. إذ إن هذه العضة الثانية كلفته ثلاثة أشهر أخرى في السجن.

نظرت السيدة راموتسوي إلى الطفل.

"ماتيلا؟".

فلم يفعل الصبي شيئاً.

"ماتيلا؟". ومدت يدها نحو الصبي وهي متهيئة لسحب يدها بسرعة إن تطلب الأمر ذلك.

فزأر الصبي. ولا توجد كلمة أخرى تصف ما فعله. فقد كان صوتاً منخفضاً داخلياً يبدو عليه أنه يصدر من داخل صدره.

سألت السيدة بوتوكوين: "هل سمعت هذا؟ أليس أمراً غير اعتيادي؟ وإن كنت تتساءلين عن سبب عريه، فهذا لأنه مزق الثياب التي أعطيناه إياها. لقد مزقها بأسنانه ورماها على الأرض. ثم أعطيناه زوجاً من السراويل القصيرة ففعل الشيء نفسه بكل منها".

تقدمت السيدة بوتوكوين إلى الأمام الآن.

وقالت: "والآن، يا ماتيلا. انهض واخرج. فالسيدة كيريلنغ ستأخذك لتستنشق بعض الهواء المنعش".

مدت يدها إلى الأسفل وأخذت بذراع الصبي بحذر شديد. فأدار رأسه للحظة. فظنت السيدة راموتسوي أنه سيعضها، ولكنه لم يفعل ذلك. بل نهض بخنوع على قدميه وسمح لها باقتياده خارج الغرفة.

خارج المنزل، أخذت السيدة كيريلنغ بيد الصبي ومشت معه نحو أجمة من الأشجار في آخر المجمع. فمشى الصبي مشية غريبة نوعاً ما، كما لاحظت السيدة راموتسوي، فهي بين الركض والمشي وكأنه قد يجري مبتعداً فجأة.

قالت السيدة بوتوكوين وهما تراقبان الأم تمشي مع الطفل تحت عهدتها: "هذا هو ماتيلا. فما رأيك به؟".

تجهمت السيدة راموتسوي وقالت: "هذا غريب جداً. لا بد أن أمراً رهيباً قد حدث لذلك الطفل".

قالت السيدة بوتوكوين: "لا ريب في ذلك. وقد قلت هذا الكلام للطبيب الذي أتى ليفحصه. فقال إنه قد يكون صحيحاً وقد لا يكون كذلك. وقال إن بعض الأطفال يولدون هكذا فينعزلون بأنفسهم ولا يتعلمون الكلام قط".

راقبت السيدة راموتسوي السيدة كيريلنغ وهي تترك يد الطفل قليلاً.

قالت السيدة بوتوكوين: "يجب علينا أن نراقبه طوال الوقت. فإن تركناه، هرب إلى القفر واختبأ. وقد فقد لأربع ساعات الأسبوع الماضي. فعثروا عليه في نهاية المطاف بجانب برك المجاري. ولم يبدُ عليه أنه يعرف أن من المحتمل لطفل يجري عارياً بأقصى سرعته أن يلفت الانتباه".

بدأت السيدة راموتسوي والسيدة بوتوكوين تمشيان عائدتين إلى المكتب. فشعرت السيدة راموتسوي بالكآبة. وتساءلت كيف يمكن للمرء أن يكتشف حقيقة طفل كهذا. إذ إن من السهل الاستجابة لحاجات الأيتام المثيرين للاهتمام، كالطفلين اللذين أتيا للعيش في زيبرا درايف، ولكنْ هناك أطفال آخرون كثر أفسدوا بطريقة أو بأخرى ويحتاجون إلى الصبر والتفهم. وفكرت متأملة بحياتها بكل ما فيها من لوائح ومتطلبات، ولكنها تساءلت كيف سيتسنى لها أن تعثر على وقت لتصبح أماً لطفل كهذا. إن السيدة بوتوكوين لا تخطط بالتأكيد لأن تجعلها والسيد جي إل بي ميتكوني يأخذان هذا الطفل أيضاً! لقد كانت على يقين من أن المديرة مشهورة بالتصميم وبعدم الاستسلام، وهذا ما يجعلها مدافعة قوية عن الأيتام، ولكنها لم تستطع أن تتخيلها تحاول أن تفرض نفسها عليها بهذا الشكل. فإكراهها على أخذ الطفل بتلك الطريقة يشكل عبئاً كبيراً من وجهة نظر أي شخص كان.

استهلت كلامها وهما تقتربان من المكتب قائلة: "إنني امرأة مشغولة. وأنا آسفة، ولكنني لا أستطيع أن آخذ..."

مرت بهما مجموعة من الأيتام وحيوا المديرة بأدب. وكان معهم جرو صغير هزيل تحتضنه إحداهن بين يديها. ففكرت السيدة راموتسوي في نفسها أنها يتيمة تساعد يتيماً آخر.

حذرتها السيدة بوتوكوين قائلة: "كوني حذرة مع هذا الكلب. لطالما قلت لك ألا تأخذي هذه الكلاب الضالة. ألن تصغي إلي...؟".

ثم التفتت إلى السيدة راموتسوي وقالت: "ولكن يا سيدة راموتسوي! آمل أنك لم تظني... بالطبع أنا لا أتوقع منك أن تأخذي ذلك الصبي! فنحن بالكاد نستطيع تدبر أمره هنا رغم كل ما نملكه من مصادر..."

قالت السيدة راموتسوي: "لقد ساورني بعض القلق. إنني مستعدة دائماً للمساعدة، ولكن هناك حد لما أستطيع فعله".

ضحكت السيدة بوتوكوين ولمست ذراع ضيفتها مطمئنة. وقالت: "بالطبع أنت كذلك. فقد ساعدتني مسبقاً بأخذك هذين اليتيمين. كلا، لقد أردت فقط أن أطلب نصيحتك. فأنا أعلم أنك مشهورة باكتشاف الناس المفقودين. أيمكنك أن تخبرينا وحسب كيف يمكننا أن نكتشف حقيقة ذلك الصبي، وإن كان يمكننا نوعاً ما أن نكتشف شيئاً عن ماضيه والمكان الذي أتى منه؟ فربما يمكننا عندئذ أن نفهمه".

هزت السيدة راموتسوي رأسها، وقالت: "هذا صعب جداً. إذ يجب أن تتحدثوا إلى أناس يعيشون قرب المكان الذي عثر عليه فيه. ويجب أن تطرحوا العديد من الأسئلة. وأعتقد أن أولئك الناس لن يودوا أن يتحدثوا بالأمر. فلو أنهم يريدون ذلك، لقالوا شيئاً ما".

قالت السيدة بوتوكوين بحزن: "أنت محقة في هذا. فقد طرحت الشرطة العديد من الأسئلة هناك خارج مون. وسألوا في كل القرى المحلية. فلم يعرف أحد طفلاً بهذه الأوصاف. ثم أروهم صورته. فقال الناس إنهم لا يعرفون شيئاً عنه".

لم تفاجأ السيدة راموتسوي. فإن كان أي شخص يريد الطفل إذاً ربما لقال شيئاً ما. وحقيقة هذا الصمت تعني على الأرجح أن الطفل قد هجر عن عمد. واحتمال ممارسة السحر مع طفل كهذا وارد الحدوث. وإن قال طبيب مشعوذ محلي إن الطفل ممسوس أو مسكون، فلا يملك أحد أن يفعل له أي شيء. وربما يكون محظوظاً لبقائه على قيد الحياة. فالأطفال من هذا النوع غالباً ما يلاقون مصيراً مختلفاً تماماً.

وقفتا الآن بجانب سيارة الفان البيضاء الصغيرة. وكانت الشجرة قد أسقطت ورقة على سقف السيارة. فالتقطتها السيدة راموتسوي. وبدت أوراق تلك الشجرة رقيقة جداً بمئات الوريقات الصغيرة المرتبطة بالساق المركزي مثل خطوط شبكة العنكبوت الناعمة. سمعت السيدة راموتسوي من خلفها أصوات الأطفال وهم يترنمون بأغنية تذكرتها من طفولتها. فرسمت ابتسامة على شفتيها.

الماشية تعود إلى البيت، واحد، اثنان، ثلاثة.

الماشية تعود إلى البيت، الكبيرة والصغيرة وذات القرن الواحد.

إننـي أعيش مع الماشية، واحد، اثنان، ثلاثة.

يا أمي، انتبهي إلي.

نظرت إلى وجه السيدة بوتوكوين المعبر في كل خط من خطوطه وكل ملامحه وكأن لسان حاله يقول: "أنا مديرة مزرعة أيتام".

قالت السيدة راموتسوي: "لا يزالون ينشدون تلك الأغنية".

فابتسمت السيدة بوتوكوين قائلة: "أنا أيضاً أغنيها. فنحن لا ننسى أغنيات طفولتنا، أليس كذلك؟".

قالت السيدة راموتسوي: "أخبريني، ماذا قالوا عن الصبي؟ هل قال الناس الذين عثروا عليه أي شيء؟".

فكرت السيدة بوتوكوين للحظة، ثم قالت: "لقد أخبروا الشرطة أنهم عثروا عليه في الظلام وأن السيطرة عليه كانت صعبة جداً، كما قالوا إن رائحة غريبة كانت تفوح منه".

"أية رائحة غريبة؟".

أومأت السيدة بوتوكوين بيدها تعبيراً عن نبذها للفكرة، وقالت: "لقد قال أحد الرجال إن رائحة الأسود تفوح منه. وتذكر الشرطي هذا القول لأنه غريب جداً. فكتبه في تقريره، ثم وصل هذا التقرير إلينا أخيراً عندما أرسل موظفو الإدارة القبلية هناك الصبي للإقامة لدينا".

سألت السيدة راموتسوي: "رائحة الأسود؟".

فقالت السيدة بوتكوين: "نعم، يا للسخف!"

التزمت السيدة راموتسوي الصمت لبرهة، ثم ركبت سيارة الفان البيضاء الصغيرة وشكرت السيدة بوتوكوين لحسن وفادتها.

وقالت: "سوف أفكر في أمر الصبي. فربما تخطر لي فكرة ما".

لوحتا لبعضهما البعض بينما قادت السيدة راموتسوي سيارتها في الطريق المغبر عبر بوابة دار الأيتام التي وضعت عليها لافتة كبيرة كتب عليها: "يوجد أطفال يعيشون هنا".

قادت سيارتها ببطء لأن الطريق مليء بالماشية والحمير والصبية الرعاة الذين يعتنون بها. وكان بعض الصبية الرعاة صغاراً جداً ولا يتعدون السادسة أو السابعة من العمر، أي في مثل عمر ذلك الصبي الصامت المسكين في غرفته الصغيرة.

فكرت السيدة راموتسوي في نفسها: ماذا يحدث إن تاه راعٍ صغير؟ ماذا إن ضل الطريق في القفر بعيداً عن محطة الماشية؟ هل سيموت يا ترى؟ أم أن شيئاً مختلفاً تماماً سيحدث له؟

الفصل العاشر

قصة الموظف

أدركت السيدة راموتسوي أن الوقت قد حان لفعل شيء بشأن نقل مكتب وكالة التحريات النسائية الأولى. فلم تستغرق وقتاً طويلاً لنقل محتويات المكتب القديم إلى المقر الجديد في مؤخرة كراج تلوكوينغ رود سبيدي موتورز. إذ لا يحوي المكتب أكثر من خزانة ملفات واحدة ومحتوياتها وبضع صوان معدنية توضع فيها الأوراق التي تنتظر الحفظ في ملفات بالإضافة إلى إبريقي الشاي والفنجانين ذوي الحواف المكسَّرة وبالطبع الآلة الكاتبة القديمة التي أعطاها إياها السيد جي إل بي ميتكوني وستعود إلى موطنها الآن. فعمل المتدربان على نقل هذه الموجودات إلى مؤخرة سيارة الفان البيضاء الصغيرة بعد أن أبديا بعض التذمر المعتاد من أن ذلك ليس جزءاً من عملهما، ولكنهما كانا على ما يبدو مستعدين لفعل أي شيء تطلبه منهما السيدة ماكوتسي التي لم يعد يتوجب عليها أن تفعل الآن سوى أن تصفر من المكتب لتجد أحدهما يجري نحوها ليفعل ما تريده منه.

أثار هذا الإذعان دهشة السيدة راموتسوي. فتساءلت عن التأثير الذي تحدثه السيدة ماكوتسي في هذين الشابين. إذ إن السيدة ماكوتسي غير جميلة من الناحية التقليدية. فبشرتها داكنة فوق الحد بالنسبة إلى الأذواق الحديثة. ووجهها مليء ببقع خلفها كريم تفتيح البشرة الذي استخدمته. أما بالنسبة إلى شعرها، فهو مضفور في أغلب الأحيان، ولكنه مضفور بطريقة غريبة جداً. وبالطبع، هناك نظارتها بعدساتها الكبيرة التي تكفي شخصين على الأقل من وجهة نظر السيدة راموتسوي. ومع ذلك، تجد هذه الفتاة، التي يستحيل أن تدخل الجولة الأولى في منافسة من منافسات الجمال، كل هذا الاهتمام يغدق عليهما من هذين الشابين المتكلفين كما يشاع عنهما. وهذا كله محير جداً.

وبالطبع، قد يكون هناك ما يتجاوز حدود الشكل الخارجي وراء هذا. فالسيدة ماكوتسي، ورغم أنها ليست جميلة جداً، فهي بكل تأكيد تتمتع بشخصية قوية. وربما أدرك الشابان هذا الجانب فيها. فغالباً ما تكون ملكات الجمال مجردات من الشخصية. ولا بد أن الرجال يسأمون من هذا بعد فترة من الوقت. وتلك المنافسات الرهيبة التي يقيمونها مثل: منافسة *ملكة* جمال *وقت العشاق المميز* ومنافسة *ملكة* جمال *تجارة الماشية*، تقدم أكثر الفتيات سخافة. فتحاول أولئك الفتيات أن يبدين رأيهن بشتى أنواع القضايا، مما يتجاوز حدود إدراك السيدة راموتسوي، وغالباً ما يجدن من يصغي إليهن.

كانت تعلم أن هذين الشابين يتابعان منافسات الجمال لأنها سمعتهما يتحدثان عنها. ولكن جل اهتمامهما الآن أصبح ينحصر في التأثير في السيدة ماكوتسي والإطراء عليها. وقد حاول أحدهما ذات مرة أن يغازلها. فدفعته بعيداً عنها بسخط وإحراج.

وسألت السيدة ماكوتسي: "منذ متى يغازل الميكانيكي مديرته؟ عد إلى العمل قبل أن أضربك ضرباً مبرحاً بعصا كبيرة، يا عديم الفائدة".

أنجز المتدربان الانتقال بسرعة هائلة وحملا كل المحتويات في غضون نصف ساعة ثم جلسا في المؤخرة ليثبتا خزانة الملفات في مكانها. وهكذا توجهت وكالة التحريات النسائية الأولى بكل محتوياتها بالإضافة إلى لافتتها المطلية إلى مقرها الجديد. ومرت لحظة حزينة. فشعرت كل من السيدة راموتسوي والسيدة ماكوتسي أنهما على وشك البكاء وهما تقفلان الباب للمرة الأخيرة.

قالت السيدة ماكوتسي محاولة أن تخفف عن مديرتها: "إنه مجرد انتقال. وليس الأمر أننا أقفلنا المشروع".

قالت السيدة راموتسوي: "أعلم ذلك". وراحت تنظر ربما للمرة الأخيرة إلى المنظر المطل من مقدمة البناء على أسقف البلدة وقمم أشجار الشوك. ثم قالت: "لقد كنت سعيدة جداً هنا".

لقد قالت إن المشروع لا يزال مستمراً، ولكن ذلك بالكاد يبدو صحيحاً. فعلى مدى الأيام القليلة الماضية، بكل ما فيها من اضطراب ولوائح حافلة، لم تكرس السيدة راموتسوي إلا النذر اليسير من وقتها لشؤون وكالتها. وفي الواقع، لقد أدركت عندما فكرت في الأمر أنها لم تكرس أي وقت على الإطلاق. وقد كانت هناك قضية واحدة لم يبت بأمرها بعد. إذ لم ترد أي قضية أخرى، رغم أن القضايا ستأتي بلا شك. وكانت ستتمكن من أن تطلب أتعاباً ملائمة مقابل وقتها من مسؤول الحكومة، ولكن هذا يعتمد على إحرازها نتيجة إيجابية. فكانت سترسل له فاتورة حساب حتى لو لم تكتشف شيئاً، ولكنها لطالما شعرت بالإحراج لطلب أي أتعاب إن هي لم تستطع مساعدة الزبون. فربما سيتوجب عليها وحسب أن تقوي من عزيمتها في قضية مسؤول الحكومة لأنه رجل ثري وقادر تماماً على سداد أتعابها. وفكرت أن من السهل عليها أن تفتتح وكالة تحريات تلبي حاجات الأثرياء فقط وتطلق عليها اسم "وكالة تحريات الأثرياء الأولى" لأن طلب الأتعاب سيأتي عندئذ بلا مشقة. ولكن هذه ليست طبيعة عملها. ولم تكن واثقة من أن هذا العمل سيسعدها لأنها تحب أن تساعد الجميع أياً يكن موقعهم في الحياة. وغالباً ما أصبحت مفلسة بسبب بعض القضايا لأنها لم تستطع ببساطة أن ترفض تقديم مساعدتها لمن يحتاج إليها. فهي تقول لنفسها: هذا هو عملي. ويجب أن أساعد أي شخص يطلب مساعدتي. فمن واجبي أن أساعد الناس الآخرين بحل المشاكل التي تؤرق حياتهم. ولا أدعي أنني أستطيع مساعدة الجميع. فإفريقيا مليئة بأناس يحتاجون إلى المساعدة. ويجب أن يوضع حد معين لقدرة المرء على المساعدة لأنه لا يستطيع ببساطة أن يساعد جميع

الناس، ولكنه على الأقل يستطيع أن يساعد الناس الذين يدخلون حياته. وهذا المبدأ يساعده على التخفيف من المعاناة التي يراها لأنها تصبح عندئذ بمثابة معاناته الشخصية. ويجب على الناس الآخرين بدورهم أن يخففوا معاناة الناس الذين يصادفونهم في حياتهم.

ولكن ما الذي يجب عليها فعله حيال مشكلات العمل الآن في هذه اللحظة؟ قررت السيدة راموتسوي أنه أصبح لزاماً عليها أن تعيد صياغة لائحتها وتضع قضية مسؤول الحكومة على رأس أولوياتها. وهذا يعني أنه ينبغي عليها أن تبدأ التحقيق على الفور ومن الأفضل أن تستهله بوالد الزوجة المشتبه بها! هناك أسباب كثيرة تدفعها لفعل ذلك، أهمها هو أنه إن كانت هناك فعلاً خطة للتخلص من شقيق مسؤول الحكومة، إذاً فهذه على الأرجح ليست فكرة الزوجة بل حلم والدها. وأيقنت السيدة راموتسوي أن الناس الذين يرتكبون جرائم خطيرة نادراً ما يفعلون ذلك بمبادرة شخصية منهم. فعادة ما يكون هناك شخص ما متورط في الجريمة سيستفيد من ارتكابها بطريقة أو بأخرى أو شخص مقرب من مرتكب الفعلة يلجأ إليه طلباً للدعم المعنوي. وفي هذه القضية، يعتبر أكثر احتمال مرجح لذلك هو والد الزوجة. فإن كان هذا الرجل، كما لمح مسؤول الحكومة في كلامه، مدركاً للتحسين الاجتماعي الذي ينطوي عليه هذا الزواج واعتبر أن له أهمية كبيرة، فمن المحتمل أن يكون طموحاً اجتماعياً. وفي هذه الحالة، فمن المرجح تماماً أن يتخلص من صهره لكي يتمكن هو من خلال ابنته أن يضع يده على جزء كبير من ممتلكات العائلة. وكلما فكرت السيدة راموتسوي بالأمر ملياً، أصبح من الوارد أكثر في نظرها أن تكون محاولة دس السم فكرة ذلك الموظف.

استطاعت أن تتخيل ما يفكر فيه هذا الموظف وهو جالس في مكتبه الحكومي الصغير يتأمل كل القوة والسلطة التي يراها من حوله ولا يتمتع إلا بمقدار ضئيل جداً منها. فيا له من وضع مثير للحنق بالنسبة إلى رجل من ذلك النوع أن يرى مسؤول الحكومة، وهو في الواقع شقيق زوج ابنته، يمر به بسيارته الحكومية! وكم يصعب عليه ألا ينال الامتياز الذي يشعر بلا شك أنه سيناله بمجرد أن يعرف الناس أنه مرتبط بتلك العائلة. وإن حظي بالمال والماشية، أو حظيت ابنته بهما، وهذا يعني الشيء نفسه، فعندئذ سيصبح قادراً على أن يتخلى عن منصبه المهين في الخدمة المدنية ويعيش حياة المزارع الغني وسيصبح لديه هو، الرجل الذي لا يملك أي ماشية، عدد كبير منها. إنه نفس الرجل الذي يتوجب عليه الآن أن يقتر على نفسه ليوفر تكلفة رحلة إلى فرانسيستاون مرة في السنة، ولكنه سيتمكن عندئذ من أن يتناول اللحم يومياً ويشرب المشروب المفضل الفاخر مع أصدقائه في أمسيات الجمعة ويسخو عليهم بجولات من المشروبات، ولكن ما يحول بينه وبين كل هذا هو قلب صغير نابض بالحياة. وإن تمكن من إسكات هذا القلب، فسوف يطرأ تحول جذري على حياته بأكملها.

كان مسؤول الحكومة قد أعطى السيدة راموتسوي اسم عائلة الزوجة وأخبرها أن والدها يحب أن يقضي ساعة غدائه جالساً تحت إحدى الأشجار خارج الوزارة. فمنحها هذا كل المعلومات التي تحتاج إليها لتعثر عليه، ألا وهي: اسمه وشجرته.

قالت للسيدة ماكوتسي وهما جالستان في مكتبهما الجديد: "سوف أبدأ بهذه القضية الجديدة. إنك مشغولة بالكراج. أما أنا فسوف أعود للعمل كتحرية".

قالت السيدة ماكوتسي: "هذا حسن. إن العمل في الكراج يتطلب مجهوداً كبيراً. وسوف أبقى مشغولة جداً".

فقالت السيدة راموتسوي: "يسرني أن أرى المتدربين يعملان بجد. فأنت تحكمين سيطرتك عليهما جيداً".

ابتسمت السيدة ماكوتسي ابتسامة خبيثة، وقالت: "إنهما شابان سخيفان جداً، ولكننا نحن السيدات معتادات على التعامل مع الشبان السخفاء".

قالت السيدة راموتسوي: "هذا ما ألاحظه. لا بد أن لك أصدقاء كثر، يا سيدتي. إذ يبدو على هذين الشابين أنهما معجبان بك".

هزت السيدة ماكوتسي رأسها، وقالت: "لم يكن لي ولا صديق واحد. ولا أفهم لماذا يتصرف هذان الشابان معي بوجود كل تلك الفتيات الجميلات في غابورون".

قالت السيدة راموتسوي: "إنك تبخسين نفسك حقك، يا سيدتي. فمن الواضح أنك سيدة جذابة في نظر الرجال".

سألت السيدة ماكوتسي وهي تبتسم سعادة: "أتظنين ذلك؟".

قالت السيدة راموتسوي: "نعم، فبعض السيدات يصبحن أكثر جاذبية في نظر الرجال عندما يتقدمن بالسن. وقد رأيت هذا يحدث. ففي الوقت الذي تصبح فيه كل أولئك الفتيات الشابات ملكات الجمال أقل جاذبية عندما يتقدمن بالسن تصبح النساء الأخريات أكثر جاذبية. وهذا أمر مثير للاهتمام".

بدت السيدة ماكوتسي مستغرقة بالتفكير. ثم عدلت وضع نظارتها. فلاحظتها السيدة راموتسوي وهي تلقي نظرات ريبة خاطفة إلى انعكاس صورتها في زجاج النافذة. ولم تكن السيدة راموتسوي واثقة من صحة ما قالته. ولكن حتى لو لم يكن كذلك، فقد سرها أن يساهم ما قالته في تعزيز ثقة السيدة ماكوتسي بنفسها. ولن يلحق بها أي ضرر إن أصبحت موضع إعجاب هذين الشابين التافهين طالما أنها لا تتورط معهما. وقد بدا من الواضح للسيدة راموتسوي أنه ليست هناك فرصة لذلك، في الوقت الحاضر على الأقل.

عندما بلغت الساعة الثانية عشرة والنصف، تركت السيدة ماكوتسي في مكتبها وانطلقت في سيارة الفان البيضاء الصغيرة. وكان الطريق سيستغرق منها عشر دقائق، مما يمنحها الوقت لتعثر على مكان لركن السيارة والتوجه في طريقها إلى الوزارة لتبدأ البحث عن والد الزوجة، السيد كجوسي سيبوليلي، الموظف في الوزارة، والرجل الذي يوشك أن يصبح قاتلاً، إن صدق حدسها.

ركنت سيارة الفان البيضاء الصغيرة بجانب دار العبادة لأن البلدة مزدحمة ولم تجد مكاناً أقرب من ذلك لركنها. فتوجب عليها أن تمشي مسافة قصيرة، ولكنها لم تمانع بذلك لأنه لا بد لها من أن تقابل بعض الناس الذين تعرفهم وما زال لديها متسع من الوقت لتثرثر وهي في طريقها إلى وجهتها.

ولم يخب أملها، فبمجرد أن انعطفت في الزاوية بعد مكان ركن سيارتها، صادفت السيدة غلوريا بوبيدي، وهي والدة تشيمبيا بوبيدي، التي ارتادت نفس المدرسة مع السيدة راموتسوي في موتشودي. وكانت تشيمبيا قد تزوجت بايلوت ماتانياني، الذي أصبح مدير مدرسة مؤخراً، وأنجبت سبعة أطفال، أصبح أكبرهم بطلاً في العدو وهو دون الخامسة عشرة في بتسوانا.

سألت السيدة راموتسوي: "كيف حال حفيدك السريع، يا سيدتي؟".

ابتسمت السيدة العجوز ابتسامة عريضة. ولاحظت السيدة راموتسوي أنه لم يتبق في فمها سوى بضعة أسنان. فاعتقدت أنه من الأفضل لها أن تزيل الأسنان المتبقية وتضع أسناناً صنعية.

قالت السيدة بوبيدي: "إنه سريع جداً، ذلك الصبي، ولكنه صبي شقي أيضاً. فتعلم أن يركض بسرعة لكي يتمكن من الفرار من المتاعب. وهكذا أصبح سريعاً جداً".

قالت السيدة راموتسوي: "حسناً، لقد أحرز نتيجة إيجابية من وراء هذا. فربما يشترك في دورة الألعاب الأولمبية يوماً ما ويمثل بتسوانا. وهذا سيثبت للعالم أن أسرع العدائين ليسوا من كينيا وحدها".

ثم وجدت نفسها تتأمل في حقيقة أن ما قالته ليس دقيقاً تماماً. فحقيقة الأمر هي أن أفضل العدائين يأتون من كينيا حيث يتمتع الناس بطول فارع وسيقان طويلة مصممة بشكل مناسب جداً للعدو. ومشكلة شعب بتسوانا هي أنهم ليسوا طوال القامة بما فيه الكفاية، بل يميل رجالهم لقصر القامة وامتلائها، وهذا مناسب للعناية بالماشية، ولكنه لا يساعد على التفوق في الرياضة. وليس الجنوب إفريقيين عدائين بارعين جداً بالفعل رغم أن شعبي الزولو والسوازي قد ينتجان رياضياً ناجحاً مثل العداء السوازي الكبير رتشارد كونكورد مافوسو.

كما أن البويريين بالطبع بارعون تماماً بالألعاب الرياضية. إذ أتى منهم رجال ضخام لهم أفخاذ وأعناق ثخينة كماشية البراهما. وهم لعبوا رياضة الرجبي وبدا عليهم أنهم يبرعون فيها تماماً رغم أنهم ليسوا متفوقين جداً. أما بالنسبة إليها فهي تفضل مواطني بتسونا الذين قد لا يكونون ضخاماً مثل لاعبي الرجبي أو سريعين مثل العدائين الكينيين، ولكنهم على الأقل رجال أذكياء يعتمد عليهم.

قالت للسيدة بوبيدي: "ألا تظنين ذلك، يا سيدتي؟".

فسألت السيدة بوبيدي: "ما الذي أظنه، يا سيدتي؟".

وأدركت السيدة راموتسوي أنها أشركت المرأة الأخرى بأحلام يقظتها، فاعتذرت منها.

وقالت: "لقد كنت أفكر في رجالنا".

فرفعت السيدة بوبيدي حاجبها، وقالت: "آه، حقاً، يا سيدتي؟ حسناً، سأتوخى الصدق معك وأقول إنني أفكر في رجالنا من وقت لآخر أيضاً. ليس كثيراً، ولكن أحياناً. تعلمين كيف هو الأمر".

ودعت السيدة راموتسوي السيدة بوبيدي واستأنفت سيرها. والآن، خارج محل صانع النظارات، صادفت السيد بيلاي وهو واقف ساكناً تماماً وينظر إلى السماء.

فقالت له بأدب: "طاب يومك، يا سيدي. كيف حالك؟".

فخفض السيد بيلاي نظره إليها، وقال: "يا سيدة راموتسوي، من فضلك دعيني أنظر إليك. لقد اشتريت لتوي هذه النظارة الجديدة. وأصبح يسعني أن أرى العالم بوضوح للمرة الأولى منذ سنوات. آه، يا له من شيء رائع. لقد نسيت كيف هي الرؤية بوضوح. وها أنت الآن، يا سيدتي. إنك تبدين جميلة جداً وبدينة جداً".

"شكراً لك، يا سيدي".

أنزل النظارة إلى طرف أنفه. وقال: "لطالما قالت لي زوجتي إنني بحاجة لنظارة جديدة، ولكنني كنت أخشى أن آتي إلى هنا. فأنا لا أحب تلك الآلة التي يشع منها الضوء داخل العينين ولا تلك الآلة التي تنفخ فيهما الهواء، لذا أجلت الموضوع مراراً، ولكنني كنت شديد الحماقة لفعل هذا".

قالت السيدة راموتسوي: "لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد". وفكرت كيف أجلت قضية مسؤول الحكومة.

قال السيد بيلاي: "نعم، أعلم هذا. ولكن المشكلة هي أن المرء يدرك ما هو أفضل شيء بالنسبة إليه، ورغم ذلك فهو غالباً لا يفعله".

قالت السيدة راموتسوي: "هذا محير جداً، ولكنه صحيح. فالأمر وكأن هناك شخصيتين متناقضتين داخل المرء، إحداهما تقول: افعل هذا والأخرى تقول افعل ذلك، ولكن كلا هذين الصوتين يسكن داخل المرء".

حدق السيد بيلاي بالسيدة راموتسوي، وقال: "إن الطقس حار جداً اليوم".

فاتفقت معه بالرأي وذهب كل واحد منهما للاهتمام بعمله. وقررت أنها لن تتوقف بعد الآن. فقد كادت الساعة تشير إلى الواحدة. وأرادت أن يتسنى لديها الوقت الكافي لتتعرف على السيد سيبوليلي وتجري معه تلك المحادثة التي ستستهل بها تحقيقها. تمكنت من تمييز الشجرة بسهولة. إذ

إنها قائمة على بعد مسافة قصيرة من المدخل الرئيسي إلى الوزارة. وهي شجرة أكاسيا ضخمة تتمتع بمظلة كبيرة من الأوراق تمنح دائرة واسعة من الظل على الأرض المغبرة تحتها. وبجانب جذع الشجرة مباشرة وضعت حجارة في مواقع استراتيجية وشكلت مقاعد مريحة لكل من يود أن يجلس تحت الشجرة متفرجاً على الزحام اليومي في غابورون. أما الآن، والساعة تشير إلى الواحدة إلا خمس دقائق، فما زالت الحجارة شاغرة تماماً.

اختارت السيدة راموتسوي أكبر حجر من الحجارة وجلست عليه. وكانت قد أحضرت معها إبريقاً كبيراً من الشاي وفنجانين من الألمنيوم وأربع شطائر من لحم البقر المملح معدة من شرائح سميكة من الخبز. فأخرجت أحد الفنجانين وملأته بشاي الأعشاب. ثم استندت على جذع الشجرة خلفها وراحت تنتظر. وكان أمراً ساراً أن تجلس في الظل وتراقب السيارات المارة وهي تحتسي فنجاناً كبيراً من الشاي. ولم يعرها أحد أي انتباه وكأنه من الطبيعي تماماً أن يروا تلك المرأة ذات البنية الضخمة جالسة هناك.

وبعد قليل، بلغت الساعة الواحدة وعشر دقائق. وعندما أنهت السيدة راموتسوي شرب الشاي وأوشكت أن تغفو في مكانها المريح، خرج شخص من أمام الوزارة ومشى باتجاه الشجرة. وبينما هو يقترب، هزت السيدة راموتسوي نفسها لتصحو تماماً. إذ إن وقت أداء الواجب حان الآن. فتوجب عليها أن تستغل أقصى فرصة للحديث مع السيد سيبوليلي، إن كان ذات الشخص الذي أخذ يقترب منها الآن، كما توقعت.

كان الرجل مرتدياً سروالاً أزرق مكوياً بأناقة وقميصاً أبيض بكمين قصيرين وربطة عنق بنية داكنة. وهذا هو بالضبط ما يتوقع المرء أن يبدو عليه مظهر موظف مدني ذي مرتبة دنيا. وتأكيداً على هذا التشخيص، لاحظت وجود مجموعة من الأقلام مصفوفة بأناقة في جيب قميصه. وهكذا فمن الواضح أنه يرتدي لباس موظف ذي مرتبة دنيا مع أنه في أواخر الأربعينات من عمره. وهذا يدل على أنه موظف عالق في منصبه ولم يعد يحرز أي ترقيات منذ وقت طويل.

اقترب الرجل من الشجرة بحرص. وبدا عليه، وهو يحدق بالسيدة راموتسوي، أنه يريد أن يقول شيئاً ما ولكنه لم يستطع تماماً أن يحمل نفسه على الكلام.

ابتسمت له السيدة راموتسوي وقالت: "طاب يومك، يا سيدي. إن الطقس حار اليوم، أليس كذلك؟ ولهذا السبب أنا جالسة تحت هذه الشجرة. فمن الواضح أنها مكان مريح للجلوس في الحر".

أومأ الرجل برأسه، وقال: "نعم، إنني عادة ما أجلس هنا".

تظاهرت السيدة راموتسوي بالمفاجأة، وقالت: "حقاً؟ آمل أنني لست جالسة على صخرتك، يا سيدي. فقد وجدتها هنا ولم أجد أحداً جالساً عليها".

أومأ بيده إيماءة تدل على نفاد الصبر، وقال: "صخرتي؟ نعم، في الواقع، إنها صخرتي. ولكن هذا مكان عام ويمكن لأي كان أن يجلس فيه، على ما أعتقد".

نهضت السيدة راموتسوي على قدميها، وقالت: "ولكن، يا سيدي، يجب أن تجلس على هذه الصخرة. وسوف أجلس أنا على تلك الصخرة في ذلك الجانب".

فقال بسرعة ولهجته تتغير: "كلا، يا سيدتي، إنني لا أود أن أزعجك. يمكنني أن أجلس على تلك الصخرة".

"كلا. اجلس أنت على هذه الصخرة، فهي صخرتك أنت. وأنا لم أكن لأجلس عليها لو أنني أعرف أنها صخرة شخص آخر، لذا سأجلس على تلك الصخرة. فهي صخرة جيدة أيضاً. واجلس أنت على هذه الصخرة".

فقال بحزم: "كلا، اذهبي إلى حيث كنت جالسة، يا سيدتي. يمكنني أن أجلس على تلك الصخرة في أي يوم آخر. أما أنت فلا، لذا سأجلس الآن على هذه الصخرة".

عادت السيدة راموتسوي إلى صخرتها الأصلية متظاهرة بممانعتها لذلك، بينما جلس السيد سيبوليلي على صخرته.

قالت: "إنني أشرب الشاي، يا سيدي، ولكن لدي كمية كافية لك أيضاً. أود أن أقدم لك بعضاً منه بما أنني أجلس على صخرتك".

ابتسم السيد سيبوليلي، وقال: "إنك طيبة جداً، يا سيدتي. إنني أحب الشاي وأشرب الكثير منه في مكتبي. فأنا موظف حكومي".

قالت السيدة راموتسوي: "حقاً؟ إن هذه وظيفة جيدة. لا بد أنك موظف مهم".

ضحك السيد سيبوليلي، وقال: "كلا، إنني لست مهماً على الإطلاق. فأنا موظف من مرتبة متدنية، ولكنني محظوظ بهذه الوظيفة. فهناك خريجون جامعيون يشغلون وظائف بنفس مستوى وظيفتي. أما أنا فحاصل على الشهادة الثانوية فقط. وأشعر أنني أبليت بلاء حسناً جداً".

أصغت السيدة راموتسوي إلى قوله وهي تصب الشاي. وفوجئت بما سمعته. فقد توقعت أن ترى نوعاً آخر من الأشخاص، أي موظفاً ثانوياً مغتراً بأهميته ومتلهفاً للارتقاء لمرتبة أعلى. أما هذا الرجل فهو، على العكس من ذلك، يبدو مقتنعاً تماماً بما هو عليه وبالمرتبة التي وصل إليها.

"ألن تحصل على ترقية، يا سيدي؟ أليس من الممكن أن ترتقي السلم الوظيفي؟".

فكر السيد سيبوليلي ملياً في سؤالها، وقال بعد بضع دقائق من التفكير: "أفترض أنه ممكن، ولكن المشكلة هي أنه سيتوجب علي أن أمضي الكثير من الوقت وأنا أتقي شر الموظفين المهمين، وعندئذ سيتوجب علي أن أقول الحقيقة وأكتب تقارير سيئة عن الموظفين الأدنى مرتبة مني. وليست

هذه هي الطريقة التي أود أن أتصرف بها. فأنا لست رجلاً طموحاً بل أنا سعيد فعلاً في موقعي الحالي".

ترددت يد السيدة راموتسوي وهي تناوله فنجان الشاي. فهذا ليس ما توقعته. وفجأة تذكرت نصيحة كلوفيس أندرسن التي تقول: لا تقم بأية افتراضات مسبقة. ولا تقرر سلفاً حقيقة الأشياء والأشخاص. فهذا قد يجعلك تسلك الاتجاه الخطأ.

قررت أن تعرض عليه شطيرة من الكيس البلاستيكي. فسر لذلك، ولكنه اختار أصغر شطيرة. فاعتبرت هذه دلالة أخرى على شخصيته المتواضعة. وقد كان السيد سيبوليلي الذي صورته لها مخيلتها سلفاً سيختار أكبر شطيرة بدون تردد.

سألته ببراءة: "ألديك عائلة في غابورون، يا سيدي؟".

أنهى السيد سيبوليلي لقمة من شطيرة اللحم المملح قبل أن يجيبها قائلاً: "لدي ثلاث بنات، اثنتان منهن ممرضتان، إحداهما في "مستشفى الأميرة مارينا" والأخرى في مولبولول. وهناك ابنتي البكر التي أبلت بلاء حسناً جداً في المدرسة ثم التحقت بالجامعة. ونحن فخورون بها جداً".

سألت السيدة راموتسوي وهي تقدم له شطيرة أخرى: "أتعيش ابنتك في غابورون؟".

أجاب قائلاً: "كلا، إنها تعيش في مكان آخر. فهي متزوجة من شاب قابلته وهي تدرس. وهما يعيشان في ذلك الاتجاه".

قالت السيدة راموتسوي: "وماذا عن صهرك؟ هل هو طيب معها؟".

قال السيد سيبوليلي: "نعم، إنه رجل صالح جداً. وهما بغاية السعادة. وآمل أن ينجبا الكثير من الأطفال. فأنا أتمنى من كل قلبي أن أصبح جداً".

فكرت السيدة راموتسوي للحظة. ثم قالت: "لا بد أن أكثر ما يتمناه المرء عندما يتزوج أطفاله هو أن يتمكنوا من العناية به عندما يصبح مسناً".

ابتسم السيد سيبوليلي: "حسناً، هذا صحيح على الأرجح. ولكنني وضعت وزوجتي مخططات مختلفة. فنحن ننوي الذهاب إلى ماهالابي. إذ إنني أملك عدداً قليلاً من الماشية هناك، بالإضافة إلى بعض الأراضي. سنذهب ونعيش بسعادة هناك. فهذا هو كل ما نريده".

التزمت السيدة راموتسوي الصمت. فهذا الرجل، الذي يبدو صالحاً بشكل جلي، يقول الحقيقة. وبدا لها شكها بوقوفه وراء خطة قتل صهره استنتاجاً سخيفاً لأن تتوصل إليه. وشعرت أنها خجلة من نفسها تماماً. فعرضت عليه فنجاناً آخر من الشاي لتخفي ارتباكها. فقبله هو بكل امتنان. ثم نهضت بعد خمس عشرة دقيقة أمضياها في تجاذب أطراف الحديث عن أمور عادية. فنفضت فستانها وشكرته على مشاركتها ساعة غدائه. وهكذا، اكتشفت ما أرادت أن تعرفه، عنه هو على الأقل. ولكن لقاءها مع الوالد ألقى ببعض الشكوك على ظنونها حول الابنة. فإن كانت الابنة شبيهة

بأبيها، فمن غير المرجح لها أن تدس السم لأحد. ومن غير المحتمل لرجل طيب متواضع كهذا أن يربي فتاة ترتكب فعلة من هذا القبيل. أم أنه كذلك؟ فمن الممكن دائماً أن تنبت ذرية طالحة من صلب والدين صالحين. ولا يتطلب الأمر من الإنسان خبرة كبيرة بالحياة ليدرك هذا. ومع ذلك، ففي نفس الوقت، يبدو هذا من غير المحتمل. وهذا يعني أن المرحلة التالية من التحقيق ستتطلب ذهناً أكثر تفتحاً من المرحلة الأولى.

قالت السيدة راموتسوي لنفسها وهي تسير عائدة إلى سيارة الفان البيضاء الصغيرة: لقد تعلمت اليوم درساً. وظلت مستغرقة في التفكير. فكادت ألا تلاحظ السيد بيلاي وهو لا يزال واقفاً خارج متجر بائع النظارات يحدق بأغصان الشجرة فوق رأسه.

علق وهي تمر من أمامه قائلاً: "لقد كنت أفكر في ما قلته لي، يا سيدتي. فهي ملاحظة تتطلب بعض التفكير".

قالت السيدة راموتسوي وهي مندهشة بعض الشيء: "نعم، ولكنني أخشى أنني لا أعرف الإجابة. إنني ببساطة لا أعرفها".

هز السيد بيلاي رأسه، وقال: "إذاً يجب علينا أن نفكر فيها ملياً".

فقالت السيدة راموتسوي: "نعم، يجب علينا ذلك".

الفصل الحادي عشر

السيدة بوتوكوين تصنع معروفاً

كان مسؤول الحكومة قد أعطى السيدة راموتسوي رقم هاتف يمكنها أن تستخدمه في أي وقت وتتملص من سكرتيراته ومساعديه. فجربت الرقم للمرة الأولى عصر ذلك اليوم وتمكنت من الاتصال بزبونها بشكل مباشر. فبدا مسروراً لمكالمتها وعبر عن سعادته لبدء التحقيق.

قالت السيدة راموتسوي: "إنني أود أن أذهب إلى المنزل في الأسبوع القادم. هل اتصلت بوالدك؟".

قال مسؤول الحكومة: "لقد فعلت ذلك. فأخبرته أنك قادمة لتنالي قسطاً من الراحة. وقلت له إنك أحرزت الكثير من الأصوات لصالحي من بين النساء ويجب علي أن أرد لك الدين. فستحظين بعناية جيدة هناك".

اتفقا على التفاصيل. وأعطى مسؤول الحكومة السيدة راموتسوي عنوان المزرعة التي تقع خارج طريق فرانسيستاون شمال بيلين.

قال مسؤول الحكومة: "إنني واثق أنك ستعثرين على دليل يثبت سوء طويتها. وعندئذ يمكننا أن ننقذ أخي المسكين".

شعرت السيدة راموتسوي بالالتباس، فقالت: "سنرى. لا يمكنني أن أضمن أي شيء. إذ يجب عليّ أن أتحقق من الأمر".

قال مسؤول الحكومة بسرعة: "بالطبع، ولكنني أثق ثقة تامة بقدرتك على اكتشاف حقيقة ما يجري. وأنا على يقين من أنك ستعثرين على دليل ضد تلك المرأة الشريرة. لنأمل فقط أن تصلي في الوقت المناسب".

بعد المكالمة الهاتفية، جلست السيدة راموتسوي إلى مكتبها تحدق بالجدار. فقد اقتطعت لتوها أسبوعاً كاملاً من يومياتها. وهذا يعني أن المهمات الأخرى في لائحتها قد أجلت إلى أجل غير مسمى. ولكن لم يتوجب عليها على الأقل أن تقلق بشأن الكراج في الوقت الحاضر ولا أن تقلق بشأن الاستفسارات التي ترد إلى الوكالة أيضاً. فالسيدة ماكوتسي مؤهلة تماماً لإنجاز ذلك كله. أما إن كانت تحت إحدى السيارات في ذلك الوقت، وهذا ما بدأ حدوثه يزداد في أغلب الأحيان، فقد تعلم المتدربان أن يجيبا على الهاتف نيابة عنها.

ولكن ماذا عن السيد جي إل بي ميتكوني؟ لقد ظلت هذه القضية الصعبة دون حل. فأدركت أنه يجب عليها أن تفعل شيئاً سريعاً حيالها. وكانت قد أنهت قراءة الكتاب المتعلق بالكآبة وشعرت

أنها أصبحت الآن أكثر ثقة في التعامل مع هذه الأعراض المحيرة، ولكنها اكتشفت أن ذلك المرض ينطوي على خطر قيام المريض بتصرف متهور فعلاً. إذ وضّح الكتاب هذه النقطة وضوحاً تاماً. فساورها قلق من أن يندفع السيد جي إل بي ميتكوني لارتكاب أعمال متهورة بسبب شعوره بالدناءة وقلة التقدير الذاتي. وهكذا توجب عليها أن توصله إلى الدكتور موفات بطريقة ما ومن هناك يبدأ العلاج. ولكنها عندما قالت له إنه يجب عليه أن يراجع طبيباً، رفض ذلك ببرود. وإن هي كررت المحاولة، فقد تسمع منه نفس الإجابة على أغلب تقدير.

تساءلت عن وجود طريقة تجعله بواسطتها يأخذ الحبوب بالخدعة رغم أنها لم تحب فكرة استخدام الطرق الماكرة مع السيد جي إل بي ميتكوني، ولكن عندما يكون تفكير شخص ما مشوشاً، فأية طريقة تعتبر مبررة في علاجه. فالأمر أشبه بشخص اختطف على يد كائن شرير طلب فدية لقاء إطلاق سراحه. فالمرء في هذه الحالة لن يتردد باللجوء للخديعة لهزم الكائن الشرير. ومن وجهة نظرها، يعتبر هذا الأسلوب منسجماً تماماً مع أخلاقيات بتسوانا القديمة أو مع أي أخلاقيات أخرى.

تساءلت إن كان يسعها أن تخفي الحبوب في طعامه. وربما يكون هذا ممكناً بالنسبة إليها إن تواجدت أثناء تناوله كل وجباته، ولكنها غير موجودة، ولا سيما بعد أن توقف عن المجيء إلى منزلها لتناول وجبته المسائية، كما أن الأمر سيبدو غريباً جداً إن دخلت منزله فجأة لتقدم له الطعام. على أي حال، فقد شكت أنه لم يعد يأكل كثيراً في حالته الكئيبة تلك. إذ بدا عليه أنه يخسر وزناً بشكل ملحوظ تماماً. وقد حذر الكتاب من هذا. وهكذا يصبح من المستحيل إذاً أن تعطيه الدواء بهذه الطريقة حتى لو قررت أن هذا هو الشيء الأنسب لتفعله.

تنهدت بحيرة. ولم يكن من عادتها أن تجلس وتحدق بالجدار هكذا. وللحظة جال بخاطرها أنها قد تصاب بالكآبة أيضاً. ولكنها سرعان ما صرفت تلك الفكرة عن ذهنها. فمن غير الوارد على الإطلاق بالنسبة إلى السيدة راموتسوي أن تمرض. إذ إن كل شيء يعول عليها: كالكراج، والوكالة، والطفلان، والسيد جي إل بي ميتكوني، والسيدة ماكوتسي، ناهيك عن أقارب السيدة ماكوتسي في بوبونونغ. إنها ببساطة لا تملك وقتاً فائضاً عن حاجتها للمرض، لذا نهضت على قدميها وعدلت فستانها واتجهت إلى الهاتف في الجانب الآخر من الغرفة. ثم أخذت الكتاب الصغير الذي سجلت فيه أرقام الهواتف. وأخرجت رقم السيدة سيلفيا بوتوكوين في مزرعة الأيتام.

عندما وصلت السيدة راموتسوي إلى مزرعة الأيتام، وجدت السيدة بوتوكوين تستضيف امرأة تريد أن تصبح أماً بالرعاية. فراقبت السيدة راموتسوي وهي جالسة في غرفة الانتظار ضباً (أبابريْص) صغيراً شاحباً يطارد خلسة ذبابة على السقف فوق رأسها. وكان كل من الضب والذبابة مقلوبين رأساً على عقب. وفجأة اندفع الضب إلى الأمام، ولكن حركته ظلت بطيئة فوق الحد بالنسبة إلى الذبابة التي انطلقت في تحليق ظافر قبل أن تستقر على عتبة النافذة.

انتقلت السيدة راموتسوي لتصفح المجلات المنتثرة على الطاولة ووجدت بينها نشرة حكومية تحوي صوراً لمسؤولين كبار. فنظرت إلى الوجوه وتعرفت على بعضها. وكانت تعرف عن بعض الشخصيات أكثر مما ينشر عنها في النشرات الحكومية. ثم رأت وجه مسؤول الحكومة نفسه يبتسم بثقة أمام الكاميرا بينما ينهشه القلق طوال الوقت على أخيه الأصغر وهو يتخيل مؤامرات تحاك ضد حياته.

"يا سيدة راموتسوي؟".

اصطحبت السيدة بوتوكوين الأم بالرعاية خارج المكتب. ووقفت الآن وهي تنظر إلى السيدة راموتسوي، ثم قالت: "إنني آسفة أنني جعلتك تنتظرين، يا سيدتي، ولكنني أعتقد أنني عثرت على بيت يرعى صبياً صعباً جداً. وقد توجب علي أن أتأكد من أن تلك المرأة مناسبة للمهمة".

دخلتا إلى غرفة المديرة حيث دلَّ طبق يحوي بعض الفتات على وجبة كعك الفاكهة الأخيرة.

سألت السيدة بوتوكوين: "هل أتيت من أجل الصبي؟ لا بد أن فكرة قد خطرت ببالك".

هزت السيدة راموتسوي رأسها، وقالت: "إنني آسفة، يا سيدتي. إذ لم يتسنَّ لي وقت لأفكر في ذلك الصبي. فقد كنت مشغولة جداً بأمور أخرى".

ابتسمت السيدة بوتوكوين: "إنك امرأة دائمة الانشغال".

قالت السيدة راموتسوي: "لقد أتيت لأطلب منك معروفاً".

فابتسمت السيدة بوتوكوين سعادة، وقالت: "إنني عادة من أطلب معروفاً من الناس. والآن اختلف الوضع، ولكنني مسرورة لذلك".

شرحت لها السيدة راموتسوي قائلة: "إن السيد جي إل بي ميتكوني مريض. وأظن أنه مصاب بمرض يدعى الكآبة".

قاطعتها السيدة بوتوكوين قائلة: "يا الله! إنني أعرف كل شيء عن هذا المرض. تذكري أنني كنت أعمل ممرضة. فقد قضيت عاماً وأنا أعمل في مستشفى الأمراض العقلية في لوبيتس ورأيت ما يمكن لذلك المرض أن يسببه، ولكنه على الأقل قابل للشفاء في أيامنا هذا".

قالت السيدة راموتسوي: "لقد قرأت عن هذا الموضوع، ولكن يجب على المريض أن يتعاطى الأدوية ليشفى. والسيد جي إل بي ميتكوني يرفض حتى أن يعاينه الطبيب. فهو يقول إنه ليس مريضاً".

قالت السيدة بوتوكوين: "هذا هراء! ينبغي عليه أن يذهب إلى الطبيب في الحال. ويجب عليك أن تأمريه بهذا".

قالت السيدة راموتسوي: "لقد حاولت هذا. فقال إنه لا يعاني من أي خطب. ولهذا فأنا بحاجة لشخص ما يأخذه إلى الطبيب. شخص مثل..."

قاطعتها السيدة بوتوكوين قائلة: "شخص مثلي أنا؟".

فقالت السيدة راموتسوي: "نعم، فلطالما فعل ما تطلبينه منه. فهو لا يجرؤ أن يرفض لك طلباً".

قالت السيدة بوتوكوين: "ولكن سيتوجب عليه أن يأخذ الأدوية. ولن أكون موجودة لأشرف عليه".

فقالت السيدة راموتسوي متأملة: "حسناً. إن أحضرته إلى هنا، يمكنك أن تعتني به وأن تحرصي على أن يأخذ الأدوية ليتحسن".

"أتعنين أن أحضره إلى هنا في مزرعة الأيتام؟".

فقالت السيدة راموتسوي: "نعم، أحضريه إلى هنا إلى أن يتحسن".

نقرت السيدة بوتوكوين على مكتبها، وقالت: "وماذا إن قال إنه لا يريد أن يأتي؟".

قالت السيدة راموتسوي: "لن يجرؤ أن يعارضك، يا سيدتي. فسوف يخاف كثيراً".

فقالت السيدة بوتوكوين: "هل أنا مخيفة إلى هذا الحد؟".

قالت السيدة راموتسوي بلطف: "قليلاً، ولكن بالنسبة إلى الرجال فقط. فالرجال يحترمون المديرات".

فكرت السيدة بوتوكوين للحظة. ثم تكلمت قائلة: "لطالما كان السيد جي إل بي ميتكوني صديقاً طيباً لمزرعة الأيتام. وقد أنجز الكثير من الأعمال الرائعة لنا، ولهذا فأنا على أتم الاستعداد لأفعل هذا من أجلك، يا سيدتي. متى أذهب لرؤيته؟".

فقالت السيدة راموتسوي: "اليوم. خذيه إلى الدكتور موفات ثم أعيديه إلى هنا".

قالت السيدة بوتوكوين وقد تحمست لمهمتها: "حسن جداً. سوف أذهب وأكتشف كل ذلك الهراء. لا يريد أن يذهب إلى الطبيب! ما هذا الكلام الفارغ؟ سوف أحل هذه المشكلة من أجلك، يا سيدتي. ثقي بي وحسب".

اصطحبت السيدة بوتوكوين السيدة راموتسوي إلى سيارتها.

ثم سألتها قائلة: "إنك لن تنسي أمر الصبي، أليس كذلك، يا سيدتي؟ ستتذكرين أن تفكري بأمره، هل هذا صحيح؟".

فأجابت: "لا تقلقي، يا سيدتي. لقد أزحت عبئاً ثقيلاً عن كاهلي. والآن سأحاول أن أزيح عنك أحد أعبائك".

قابل الدكتور موفات السيد جي إل بي ميتكوني في مكتبه في آخر الشرفة بينما شربت السيدة بوتوكوين فنجاناً من الشاي مع السيدة موفات في المطبخ. وكانت زوجة الطبيب، التي تعمل أمينة مكتبة، تعرف الكثير. فكانت السيدة بوتوكوين تستشيرها من أجل الحصول على بعض المعلومات. وكان الوقت مساء. فراحت الحشرات التي اخترقت ستارة الذباب في مكتب الطبيب تحوم حول

مصباح المكتب وتلقي بنفسها على الظل ثم ترفرف بجناحيها المصابين بعيداً بعد أن لسعتها الحرارة. وعلى المكتب وضع الطبيب مسماعاً ومقياساً للضغط وكرته المطاطية متدلية من الحافة. وعلى الجدار عُلق نقش قديم "لبعثة كورومان التبشيرية" في أوساط القرن التاسع عشر.

قال الدكتور موفات: "لم أرك منذ فترة من الوقت، يا سيدي. إن سيارتي تتصرّف تصرفاً حسناً".

بدأ السيد جي إل بي ميتكوني يبتسم، ولكنه فشل في المحاولة على ما يبدو. ثم قال: "إنني لم أكن..." وانقطع عن الكلام. فانتظر الدكتور موفات، ولكنه لم يسمع منه أي كلام إضافي.

"لم تكن تشعر أنك على ما يرام، أليس كذلك؟".

أومأ السيد جي إل بي ميتكوني برأسه، وقال: "إنني متعب جداً والنوم يجافيني".

"هذا صعب جداً. فإن لم ينم الإنسان، شعر بحال سيئة جداً". وتوقف ثم قال: "هل يوجد ما يزعجك؟ هل هناك أمور معينة تقلقك؟".

فكر السيد جي إل بي ميتكوني. وتحرك فكاه وكأنه يحاول أن يلفظ كلمات مستحيلة. ثم أجاب: "إن ما يقلقني هو أن أموراً سيئة ارتكبتها قبل وقت طويل ستنكشف في نهاية المطاف. وعندئذ سأتعرض لخزي كبير وسيرجمني الناس بالحجارة. وهذه ستكون نهايتي".

"وهذه الأمور السيئة، ما هي؟ يمكنك أن تتحدث إلي عنها ولن أخبر أحداً".

"إنها أمور سيئة فعلتها قبل وقت طويل. وهي سيئة جداً لدرجة أنني لا أستطيع أن أتحدث عنها لأحد ولا حتى أنت".

"أهذا هو كل ما تريد أن تخبرني به عنها؟".

"نعم".

راقب الدكتور موفات السيد جي إل بي ميتكوني ولاحظ ياقته المثبتة في الزر الخطأ وحذاءه المربوط بشريط مكسور وعينيه اللتين تكادان تفيضان بالدموع لفرط الأسى. فأدرك كل شيء عن حالته.

وقال: "سوف أعطيك بعض الدواء ليساعد في شفائك. تقول السيدة بوتوكوين إنها ستعتني بك وأنت في طور التحسن".

فأومأ السيد جي إل بي ميتكوني برأسه بفتور.

تابع الدكتور موفات كلامه قائلاً: "ولكنك ستعدني أنك ستأخذ هذا الدواء. هل تعدني وعد شرف أنك ستفعل هذا؟".

لم يتحرك نظر السيد جي إل بي ميتكوني المثبت على الأرض. وقال بهدوء: "إن وعودي لا تساوي شيئاً".

فقال الدكتور موفات: "إن من يكلمني الآن هو المريض، ولكن وعودك في حقيقة الأمر تساوي الكثير".

أرشدته السيدة بوتوكوين إلى سيارتها وفتحت له الباب. ونظرت إلى الدكتور موفات وزوجته الواقفين عند البوابة ولوحت لهما. فلوحا لها قبل أن يدخلا إلى منزلهما. ثم انطلقت عائدة إلى مزرعة الأيتام مروراً بكراج تلوكوينغ رود سبيدي موتورز. ولم يحظَ الكراج، وهو يبدو في الظلام مهجوراً ومتروكاً، بنظرة واحدة من صاحبه ومؤسسه وهو يمر به.

الفصل الثاني عشر

شؤون عائلية

غادرت السيدة راموتسوي في نسيم الصباح العليل رغم أن الرحلة لا تستغرق أكثر من ساعة. وكانت روز قد أعدت الإفطار. فجلست لتناوله مع الطفلين في شرفة منزلها في زيبرا درايف. وكان ذلك وقتاً هادئاً تمر فيه سيارات قليلة في الطريق إلى أن يبدأ الناس بالذهاب إلى أعمالهم في الساعة السابعة. وكان هناك عدد قليل من الناس يمشون في الشارع، منهم رجل طويل يرتدي سروالاً مهلهلاً ويأكل كوز ذرة متفحماً بالنار، وامرأة تحمل طفلاً مربوطاً إلى ظهرها بشال ورأس الطفل يومئ وهو يغفو، وأحد كلبي جيرانها الهزيلين الضعيفي التغذية ينسل خلسة وهو منهمك بعمل غامض ولكنه هادف تماماً. كانت السيدة راموتسوي تتحمل وجود الكلاب، ولكنها تكره من صميم قلبها تلك المخلوقات الصفراء الكريهة الرائحة التي تعيش في الجوار. إذ إن عواءها ليلاً، عندما تنبح على الظلال والقمر وهبات الرياح، يزعجها. وكانت واثقة من أنها تحول دون قدوم الطيور، التي تحبها فعلاً، إلى حديقتها. ويحوي كل منزل في الجوار، باستثناء منزلها، نصيبه من الكلاب. وبين الحين والآخر تتغلب تلك الكلاب على تقييدات الولاء المفروض عليها، فترقى فوق عدائها المتبادل وتمشي إلى آخر الشارع في زمرة واحدة لتطارد السيارات وتثير الفزع في نفوس راكبي الدراجات الهوائية.

صبت السيدة راموتسوي شاي الأعشاب لنفسها وموثوليلي بينما رفض بوسو أن يعتاد على شرب الشاي. فشرب كوباً من الحليب الدافئ وضعت فيه السيدة راموتسوي ملعقتين كبيرتين من السكر. وكان الصبي يحب الطعام الحلو ربما كنتيجة للأطعمة الحلوة التي غذته بها أخته عندما اعتنت به في باحة ذلك المنزل في فرانسيستاون. فأرادت أن تعوده على تناول أطعمة صحية أكثر، ولكن ذلك التغيير يتطلب صبراً. وكانت روز قد أعدت لهم العصيدة وصبتها في زبادي ووضعت بعض دبس السكر على سطحها، ثم وضعت بعض قطع ثمار البابايا على طبق. فاعتقدت السيدة راموتسوي أن هذا يشكل فطوراً صحياً للأطفال. ترى ما الذي كان هذان الطفلان سيأكلانه لو أنهما مكثا مع عائلتهما؟ إن أولئك الناس يقتاتون بطعام شحيح يقتصر على الجذور المقتلعة من الأرض واليرقات وبيض الطيور، ولكنهم يبرعون بالصيد أكثر من أي شخص آخر. فيتناولون أحياناً لحم النعام والظباء الذي نادراً ما يتحمل سكان المدن تكلفة شرائه.

تذكرت كيف توقفت ذات مرة، وهي مسافرة إلى الشمال، بجانب الطريق لتستمتع بشرب إبريق من الشاي. وكان المكان الذي توقفت فيه عبارة عن فسحة خالية من الأشجار بجانب الطريق الذي

تشير فيه لافتة معطوبة إلى أن المرء يعبر الآن مدار الجدي. وظنت نفسها وحدها ثم فوجئت عندما خرج من خلف إحدى الأشجار رجل من البساروا أو أحد الصيادين، كما يدعوهم الناس. وكان يرتدي مئزرا جلدياً ويحمل حقيبة جلدية من نوع ما. ثم اقترب منها وهو يصفر بتلك اللغة الغريبة التي يتحدثون بها. وللحظة، أصابها الخوف رغم أن حجمها يبلغ ضعف حجمه. إذ إن أولئك الناس مسلحون بالسهام والسموم وهم عادة سريعون كالبرق.

وقفت على قدميها وتهيأت للتخلي عن إبريق الشاي واللجوء للأمان في سيارة الفان البيضاء الصغيرة، ولكنه قام بمجرد الإشارة إلى فمه في توسل. ففهمت السيدة راموتسوي ما يرمي إليه وناولته فنجانها، ولكنه أشار إلى أن ما يريده هو الطعام وليس الشراب. ولكن كل ما توفر بحوزة السيدة راموتسوي كان شطيرتين من البيض أخذهما بجشع عندما قدمتهما له وأكلهما بنهم. وعندما فرغ من الأكل لعق أصابعه واستدار ليغادر. فراقبته وهو يتوارى في القفر ويمتزج معه كما يفعل أي حيوان بري. وتساءلت كيف بدت له شطيرة البيض وفيما إذا كان قد وجد طعمها ألذ مما تزوده به صحراء كالاهاري من القوارض والجذور.

إن الطفلين منتميان لذلك العالم، ولكن ليس هناك مجال للعودة إليه. فتلك حياة لا يمكن للمرء ببساطة أن يعود إليها بعد أن تركها لأن ما اعتبره مسلماً به في الماضي أصبح يشق على نفسه بعد أن نسي المهارات التي كان يجيدها. فأصبح مكان الطفلين الآن مع روز والسيدة راموتسوي في منزلها في زيبرا درايف.

شرحت لهما عند تناول الإفطار قائلة: "سأغيب لأربعة أو خمسة أيام. فسوف تعتني بكما روز في غيابي وستكونان على ما يرام".

قالت موثوليلي: "لا بأس بهذا. وسوف أساعدها".

ابتسمت لها السيدة راموتسوي مشجعة. لقد ربت تلك الفتاة أخاها. فلا بد أن من طبيعتها أن تساعد من هم أصغر منها سناً. وفكرت السيدة راموتسوي أنها ستصبح أماً رائعة في المستقبل، ولكنها عندئذ تذكرت وضعها الصحي. ترى أيمكن لها أن تصبح أماً وهي مقعدة؟ إن من المستحيل بالنسبة إليها على الأرجح أن تحمل طفلاً وهي عاجزة عن المشي. ولم تكن واثقة حتى من وجود أي رجل قد يرغب بالزواج من امرأة مقعدة. إن هذا مصير مجحف جداً، ولكن المرء لا يستطيع أن يغض طرفه عن الحقيقة. فمن المؤكد أن ظروف الحياة ستكون أكثر قسوة بالنسبة إلى تلك الفتاة. وبالطبع هناك رجال قد لا يعيرون اهتماماً لحالة تلك الفتاة ويرغبون بالزواج منها لأجل شخصيتها الراقية الشجاعة، ولكن رجالاً كهؤلاء نادرو الوجود وواجهت السيدة راموتسوي صعوبة في التفكير بالعديد منهم، ولكنها قد تكون مخطئة. فهناك السيد جي إل بي ميتكوني، وهو رجل صالح جداً حتى لو أصبح سلوكه غريباً بعض الشيء بشكل مؤقت، وهناك الأسقف، وهناك سير سيريتس

خاما، رجل الدولة وزعيمها الأعلى، وهناك الدكتور ميريويذر الذي يدير المستشفى الاسكتلندي في مولبولول، وهناك آخرون ليسوا معروفين كثيراً، منهم السيد بوتولاني الذي ساعد عدداً كبيراً من الفقراء ومنح الكثير من المال الذي جناه من متاجره، والرجل الذي صلح سقف منزلها ودراجة روز بلا مقابل عندما رأى أنها بحاجة للتصليح. إن هناك رجالاً صالحين كثر في الواقع. وربما تصادف موثوليلي رجلاً صالحاً يتزوجها. فهذا ممكن جداً.

هذا كله بالطبع إن أرادت هي أن تعثر على زوج. فمن الممكن لها تماماً أن تعيش حياتها بسعادة بدون زوج أو على الأقل أن تعيش حياة سعيدة نسبياً. فهي نفسها عاشت حياة سعيدة وهي عازبة، ولكنها بالمقارنة مع ذلك اعتبرت أن من الأفضل لها أن تتزوج. وأصبحت تتطلع قدماً لليوم الذي ستحرص فيه على أن ينال السيد جي إل بي ميتكوني تغذية جيدة. وتلهفت على اليوم الذي سينهض فيه السيد جي إل بي ميتكوني بدلاً منها، إن سمعت صوت ضجة، كما يحدث غالباً في هذه الأيام، ليتحرى الأمر. إن المرء يحتاج فعلاً إلى وجود شخص آخر في حياته ليبجله ويحترمه سواء أكان زوجاً أو زوجة أو طفلاً أو والداً أو والدة أو أي شخص آخر. فلا بد من وجود شخص يمنح حياة المرء هدفاً يعيش من أجله. ولطالما كان لديها والدها السيد أوبيد راموتسوي المزارع والرجل النبيل. فحققت سعادة كبيرة من العمل على خدمته. وما زال يسرها أن تقوم ببعض الأشياء إحياء لذكراه، ولكن ذكرى الوالد أصبحت بعيدة جداً.

بالطبع، هناك أشخاص يقولون إن هذه الأمور لا تتطلب من المرء الزواج. وهم محقون في قولهم هذا إلى حد ما. فليس على المرء أن يتزوج ليحظى بشخص ما في حياته، ولكنه لا يحظى عندئذ بضمان استمرار العلاقة. كما أن الزواج نفسه لا يمنح هذا، ولكن الزوجين يعقدان زواجهما بنية إقامة علاقة تدوم مدى الحياة. وحتى لو برهنا أنهما مخطئان، فقيامهما بالتجربة أمر كافٍ. لم تكن السيدة راموتسوي تتفق في الرأي مع من ينتقدون الزواج. لقد كان الزواج في الأزمنة القديمة فخاً تقع فيه النساء لأنه يمنح معظم الحقوق للرجال ويجبر النساء على أداء معظم الواجبات. ويتصف الزواج القبلي بهذه الصفات رغم أن النساء ينلن الاحترام والمكانة عندما يتقدمن في السن وخاصة إن أنجبن أبناء ذكوراً. ولم تكن السيدة راموتسوي تؤيد أياً من هذه العادات. واعتقدت أن الفكرة الحديثة للزواج، والتي من المُعيَّن لها أن تربط بين شخصين متساويين، هي أمر مختلف تماماً بالنسبة إلى النساء. لكن النساء ارتكبن من وجهة نظرها خطأً كبيراً عندما سمحن لأنفسهن أن يتخلين عن إيمانهن بالزواج. فبعض النساء اعتقدن أن هذا يحررهن من طغيان الرجال. وهو اعتقاد صحيح إلى حد ما، ولكنه منح الرجال الفرصة للتصرف بأنانية تامة. فإن قيل للرجل إنه يستطيع أن يبقى مع امرأة واحدة إلى أن يسأم منها ثم ينتقل بسهولة إلى امرأة أصغر سناً دون أن يتهمه أحد

بسوء التصرف لأنه لا يرتكب الزنا وليس هناك أي خطأ في ما يفعله، فهذا الوضع سيناسبه تماماً في حقيقة الأمر.

سألت السيدة راموتسوي السيدة ماكوتسي في أحد الأيام وهما جالستان في مكتبهما بانتظار قدوم أحد الزبائن: "من الذي يعاني أكبر معاناة في هذه الأيام؟ ألسن هن النساء اللواتي يهجرهن أزواجهن ويرحلون مع فتيات أصغر سناً؟ أليس هذا هو ما يحدث؟ إن الرجل يبلغ الخامسة والأربعين فيقرر أنه قد نال كفايته ويرحل مع فتاة صغيرة السن".

قالت السيدة ماكوتسي: "إنك محقة، يا سيدتي. إن نساء بتسوانا هن من يعانين وليس الرجال. فالرجال سعداء جداً. وقد رأيت هذا بأم عيني. رأيته في كلية بتسوانا للسكرتاريا".

انتظرت السيدة راموتسوي سماع المزيد من التفاصيل.

فتابعت السيدة ماكوتسي قائلة: "كانت هناك فتيات متألقات في الكلية، ولكنهن لا يبلين حسناً في الدراسة بل يحرزن درجة الخمسين بالمائة أو أكثر بقليل. وقد اعتدن على الخروج ثلاث أو أربع ليالٍ في الأسبوع حيث تقابل الكثيرات منهن رجالاً أكبر منهن سناً يملكون مالاً وسيارات أنيقة. فلم تكن تلك الفتيات يأبهن أن أولئك الرجال متزوجون. فكن يخرجن معهم ويراقصنهم في الحانات. وماذا يحدث بعدها، يا سيدتي؟".

هزت السيدة راموتسوي، وقالت: "يمكنني أن أتخيل هذا!"

خلعت السيدة ماكوتسي نظارتها ولمعتها بطرف بلوزتها، وقالت: "تطلب الفتيات من أولئك الرجال أن يهجروا زوجاتهم. فيعتبر الرجال هذه فكرة حسنة ويرحلون مع أولئك الفتيات. وهكذا، يصبح هناك عدد كبير من النساء التعيسات اللواتي لن يتمكن الآن من الحصول على رجال آخرين لأن الرجال يسعون وراء الفتيات الشابات المتألقات ولا يهتمون بالنساء الكبيرات. هذا هو ما رأيته يحدث، يا سيدتي. ويمكنني أن أعطيك لائحة كاملة بأسمائهن".

قالت السيدة راموتسوي: "لا يجب عليك فعل ذلك. إذ لدي لائحة طويلة جداً من السيدات التعيسات".

تابعت السيدة ماكوتسي: "كم رجلاً تعيساً تعرفين؟ كم عدد الرجال الذين يجلسون في البيوت ويفكرون في ما سيفعلونه الآن بعد أن هجرتهم زوجاتهم سعياً وراء رجال أصغر سناً. كم عددهم، يا سيدتي؟".

أجابت السيدة راموتسوي: "ولا واحد".

قالت السيدة ماكوتسي: "ها نحن ذا. لقد خُدعت النساء. لقد خدعونا، يا سيدتي. فوقعنا في فخهم كما تقع فيه الماشية تماماً".

أسرع الطفلان إلى المدرسة. فحزمت السيدة راموتسوي حقيبتها البنية الصغيرة وانطلقت إلى خارج البلدة مروراً بمصانع المشروب المفضل والمصانع الجديدة والضاحية الجديدة التي بنيت بكلفة متدنية وبيوتها الصغيرة مصفوفة على طول خط السكة الحديدية الذي يؤدي إلى فرانسيستاون وبولاويو والطريق الذي يقودها إلى المكان المضطرب، وهو وجهتها. كانت أوائل الأمطار قد هطلت. فبدأ المرج الظامئ البني يكتسي باللون الأخضر ويمنح عشباً نضراً للماشية ولقطعان الماعز المتجولة. ولم تكن سيارة الفان البيضاء الصغيرة تحوي جهاز راديو، أو جهاز راديو يعمل على الأقل، ولكن السيدة راموتسوي كانت تحفظ أغنيات يمكنها أن تغنيها. فراحت تغني والنافذة مفتوحة وهواء الصباح العليل يملأ رئتيها والطيور تحلق وريشها يلمع وفوقها سماء خالية تمتد لأميال وأميال بلونها الأزرق الباهت.

تملكها القلق حيال مهمتها ولا سيما ما هي على وشك أن تفعله. فقد شعرت أنه يشكل خرقاً لأساسات ومبادئ حسن الضيافة. إذ إن المرء لا يدخل بيتاً ما بصفته كضيف تحت هوية مزيفة، وهذا هو بالضبط ما ستفعله. إنها بكل تأكيد ضيفة الأب والأم، ولكنهما لا يعرفان الهدف الحقيقي الكامن وراء زيارتها. فقد كانا يستقبلانها على أنها الشخص الذي يدين له ابنهما بخدمة، في حين أنها في واقع الأمر جاسوسة. إنها جاسوسة تسعى وراء هدف نبيل، ولكن هذا لا يغير من حقيقة أن هدفها يتمثل في اختراق حياة العائلة الخاصة والكشف عن سر من أسرارها.

والآن، وبينما هي في سيارة الفان البيضاء الصغيرة، قررت أن تضع الشكوك الأخلاقية جانباً. فهذا وضع من تلك الأوضاع التي يجب على المرء أن يتخذ فيها رأياً صارماً في كلا الجانبين. فقررت أن تؤدي المهمة لأنه من الأفضل أن تكذب على أن تعرض حياة إنسان للخطر. وهكذا، ينبغي عليها الآن أن تضع الشكوك جانباً وتسعى وراء هدفها بإخلاص. فليس هناك ما يدعوها للندم على قرار اتخذته، سواء أكان صحيحاً أم لا. وبالإضافة لذلك، فإن الشكوك الأخلاقية قد تمنعها من لعب دورها بقناعة تامة، مما سيظهر عليها ويفضح أمرها. وسيكون هذا أشبه بممثل يشكك في الدور الذي يمثله أثناء العرض المسرحي.

مرت برجل يسوق عربة يجرها بغل ولوحت له. فرفع يده عن الرسن ولوح لها كما فعل الركاب في عربته، وهما امرأتان مسنتان وامرأة أصغر سناً وطفل. فظنت السيدة راموتسوي أنهم متأخرون قليلاً. إذ توجب عليهم أن يحرثوا الأرض عندما هطلت أول الأمطار، ولكنهم سيبذرون بذورهم في الوقت المناسب ويحصدون الذرة والبطيخ والفول بحلول وقت الحصاد. ورأت بضعة أكياس على العربة. فربما تحوي هذه الأكياس البذور وطعام العائلة الذي سيتناولونه وهم هناك في الأراضي. وقد تطهو النساء العصيدة. وإن حالف الحظ الصبية فسيصطادون شيئاً للطهو مثل دجاجة حبشية يعدون منها يخنة لذيذة لكل العائلة.

رأت السيدة راموتسوي في مرآتها الأمامية العائلة في العربة تتراجع وكأنها تسافر إلى الماضي وهي تصبح أصغر فأصغر. ذات يوم في المستقبل، لن يفعل الناس هذا ولن يخرجوا إلى الأراضي ليعملوا بالزراعة بل سيشترون طعامهم من المتاجر، كما يفعل الناس في المدن. ولكن يا لها من خسارة للبلاد! ويا لها من تضحية بمشاعر الصداقة والتعاون وحب الأرض! كانت قد سافرت إلى الأراضي مع عماتها وهي طفلة فمكثت هناك بينما أرسل الصبية إلى محطات الماشية حيث يعيشون لأشهر في عزلة تامة تقريباً تحت إشراف عدد قليل من الرجال الراشدين. لقد أحبت الوقت الذي أمضته هناك في الأراضي ولم تشعر بالملل. فقد كن يكنسن الباحة ويحكن العشب وينزعن الأعشاب الضارة من حقول البطيخ ويقصصن على بعضهن البعض قصصاً عن أحداث لم تحدث قط، ولكنها قد تحدث في بلاد أخرى.

وعندما أمطرت في ذلك الوقت من الماضي، اختبأن داخل الأكواخ وسمعن قصف الرعد فوق الأراضي وشممن رائحة البرق عندما اقترب كثيراً. إنها رائحة الهواء المحروق اللاذعة. وعندما خفت الأمطار، خرجن وانتظرن النمل الطائر الذي يخرج من جحوره في الأرض الرطبة فيصبح بالإمكان التقاطه قبل أن يطير أو ينتزع من الهواء وهو يبدأ رحلته ويؤكل هناك من أجل طعم الزُّبْد.

مرت ببيلين وألقت نظرة خاطفة إلى الطريق المؤدي إلى موتشودي إلى يسارها. فأثار المكان في مخيلتها ذكريات سعيدة وحزينة في آن معاً، فهو مكان جيد لأن قرية طفولتها تقع فيه، ولكنه سيئ أيضاً لأنه المكان الذي يمر فيه طريق السكة الحديدية بالقرب من الطريق الجانبي. وهناك ماتت والدتها في تلك الليلة الرهيبة عندما أصابها القطار. ورغم أن بريشس راموتسوي كانت طفلة صغيرة آنذاك فقد ألقى هذا الحادث بظلاله على حياتها. وفقدت أمها التي لم تعد تستطيع أن تتذكرها.

والآن أصبحت قريبة من وجهتها بعد أن اتبعت الإرشادات الدقيقة التي أعطيت لها. ووجدت البوابة هناك في سياج الماشية في المكان الذي وصف لها بالضبط. فركنت سيارتها جانباً وترجلت منها لتفتح البوابة. وعندئذ، سلكت الطريق الترابي الذي يؤدي إلى الغرب متوجهة إلى مجمع المنازل الذي استطاعت أن تراه على بعد ميل أو نحو ذلك من بعيد مخفياً خلف غطاء من الشجيرات ومطلاً على برج طاحونة هواء معدنية. وجدت السيدة راموتسوي المزرعة ضخمة. فشعرت بغصة مؤقتة. إذ إن والدها السيد أوبيد راموتسوي كان ليود من كل قلبه أن يحظى بمكان كهذا، ولكن رغم أنه أبلى بلاءً حسناً بماشيته، فهو لم يصبح ثرياً بما يكفي لأن يشتري مزرعة كبيرة من هذا النوع. ولا بد أن مساحة هذه المزرعة تربو عن آلاف الكيلومترات.

كان يهيمن على مجمع المزرعة منزل كبير متعرج مسقوف بالقصدير الأحمر ومحاط من كل الجوانب بشرفات ظليلة. ولا بد أنه منزل المزرعة الأصلي. فأحيط هذا المنزل على مدى السنوات

بأبنية عدة، منها منزلان آخران. وكان منزل المزرعة مسوراً من كل الجوانب بنبات متفتح بأزهار أرجوانية وأشجار البابايا قائمة من خلفه إلى أحد الجوانب. وقد بُذل مجهود كبير لتأمين أكبر قدر من الظل لأن طبيعة الأرض في مكان غير بعيد باتجاه الغرب وربما أبعد بقليل مما تستطيع العين أن تراه تبدأ بالتغير متحولة إلى صحراء كالاهاري. ولكن الماء وافر هنا والقفر مكان جيد لترعى فيه الماشية. وعلى بعد مسافة غير بعيدة باتجاه الشرق، يجري نهر ليمبوبو، وهو ليس نهراً كبيراً في تلك المنطقة، ولكنه مياهه تصبح غزيرة ومتدفقة تماماً في الطقس الماطر.

وجدت السيدة راموتسوي شاحنة مركونة أمام أحد المباني الخارجية. فركنت سيارة الفان البيضاء الصغيرة بجانبها. وكان هناك مكان ملفت للنظر تحت ظل إحدى الأشجار الكبيرة، ولكنه قد يبدو تصرفاً وقحاً من جانبها أن تختار بقعة كهذه لأنه من المرجح أن تكون موقف سيارة أحد أفراد العائلة الكبار.

تركت حقيبتها في السيارة ومشت نحو البوابة التي تؤدي إلى الباحة الأمامية في البيت الرئيسي. فنادت مستئذنة للدخول. إذ إنه من غير اللائق أن تدخل بدون دعوة. ولم تسمع أي جواب. فنادت ثانية. وهذه المرة، انفتح الباب، وخرجت سيدة في منتصف العمر تجفف يديها بمئزرها. فحيت السيدة راموتسوي بأدب ودعتها للدخول إلى المنزل.

وقالت: "إن السيدة بانتظار قدومك. أنا كبيرة الخادمات هنا. ووظيفتي هي العناية بالسيدة العجوز. تفضلي، فهي بانتظارك".

كان المكان منعشاً تحت إفريز الشرفة ومنعشاً حتى أكثر داخل المنزل المظلم. فاستغرقت عينا السيدة راموتسوي بضع لحظات لتعتاد على الظلام. وللوهلة الأولى، بدا لها المكان مليئاً بظلال مبهمة، ولكنها عندئذ رأت الكرسي المنتصب الظهر الذي كانت السيدة العجوز جالسة عليه وبجانبها طاولة عليها جرة ماء وإبريق شاي.

تبادلتا التحية. وانحنت السيدة راموتسوي احتراماً للسيدة المسنة. فسر هذا مضيفتها التي أدركت أنها امرأة تقدر القيم القديمة على عكس أولئك النساء العصريات الوقحات من غابورون اللواتي يظنن أنهن يعرفن كل شيء ولا يكترثن لمن هم أكبر منهن سناً. إنهن يعتبرن أنفسهن ذكيات وأنهن كذا وكذا ويشغلن وظائف الرجال ولكنهن يتصرفن برعونة تامة حيالهم. ولكن هذا لا ينطبق على النساء هنا في الريف، حيث لا تزال القيم القديمة متبعة في كل نواحي الحياة، وبالتأكيد ليس في هذا المنزل.

"إنك لطيفة جداً لسماحك لي بالإقامة هنا، يا سيدتي. وابنك رجل طيب جداً أيضاً".

ابتسمت المرأة المسنة، وقالت: "كلا، يا سيدتي. لا بأس بهذا. ويؤسفني أن أسمع أنك تعانين من مشاكل في حياتك. إن تلك المشكلات التي تبدو عسيرة في المدينة تصبح عديمة الأهمية عندما

تأتين إلى الريف. أما ما يهم هنا، فهو المطر والعشب لإطعام الماشية ولا شيء من الأمور التي يضطرب الناس من أجلها في المدن. إنها لا تعني شيئاً هنا. وسترين هذا بنفسك".

قالت السيدة راموتسوي: "هذا مكان جميل جداً وشديد الهدوء".

بدت المرأة المسنة مستغرقة بالتفكير، وقالت: "نعم، إنه هادئ. ولطالما كان هادئاً. ولا أود لهذا الوضع أن يتغير". ثم صبت كأساً من الماء وقدمته للسيدة راموتسوي.

"ينبغي أن تشربي هذا، يا سيدتي. فلا بد أنك ظمآنة جداً بعد رحلتك".

أخذت السيدة راموتسوي الكأس منها وشكرتها ثم وضعته على شفتيها. وبينما هي تفعل ذلك، راقبتها السيدة العجوز بعناية.

وقالت: "من أين أنت، يا سيدتي؟ هل عشت في غابورون طوال حياتك؟".

لم تفاجأ السيدة راموتسوي من سؤالها. إذ إن هذه طريقة مؤدبة لاكتشاف المكان الذي يعود إليه ولاء المرء. فهناك ثماني قبائل رئيسية في بتسوانا، وقبائل أخرى أصغر. ورغم أن معظم الشباب لا يعتقدون أن هذه الأمور ينبغي أن تكون مهمة فهي على قدر كبير من الأهمية بالنسبة إلى الجيل السابق كهذه المرأة ذات المكانة الرفيعة في المجتمع القبلي. فهي شديدة الاهتمام بهذه المسائل.

قالت: "إنني من موتشودي. فهناك ولدت".

بدت الراحة جلية على المرأة المسنة. فقالت: "آه! إذاً أنت تنتمين لقبيلة غاتلا مثلنا. في أي حي كنت تعيشين؟".

شرحت لها السيدة راموتسوي أصولها. فأومأت المرأة المسنة برأسها. فقد كانت تعرف الزعيم وتعرف ابن عمه، فهو متزوج من أخت زوجة أخيها. كما اعتقدت أنها قابلت أوبيد راموتسوي قبل وقت طويل. وبعد أن بذلت جهدها لتتذكر الأحداث القديمة، قالت: "إن والدتك متوفاة، أليس كذلك؟ إنها تلك المرأة التي لقيت حتفها بحادثة قطار عندما كنت طفلة".

فوجئت السيدة راموتسوي بعض الشيء، ولكنها لم تشعر بالدهشة أنها عرفت هذا. فهناك أناس يحرصون على تذكر مجريات الأحداث في مجتمعهم، ومن الواضح أن هذه المرأة إحداهم. واليوم يطلق على هؤلاء الأشخاص اسم المؤرخين الشفويين. وفي حقيقة الأمر، هناك نساء يحببن أن يتذكرن الأحداث التي تهمهن أكثر من غيرها كالزواج والوفاة والأطفال. أما الرجال فيتذكرون الماشية.

واصل حديثهما مجراه واستخلصت المرأة العجوز ببطء وبراعة قصة حياة السيدة راموتسوي بأكملها. فأخبرتها عن نوت موكوتي وهزت السيدة العجوز رأسها بتعاطف، ولكنها قالت إن هناك الكثير من الرجال على شاكلته وينبغي على النساء أن يحذرن منهم.

ثم قالت: "لقد اختارت عائلتي زوجي وبدأوا مفاوضات الزواج رغم أنهم لم يكونوا ليضغطوا علي إن قلت إنني لم أستلطفه. ولكنهم قاموا بالاختيار لأنهم يعرفون أي نوع من الرجال يناسبني. وكانوا محقين في اختيارهم. فزوجي رجل رائع. وقد أنجبت له ثلاثة أبناء، أحدهم مهتم جداً بعد الماشية وهي هوايته المفضلة، وهو رجل ذكي جداً بطريقته الخاصة. وهناك الابن الذي تعرفينه، يا سيدتي، وهو مسؤول مهم جداً في الحكومة. وهناك الابن الذي يعيش هنا. وهو مزارع بارع جداً ربح جوائز لأجل ثيرانه. إنهم جميعاً رجال رائعون. وأنا فخورة بهم".

سألت السيدة راموتسوي: "هل عشت حياة سعيدة، يا سيدتي؟ هل تودين تغيير حياتك؟ ماذا إن أتى شخص ما وقال لك إن هناك دواءً يغير الحياة، فهل ستفعلين ذلك؟".

قالت المرأة العجوز: "أبداً، فقد منحني الله كل ما يتمناه أي إنسان: زوجاً صالحاً وثلاثة أبناء أقوياء وساقين قويتين ما زالتا حتى اليوم تمكنانني من المشي لخمسة أو ستة أميال بدون أي شكوى. وكما ترين، كل أسناني ما زالت سليمة، فلم أفقد سناً واحداً، وزوجي كذلك الأمر. وستدوم أسناننا إلى أن نبلغ مائة عام أو حتى أكثر".

قالت السيدة راموتسوي: "هذا حظ سعيد جداً. فكل شيء جيد في حياتك".

قالت المرأة المسنة: "كل شيء تقريباً".

انتظرت السيدة راموتسوي. ترى هل ستفصح المرأة عن ما هو أكثر من ذلك؟ هل ستفصح لها عن شيء رأت كنتها تقوم به؟ ربما رأتها وهي تحضر السم أو سمعت عن ذلك، ولكن كل ما قالته هو: "عندما تهطل الأمطار تؤلمني ذراعاي بسبب الرطوبة لشهرين أو لثلاثة أشهر لدرجة أنه يصبح من الصعب علي أن أقوم بالخياطة. فجربت كل دواء، ولكن لا شيء يجدي نفعاً. لذا أعتقد أنه إن كان هذا هو كل ما منحني إياه الله في الحياة، فأنا لا أزال امرأة موفورة الحظ والسعادة".

استدعيت الخادمة التي أدخلت السيدة راموتسوي لتوصلها إلى غرفتها التي تقع في مؤخرة المنزل. وكانت مفروشة بأثاث بسيط وغطاء سرير مختلف الألوان وصورة لتلة موتشودي محاطة بإطار وطاولة مغطاة بمنديل أبيض محبوك بالإبرة وخزانة أدراج صغيرة لتخزن فيها الثياب.

قالت الخادمة: "لا توجد ستارة في هذه الغرفة. ولكن لا أحد يمر من أمام هذه النافذة وستتمتعين بخصوصية تامة، يا سيدتي".

تركت الخادمة السيدة راموتسوي لترتب ثيابها بعد أن قالت لها إن الغداء سيقدم في الساعة الواحدة ويمكنها حتى ذلك الحين أن تهتم بنفسها.

أضافت الخادمة بحزن قائلة: "ليس ثمة ما تفعلينه هنا. فهذه ليست غابورون".

وهمت الخادمة بالمغادرة، ولكن السيدة راموتسوي أطالت المحادثة معها. وإن أفضل طريقة لحث الآخرين على الحديث هي بجعلهم يتحدثون عن أنفسهم. ومن الممكن أن تكون وجهة نظر

هذه الخادمة مفيدة. فمن الواضح أنها ليست امرأة غبية لأنها تتحدث بلغة جيدة ملفوظة بوضوح.

سألتها: "من يعيش هنا أيضاً، يا سيدتي؟ هل هناك أفراد آخرون في العائلة؟".

فقالت الخادمة: "نعم، هناك الابن وزوجته. فلدى الأب والأم ثلاثة أبناء، أحدهم لديه عقل صغير جداً ويعد الماشية طوال اليوم وطوال الوقت. إنه يقيم دائماً في محطة الماشية ولا يأتي إلى هنا أبداً. فهو مثل الصبية الصغار، ولهذا يبقى مع الصبية الرعاة هناك وهم يعاملونه وكأنه واحد منهم رغم أنه رجل ناضج. وهناك الابن الذي يعيش في غابورون، وهو رجل مهم جداً، والابن الذي يعيش هنا. هؤلاء هم الأبناء".

"ما رأيك بهؤلاء الأبناء، يا سيدتي؟".

بدا سؤالاً مباشراً طرح في غير أوانه. فشكل هذا خطورة. إذ من الممكن أن ترتاب المرأة من هذا التطفل، ولكنها لم تفعل، فعوضاً عن ذلك جلست على السرير.

واستهلت حديثها قائلة: "دعيني أخبرك، يا سيدتي. إن ذلك الابن الذي يعيش في محطة الماشية رجل محزن جداً. ولكن ينبغي أن تسمعي كيف تتحدث والدته عنه. فهي تقول إنه ذكي! تصوري! إنه مثل الأطفال الصغار، يا سيدتي. وهذا ليس ذنبه، ولكنه هكذا. ومحطة الماشية هي أفضل مكان بالنسبة إليه، ولكن لا ينبغي أن يقولوا إنه ذكي. فهذه كذبة مفضوحة، يا سيدتي. وهي أشبه أن تقولي إن المطر يهطل في الطقس الجاف رغم أنه ليس هناك مطر".

قالت السيدة راموتسوي: "هذا صحيح".

لم تكد الخادمة تلاحظ تعليقها قبل أن تواصل حديثها قائلة: "وهناك الرجل الذي في غابورون. وعندما يأتي إلى هنا يسبب المشاكل للجميع. فهو يطرح شتى أنواع الأسئلة. ويحشر أنفه في كل شيء. ويصيح حتى على والده. هل تصدقين هذا؟ ولكن أمه تصيح عليه عندئذ وتلزمه حدوده. وقد يكون رجلاً مهماً في غابورون، ولكنه هنا يبقى الابن وينبغي عليه ألا يصيح على من هم أكبر منه سناً".

سرت السيدة راموتسوي كثيراً. فهذه الخادمة هي بالضبط من النوع الذي تود أن تتحدث إليه.

وقالت: "إنك محقة، يا سيدتي. فهناك الكثير من الناس يصيحون على الآخرين في هذه الأيام. صياح، صياح، تسمعينه طوال الوقت. ولكن لماذا تظنين أنه يصيح؟ هل يفعل ذلك ليجلو حنجرته فقط؟".

ضحكت الخادمة، وقالت: "إن لديه صوتاً مرتفعاً جداً. كلا، إنه يصيح لأنه يقول إن هناك خطباً في هذا المكان. ويقول إن الأعمال لا تنجز بشكل ملائم. ويقول..." ثم أخفضت صوتها قائلة: "يقول إن زوجة أخيه امرأة سيئة. قال ذلك لأبيه وأنا سمعته. إن الناس يظنون أن الخادمات لا يسمعن، ولكن لديهن آذان مثل الجميع. فسمعته يقول هذا ويتفوه بأشياء شريرة عنها".

رفعت السيدة راموتسوي حاجبها بدهشة قائلة: "أشياء شريرة؟".

"إنه يقول إنها على علاقة برجال آخرين، ولهذا فعندما يولد طفلهما البكر سيكون من خارج هذا المنزل. ويقول إن أبناءهما سينتمون لرجال آخرين وسيدخل دم غريب إلى هذه المزرعة. هذا هو ما يقوله".

التزمت السيدة راموتسوي الصمت. ونظرت من النافذة. فرأت الشجرة التي خارج النافذة مباشرة تلقي عليها ظلاً أرجوانيًّا. وخلفها، رأت قمم أشجار الشوك ممتدة إلى التلال الخفيضة في الأفق في تلك الأرض الخاوية التي تبدأ منها الصحراء.

"هل تظنين إن هذا صحيح، يا سيدتي؟ هل ما يقوله عن تلك المرأة حقيقي؟".

تجهمت المرأة، وقالت: "حقيقي، يا سيدتي؟ أي حقيقة هذه؟ إن ذلك الرجل لا يعرف ما تعنيه الحقيقة. بالطبع، هذا ليس حقيقياً. فتلك المرأة امرأة صالحة. إنها قريبة ابن عم أمي. وكل نساء تلك العائلة متدينات يقرأن الإنجيل ولا يقمن علاقات مع الرجال ويتبعن ما أوصى به الله. هذا الشيء وحده هو الحقيقي".

الفصل الثالث عشر

رئيس محكمة الجَمال

توجهت السيدة ماكوتسي، نائبة مدير كراج تلوكوينغ رود سبيدي موتورز ومساعدة تحرية في وكالة التحريات النسائية الأولى، إلى عملها ذلك اليوم وشيء من الخوف يتملكها. ورغم أنها رحبت بالمسؤولية وسرت للترقيتين اللتين حصلت عليهما، فلطالما كانت السيدة راموتسوي حاضرة وشكلت وجوداً يمكنها أن تلجأ إليه إن وجدت نفسها في موقف يصعب عليها التعامل معه. أما الآن، بغياب السيدة راموتسوي، فقد أدركت أنها باتت المسؤولة الوحيدة عن مشروعين تجاريين وموظفين. ومع أن السيدة راموتسوي قد نوت ألا تغيب لأكثر من أربعة أو خمسة أيام في المزرعة، فذلك وقت كافٍ لأن تطرأ فيه مشكلة ما. وبما أن السيدة راموتسوي لا تستطيع أن تتصل بها بالهاتف، فقد توجب على السيدة ماكوتسي أن تتولى كل شيء بنفسها. أما في ما يتعلق بالكراج، فقد كانت تعرف أن السيد جي إل بي ميتكوني ينال العناية في مزرعة الأيتام ولا ينبغي عليها أن تحاول الاتصال به إلى أن يتحسن حاله. فقد نصحه الأطباء بالراحة التام من أعباء العمل. وكانت السيدة بوتوكوين، التي لم تعتد مخالفة أوامر الأطباء، تحيط مريضها بأقصى حماية ممكنة.

كانت السيدة ماكوتسي تأمل في سرها ألا يأتي أي زبائن إلى الوكالة إلى حين عودة السيدة راموتسوي. وليس السبب أنها لا تريد أن تعمل على قضية، فهي تريد ذلك بالتأكيد، ولكنها لم ترغب أن تتحمل المسؤولية وحدها، ولكن بالطبع، وصل أحد الزبائن، والأسوأ من ذلك، هو أنه عرض عليها مشكلة تتطلب منها اهتماماً فورياً.

كانت السيدة ماكوتسي جالسة إلى طاولة السيد جي إل بي ميتكوني وهي تحضر فواتير الكراج عندما أدخل أحد المتدربين رأسه من خلف الباب.

وأعلن قائلاً وهو يمسح يديه الملوثتين بالشحم على ملابسه: "هناك رجل أنيق جداً ينتظر أن يراك. ففتحت باب الوكالة وطلبت منه أن ينتظر".

عبست السيدة ماكوتسي في وجه المتدرب وقالت: "أنيق المظهر؟".

قال المتدرب: "إنه يرتدي بدلة فخمة جداً. ويبدو وسيماً مثلي، ولكن ليس تماماً، وينتعل حذاء لامعاً. إنه رجل أنيق جداً. انظري بنفسك، يا سيدتي. فالرجال من أمثاله يحبون أن يسحروا السيدات من أمثالك. انظري بنفسك".

صاحت السيدة ماكوتسي بسرعة وهي تنهض عن كرسيها: "لا تمسح يديك بردائك. فنحن ندفع ثمن غسله، أما أنت فلا، ونعطيكم بقايا القطن من أجل هذا الغرض. فهذه هي وظيفتها. ألم يقل

لكما السيد جي إل بي ميتكوني ذلك؟".

قال المتدرب: "ربما، وربما لم يفعل. لقد قال لنا المدير الكثير من الأشياء. فلا يسعنا أن نتذكر كل ما قاله".

انطلقت السيدة ماكوتسي في طريقها مروراً به وهي تفكر في نفسها: يستحيل التفاهم مع هذين الشابين، ولكنهما أثبتا على الأقل أنهما عاملان مجدان أكثر مما توقعت. فربما أفرط السيد جي إل بي ميتكوني في معاملتهما باللين في الماضي. إنه رجل طيب جداً وليس من طبيعته أن ينتقد الناس بدون سبب. حسناً، ولكن هذا من طبيعتها هي على الأقل. فهي خريجة "كلية بتسوانا للسكرتاريا". ولطالما قال لهم الأساتذة في الكلية: لا تخافوا من الانتقاد، بطريقة بناءة بالطبع، لأدائكم الخاص أو أداء الآخرين، إن اقتضت الضرورة ذلك. لقد انتقدتهما السيدة ماكوتسي. وأتى ذلك بثمرته المرجوة. فقد بدأ الكراج يبلي بلاءً حسناً. وأصبح العمل يزداد يوماً بعد يوم.

توقفت عند باب الوكالة بجانب زاوية المبنى بالضبط ونظرت إلى السيارة المركونة تحت الشجرة خلفها. وكان هذا الرجل الأنيق، كما وصفه المتدرب، يقود سيارة جذابة بالتأكيد. فجالت ببصرها للحظة على الخطوط الانسيابية للسيارة وهوائياتها المزدوجة من الأمام والخلف. لماذا قد يحتاج شخص ما كل هذه الهوائيات؟ من المستحيل أن يستمع المرء لأكثر من محطة إذاعة واحدة في نفس الوقت أو يجري أكثر من مكالمة هاتفية وهو يقود السيارة. ولكن أياً يكن تفسير هذا، فقد أضاف إلى التألق والأهمية اللذين يحيطان بالسيارة.

فتحت الباب ووجدت الرجل جالساً في الداخل واضعاً ساقيه على بعضهما بعضاً بأناقة واسترخاء مواجه مكتب السيدة راموتسوي. وكان اسمه هو السيد موميدي بولاني الذي يمكن تمييزه على الفور من قبل أي قارئ لجريدة "بتسوانا ديلي نيوز" التي تنشر صوراً لوجهه الوسيم الواثق من نفسه على صفحاتها. وكانت أول فكرة خطرت ببال السيدة ماكوتسي هي أنه كان ينبغي على المتدرب أن يميزه. فشعرت بالانزعاج بشكل مؤقت من إخفاقه في فعل ذلك، ولكنها ذكرت نفسها أنه يتدرب ليصبح ميكانيكياً وليس تحرياً. وعلاوة على ذلك، فهي لم ترَ المتدربين يقرآن الصحف على أي حال، بل رأتهما يقرآن مجلة جنوب إفريقية عن السيارات ويتأملانها بإعجاب تام وكتاباً يدعى *فتيات جذابات* يحاولان أن يخفياه عن أنظارها كلما ضبطتهما وهما يحدقان به خلال ساعة غدائهما. فأدركت عدم وجود سبب يدعوهما لمعرفة السيد بولاني وإمبراطوريته في عالم الأزياء وعمله المعروف في الجمعيات الخيرية المحلية.

نهض السيد بولاني على قدميه عندما دخلت وحياها بأدب وصافحها. ثم استدارت السيدة ماكوتسي حول المكتب وجلست في كرسي السيدة راموتسوي.

قال السيد بولاني وهو يخرج علبة سجائر فضية من جيب سترته: "يسرني أنك تمكنت من مقابلتي بدون موعد، يا سيدة راموتسوي".

فقالت وهي ترفض السيجارة التي قدمها لها: "إنني لست السيدة راموتسوي، يا سيدي. بل أنا المديرة المساعدة للوكالة". وتوقفت. إذ إن ذلك الوصف ليس دقيقاً تماماً في الواقع. بل هو غير دقيق على الإطلاق، ولكنها تدير الوكالة الآن بالتأكيد في غياب السيدة راموتسوي. فربما يجعل هذا الوصف مبرراً.

قال السيد بولاني وهو يشعل سيجارته بقداحة مغطاة بالذهب: "إنني أود أن أتحدث إلى السيدة راموتسوي شخصياً، لو سمحت".

أجفلت السيدة ماكوتسي عندما وصلت سحابة من الدخان عبر الطاولة إليها.

وقالت: "إنني آسفة. فهذا غير ممكن في الوقت الحاضر. إذ إن السيدة راموتسوي تحقق في قضية مهمة خارج البلاد". وتوقفت ثانية. فقد تبادرت فكرة المبالغة إلى ذهنها بسهولة كبيرة وبدون أي تفكير. إذ إنه يبدو أكثر تأثيراً أن تحقق السيدة راموتسوي خارج البلاد. فهذا يضفي أهمية دولية على الوكالة. ولكن ما كان ينبغي عليها أن تقول هذا.

قال السيد بولاني: "فهمت. إذاً، يا سيدتي، في هذه الحالة سأتحدث إليك".

"كلي آذان صاغية، يا سيدي".

استند السيد بولاني في كرسيه، وقال: "إن هذه مسألة ملحة جداً. هل تستطيعين النظر في قضيتي اليوم على الفور؟".

أخذت السيدة ماكوتسي نفساً عميقاً قبل أن تغلفها سحابة الدخان التالية.

وقالت: "إننا تحت تصرفك، يا سيدي، ولكن تولينا للقضية بشكل عاجل سيكلفك أتعاباً أكثر. ولا بد أن تتفهم هذا، يا سيدي".

فتجاهل تحذيرها قائلاً: "إن التكلفة ليست ما يهمني. بل المسألة المهمة هي مستقبل منافسة "ملكة الجمال والنزاهة" برمته".

توقف ليشعر بتأثير كلماته. فأجبرت السيدة ماكوتسي نفسها على إبداء ذلك.

وقالت: "آه! هذه قضية خطيرة جداً".

فأومأ السيد بولاني برأسه، وقال: "إنها كذلك بالفعل، يا سيدتي. وأمامنا ثلاثة أيام لنتعامل مع هذه المسألة. ثلاثة أيام فقط".

"حدثني عن الأمر، يا سيدي. كلي آذان صاغية".

بدأ السيد بولاني قائلاً: "هناك جذور مثيرة للاهتمام لهذه القصة، يا سيدتي. وأعتقد أن القصة تبدأ قبل وقت طويل.

"إن كل رجال بتسوانا يحبون السيدات الجميلات. فهم دائماً ينظرون إليهن حتى وهم كبار في السن ويظنون أن تلك السيدة جميلة أو تلك السيدة أجمل من تلك السيدة، وهكذا..."

تدخلت السيدة ماكوتسي قائلة: "إنهم يفعلون ذلك مع الماشية أيضاً. فيقول الرجال إن تلك البقرة أفضل من هذه وإن بقرة أخرى ليست جيدة. إن النساء يشبهن الماشية في نظر الرجال".

ألقى السيد بولاني نظرة جانبية إليها، وقال: "ربما. إن هذه وجهة نظر محتملة. ربما". وتوقف قليلاً قبل أن يتابع كلامه قائلاً: "على أي حال، إن اهتمام الرجال بالسيدات الجميلات هو ما يجعل منافسات الجمال مشهورة جداً هنا في بتسوانا. فنحن نحب أن نعثر على أجمل السيدات في بتسوانا ونمنحهن ألقاباً وجوائز. وهذا نوع مهم جداً من الترفيه بالنسبة إلى الرجال، وأنا واحد منهم، يا سيدتي. فقد اشتركت في تنظيم مسابقات الجمال لأكثر من خمسة عشر عاماً بشكل متواصل، ولهذا أُعتبر من أهم الشخصيات التي تعمل في ذلك المجال".

قالت السيدة ماكوتسي: "لقد رأيت صورتك في الصحف، يا سيدي، وأنت تقدم الجوائز".

أومأ السيد بولاني برأسه وقال: "لقد أسست منافسة "ملكة جمال بتسوانا المتألقة" قبل خمس سنوات. وهي تحتل المرتبة الأولى الآن. والسيدة التي تفوز بمسابقتنا تدخل مسابقة "ملكة جمال بتسوانا" وأحياناً مسابقة "ملكة جمال العالم". إننا نرسل السيدات إلى نيويورك وبالم سبرينغز. فيحصلن على علامات متفوقة في الجمال. ويقال إنهن أفضل صادراتنا بعد الماس".

أضافت السيدة ماكوتسي قائلة: "والماشية".

فوافقها السيد بولاني قائلاً: "والماشية أيضاً. وهناك أناس يحاولون دائماً أن ينتقدونا. فهم يكتبون للصحف ويقولون لنا إن من الخطأ أن نشجع السيدات على التأنق والمشي أمام عدد كبير من الرجال. فهذا يشجع على نشر القيم الزائفة. هراء! أي قيم زائفة هذه؟ إن أولئك الناس الذين يكتبون هذه الرسائل يغارون وحسب. إنهم يحسدون الفتيات لجمالهن لأنهم يعلمون أنهم لا يستطيعون أن يدخلوا مسابقة كتلك. ولهذا، فهم يتذمرون ويتذمرون ويفرحون كثيراً عندما تطرأ أي مشكلة في منافسات الجمال، ولكنهم ينسون، بالمناسبة، أن هذه المنافسات تجمع الكثير من المال لصالح الأعمال الخيرية. ففي العام الماضي، يا سيدتي، جمعنا خمسة آلاف بولا لصالح المستشفى وعشرين ألف بولا لصالح جمعية مكافحة الجفاف وثمانية ألف بولا تقريباً لصالح صندوق المنح الجامعية. إن هذه مبالغ ضخمة، يا سيدتي. ترى كم جمع نقادنا هؤلاء؟ الجواب هو: لا شيء.

"ولكن يجب علينا أن نتوخى الحذر. فنحن نحصل على الكثير من المال من الممولين. فإن انسحب الممولون، وقعنا في ورطة. لذا، إن حدث أي خطأ في منافساتنا، يمكن للممولين أن يقولوا إنهم لا يرغبون بالتعامل معنا بعد الآن، فهم لا يريدون أن يتعرضوا للإحراج بسبب الدعاية السيئة لأنهم يدفعون المال من أجل الحصول على دعاية جيدة وليست سيئة".

"وهل حدث أي خطأ؟".

نقر السيد بولاني بأصابعه على الطاولة، وقال: "نعم، حدثت مشاكل كبيرة جداً. ففي العام الماضي، اتضح أن بعض ملكات جمالنا فتيات سيئات. إذ اعتقلت إحداهن بتهمة الدعارة في أحد الفنادق الكبيرة، كما اتضح أن فتاة أخرى قد حصلت على بضائع تحت ادعاء كاذب واستعملت بطاقة اعتماد بدون ترخيص. فنشرت الصحيفة رسائل مليئة بالشماتة وذكرت فيها أشياء مثل: هل هؤلاء الفتيات هن أفضل فتيات ليصبحن سفيرات لدولة بتسوانا؟ لماذا لا تذهبون إلى السجن مباشرة وتنتقون بعض السجينات وتتوجوهن ملكات للجمال؟ وقد كانوا يظنون أن هذا طريف جداً، ولكنه ليس كذلك. إذ قرأت بعض الشركات هذه الرسائل وهددت بسحب تمويليها إن تكرر هذا ثانية. وتلقيت أربع رسائل أخرى بالفحوى نفسه.

"لذا قررت هذا العام أن يكون موضوع منافستنا هو "الجمال والنزاهة". فقلت إننا يجب أن نختار ملكات جمال يعتبرن مواطنات صالحات ولا يحرجننا بهذا الشكل. وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي تسعد ممولينا وترضيهم.

"وهكذا، توجب على كل السيدات اللواتي دخلن الجولة الأولى أن يملأن استمارة قمت بصياغتها بنفسي. وتطرح هذه الاستمارة شتى أنواع الأسئلة عن آرائهن، مثل: هل تودين أن تقومي بأعمال خيرية؟ ما هي القيم التي ينبغي على مواطني بتسوانا الصالحين أن يؤيدوها. هل من الأفضل للمرء أن يمنح بدلاً من أن يأخذ؟

"أجابت الفتيات عن جميع هذه الأسئلة. وسمح فقط للفتيات اللواتي أظهرن أنهن فهمن معنى المواطنية الصالحة بالوصول إلى النهائيات. ومن أولئك الفتيات شكلنا لائحة مكونة من خمس فتيات. ثم ذهبت إلى الصحف وأخبرتها أننا عثرنا على خمس مواطنات صالحات يؤمن بالقيم العليا. فنشرت صحيفة بتسوانا ديلي نيوز مقالاً تحت عنوان: *الفتيات الصالحات يسعين وراء لقب الجمال*.

"سررت كثيراً. إذ لم يتفوه نقادنا بكلمة واحدة وتوجب عليهم أن يقفوا مكتوفي الأيدي لأنهم لم يستطيعوا أن ينتقدوا أولئك السيدات اللواتي أردن أن يصبحن مواطنات صالحات. واتصل الممولون بي وقالوا إنهم راضون أن يمثلوا قيم المواطنية الصالحة وإنهم سيستمرون بتزويدنا بالتمويل إن سار كل شيء على ما يرام. وقالت لي الجمعيات الخيرية إن هذه الطريقة تبشر بمستقبل ناجح".

توقف السيد بولاني ونظر إلى السيدة ماكوتسي. ولبرهة وجيزة هجره مظهره المتألق وبدا خائب الأمل. ثم قال: "لقد سمعت خبراً سيئاً البارحة. فقد اعتقلت الشرطة إحدى فتيات لائحتنا الصغيرة واتهمتها بسرقة المتاجر. وقد سمعت ذلك الخبر من أحد موظفي. وعندما تحريت عن الأمر من صديق يعمل مفتشاً بالشرطة، قال لي إنه صحيح. فقد ضبطت تلك الفتاة وهي تسرق من أحد

المتاجر. إذ إنها حاولت أن تسرق قدر طهو كبيرة عن طريق دسه داخل بلوزتها، ولكنها لم تلاحظ أن المقبض كان بارزاً من الجانب فاعتقلها شرطي المتجر. ولحسن الحظ، لم يظهر الخبر في الصحف ولن يفعل هذا، إن حالفنا الحظ، على الأقل إلى أن تعرض القضية على المحكمة".

شعرت السيدة ماكوتسي بالتعاطف مع السيد بولاني. وبرغم تباهيه بنفسه، فلا ريب أنه قد قدم الشيء الكثير للأعمال الخيرية. ومن الواضح أن العمل بالأزياء يتطلب التباهي، ولكنه على الأرجح ليس أسوأ من أيٍّ ممن يعملون بهذا المجال. إذ إنه على الأقل يبذل ما بوسعه لمساعدة الناس الذين يعانون من المشاكل. إن منافسات الجمال حقيقة من حقائق الحياة لا يمكن للمرء أن يتمنى إلغاءها من الوجود. فإن حاول أن يجعل منافسته مقبولة أكثر، فهو يستحق أن تدعم جهوده.

قالت له: "يؤسفني كثيراً أن أسمع هذا، يا سيدي. ولا بد أن وقع هذا الخبر سيئ جداً بالنسبة إليك".

فقال ببؤس: "نعم. وما يزيده سوءاً هو أن النهائيات ستقام بعد ثلاثة أيام. ولم تعد هناك سوى أربع فتيات في اللائحة، ولكن كيف أعرف أنهن لن يحرجنني؟ لا بد أن تلك الفتاة قد كذبت عندما ملأت استماراتها وتظاهرت أنها مواطنة صالحة. ولكن من أين لي أن أعرف أن البقية لم يكذبن عندما قلن إنهن يردن أن يقمن بأعمال خيرية؟ إن اخترت فتاة كاذبة، فقد تبرهن أنها لصة أو أي شيء آخر. وهذا يعني أن من المحتم لنا أن نواجه الإحراج حالما تفوز".

أومأت السيدة ماكوتسي برأسها، وقالت: "إن هذا صعب جداً. يجب عليكم فعلاً أن تكتشفوا حقيقة الفتيات الأربع الباقيات. وإن كانت هناك واحدة صالحة..."

قال السيد بولاني بقوة: "إن كانت هناك سيدة كهذه فسوف تفوز. فأنا أستطيع أن أدبر فوزها".

سألت السيدة ماكوتسي: "ولكن ماذا عن الحكام الآخرين؟".

فقال لها: "إنني الحكم الرئيسي. ويمكنك أن تسميني رئيس محكمة الجمال. وصوتي هو الصوت الحاسم فعلاً".

"فهمت".

"نعم، هذه هي الطريقة التي تتم بها الأمور".

أطفأ السيد بولاني عقب سيجارته بأسفل حذائه. وقال: "هذا هو ما أطلب منك أن تفعليه، يا سيدتي. سوف أعطيك أسماء السيدات الأربع وعناوينهن. وأود منك أن تكتشفي إن كانت هناك سيدة صالحة فعلاً من بينهن. وإن لم تستطيعي أن تكتشفي ذلك، فأخبريني أيهن على الأقل هي الأكثر شرفاً. فهذا أفضل من لا شيء".

ضحكت السيدة ماكوتسي، وسألت قائلة: "كيف يمكنني أن أكتشف خبيئة نفس أولئك الفتيات بهذه السرعة؟ سوف يتوجب علي أن أتحدث إلى الكثير من الناس لأكتشف ذلك عنهن. وقد

يستغرق هذا أسابيع".

هز السيد بولاني كتفيه، وقال: "ليس أمامك أسابيع، يا سيدتي. أمامك ثلاثة أيام فقط. لقد قلت لي إنك تستطيعين مساعدتي".

"نعم، ولكن..."

مد السيد بولاني يده إلى جيبه وأخرج ورقة. وقال: "هذه لائحة بالأسماء الأربعة. وقد كتبت عنوان كل سيدة بعد اسمها. إنهن جميعاً مقيمات في غابورون". ومرر لها قطعة الورق عبر المكتب ثم أخرج مجلداً جلدياً رقيقاً من جيب آخر. وبينما هو يفتحه، لاحظت السيدة ماكوتسي إنه يحوي دفتر شيكات. ففتحه وبدأ يكتب. ثم قال: "وهنا، يا سيدتي، شيك بقيمة ألفي بولا مستحقة لوكالة التحريات النسائية الأولى. وهو مؤرخ سلفاً. فإن استطعت أن تزوديني بالمعلومات التي أحتاج إليها بعد غد، يمكنك أن تبرزي هذا في المصرف في اليوم الذي يليه".

حدقت السيدة ماكوتسي بالشيك. وتخيلت كيف ستشعر السيدة راموتسوي بعد عودتها حين تخبرها قائلة: *لقد كسبت للوكالة ألفي بولا مدفوعة سلفاً، يا سيدتي*. وكانت تعلم أن السيدة راموتسوي ليست امرأة طماعة ولكنها تدرك أيضاً أنها قلقة بشأن سلامة وضع الوكالة المالي وقدرتها على الاستمرار. فقد تسهم أجور بهذا الحجم مساهمة كبيرة وتشكل مكافأة للثقة التي منحتها إياها السيدة راموتسوي.

دست الشيك في أحد الأدراج. وبينما هي تفعل ذلك، رأت السيد بولاني يسترخي.

وقال لها: "إنني أعول عليك، يا سيدتي. كل شيء سمعته عن وكالة التحريات النسائية الأولى جيد. فآمل أن أرى ذلك بنفسي".

قالت السيدة ماكوتسي: "آمل ذلك، يا سيدي". ولكنها شكت في قدرتها على اكتشاف الفتاة الشريفة من بين الفتيات الأربع. فقد بدت لها مهمة مستحيلة.

أوصلت السيد بولاني إلى الباب ولاحظت للمرة الأولى أنه يرتدي حذاء أبيض اللون، كما لاحظت أيضاً أزرار قميصه الذهبية وربطة عنقه الحريرية. فلم تود أن تحظى برجل من هذا النوع. إذ سيتوجب عليها أن تقضي كل وقتها في صالون التجميل لتتماشى مع المظهر الذي يتوقعه منها ولا ريب. وفكرت السيدة ماكوتسي قائلة في نفسها: ولكن هذا بالطبع يناسب بعض السيدات الأخريات بشكل مثالي.

الفصل الرابع عشر
من المقدر لبتسوانا أن تكون مكاناً قاحلاً

قالت الخادمة إن وجبة الغداء ستقدم في الساعة الواحدة، أي بعد بضع ساعات من الآن. فقررت السيدة راموتسوي أن أفضل طريقة تقضي بها الوقت هي أن تعرِّف نفسها على محيطها. وكانت تحب المزارع، كعادة كل شعب بتسوانا، لأنها تذكرها بطفولتها وبقيم شعبها الحقيقية. فقد كانوا يتشاركون الأرض والماشية والطيور وكل المخلوقات الأخرى التي يمكن للمرء أن يراها لو أنه يتأمل ما حوله فقط. وبدا من السهل ربما ألا يفكر المرء في هذا في المدن حيث يباع الطعام في المتاجر وتأتي المياه الجارية من الصنبور، ولكن هذه بالنسبة إلى العديدين ليست طريقة للحياة.

بعد تلك المحادثة التي أجرتها مع الخادمة واكتشفت فيها الكثير من المعلومات، تركت غرفتها واتجهت في طريقها خارج الباب الأمامي. وكانت الشمس تلقي بأشعتها الحارة فوق رأسها وبدت الظلال قصيرة. ورأت غيوماً ماطرة ثقيلة تتجمع في الأفق. وإن تجمعت الغيوم أكثر من ذلك هطلت الأمطار هنا أو ربما على الأقل في مكان آخر وراء الحدود. لقد بدا للجميع وكأن المطر سيكون جيداً هذا العام. فهذا هو ما يتضرعون إلى الله من أجله. إذ إن المطر الجيد يعني التغذية الجيدة بينما يعني الجفاف ماشية هزيلة ومحاصيل ذابلة. وكانت البلاد قد مرت بفترة قحط شديد الوطأة قبل بضع سنوات. فأمرت الحكومة الناس، بقلب مثقل بالأسى، أن يبدأوا بذبح ماشيتهم، وهذا أسوأ شيء يتوجب على المرء أن يفعله. فخلفت المعاناة في نفوسهم أثراً عميقاً.

نظرت السيدة راموتسوي حولها ورأت مرجاً صغيراً على بعد مسافة قصيرة يعج بماشية ترد حوضاً للشرب. وكان هناك أنبوب يمر من طاحونة الهواء وصهريج تخزينها الإسمنتي على سطح الأرض إلى حوض المياه والماشية العطشى. قررت السيدة راموتسوي أن تذهب وتلقي نظرة على الماشية. فهي ابنة أوبيد راموتسوي الذي كان يتمتع بنظرة لا تخيب في الماشية في بتسوانا، كما قيل عنه. فكانت تستطيع أن تعرف الحيوان الجيد عندما تراه. وعندما تقود أحياناً بجانب بضعة رؤوس جميلة كانت تفكر في ما سيكون رأي والدها به. فربما يعجب بأكتافها القوية ويعتبر هذه بقرة جيدة وينظر إلى الطريقة التي تمشي بها أو يعتبر ذلك الثور عديم الفائدة لأنه لن ينتج الكثير من العجول.

كانت تلك المزرعة تحوي عدداً كبيراً من الماشية يبلغ خمسة أو ستة آلاف رأس. ويعتبر هذا العدد بالنسبة إلى معظم الناس ثروة تفوق حدود الخيال. إذ إن عشرة رؤوس أو عشرين رأس من الماشية كافية لأن تشعر المرء أنه يملك ثروة لا بأس بها على الأقل، وكانت هي لتسعد بها كثيراً.

وكان أوبيد راموتسوي قد شكل قطيعه بواسطة الشراء والبيع الحكيمين. فانتهى به المطاف بألفي رأس من الماشية في نهاية عمره. وهذا هو ما زودها بإرثها ومنحها الوسيلة لتشتري منزلها في زيبرا درايف وتؤسس الوكالة. ثم أبقت لديها بضعة رؤوس الماشية. فقررت ألا تبيعها وتركتها في عناية بعض الصبية الرعاة في محطة ماشية بعيدة يزورها أحد أقاربها نيابة عنها. وكان هناك ستون رأس في قطيعها، كلها متحدرة من سلالة جيدة من ثيران البراهما الضخمة اختارها والدها بعناية فائقة وعمل على تربيتها. ويوماً ما ستذهب إلى هناك مسافرة بعربة الثيران وتراها. فستثير تلك المناسبة مشاعرها لأنها تتعلق بوالدها الذي تفتقده بشدة. وقد تنهمر الدموع من عينيها فيتساءل الناس عن سبب بكائها حتى الآن على أبيها الذي توفي قبل وقت طويل.

فكرت في نفسها قائلة: ما زالت لدينا دموع لنذرفها. فما يزال علينا أن نبكي على تلك الصباحات التي كنا نخرج فيها مبكرين ونراقب الأبقار وهي تسير الهوينى على طول طرق الماشية والطيور وهي تحلق في التيارات الحارة.

"في ما تفكرين، يا سيدتي؟".

رفعت نظرها فرأت رجلاً يقترب منها وهناك سوط في يده وقبعة معطوبة على رأسه.

حيته السيدة راموتسوي، وقالت: "إنني أفكر بوالدي الراحل. فقد كان ليود أن يرى هذه الماشية هنا. هل تعتني بها، يا سيدي؟ إنها حيوانات جميلة جداً".

ابتسم تقديراً لها، وقال: "لقد اعتنيت بهذه الماشية طوال حياتها. فأصبحت بمثابة أطفالي. لدي مائتا طفل، يا سيدتي، كلها من الماشية".

ضحكت السيدة راموتسوي، وقالت: "لا بد أنك رجل مشغول جداً، يا سيدي".

فأومأ برأسه وأخرج علبة ورقية صغيرة من جيبه. وقدم للسيدة راموتسوي قطعة من لحم البقر المجفف. فقبلتها شاكرة.

وسألها: "هل تقيمين في المنزل؟ إنهم عادة ما يستقبلون ضيوفاً فيقيمون هنا. وأحياناً يحضر الابن الذي في غابورون أصدقاءه من الحكومة. وقد رأيتهم هنا بأم عيني".

قالت السيدة راموتسوي: "إنه رجل مشغول جداً. هل تعرفه جيداً؟".

قال الرجل وهو يمضغ قطعة من اللحم: "نعم، إنه يأتي إلى هنا ويملي علينا ما يجب أن نفعله. فهو يقلق بشأن الماشية طوال الوقت ويقول إن هذه البقرة مريضة وتلك عرجاء ويسأل عن مكان تلك البقرة. إنه يفعل هذا طوال الوقت. وعندما يرحل تعود الأمور إلى سابق عهدها ثانية".

انقبضت أسارير السيدة راموتسوي من التعاطف، وقالت: "لا يمكن أن يكون هذا سهلاً بالنسبة إلى أخيه، أي الابن الآخر، أليس كذلك؟".

فتح مربي الماشية عينيه على وسعهما. وقال: "إنه يقف مثل الذليل هناك ويدع أخاه يصيح عليه. إنه مزارع جيد، ذلك الابن الشاب، ولكن الابن البكر يظل يعتقد أنه هو من يدير المزرعة، ولكننا نعرف أن أباهما قد تحدث إلى الزعيم ووافق أن ينال الابن الأصغر أغلب الماشية وينال الابن الأكبر المال. هذا هو ما تقرر".

"وهل أعجب هذا القرار الابن الأكبر؟".

قال مربي الماشية: "كلا، وأظن أنني أدرك كيفية شعوره، ولكنه أبلى بلاء حسناً جداً في غابورون وحظي بحياة أخرى، ولكن الابن الأصغر هو المزارع وهو من يعرف الماشية حق المعرفة".

سألت السيدة راموتسوي: "وماذا عن الابن الثالث؟ ذلك الذي يعيش في تلك الناحية؟". وأشارت إلى صحراء كالاهاري.

ضحك مربي الماشية وقال: "إنه مجرد صبي. وهذا مؤسف جداً. إذ يقولون إن هناك خطباً ما في عقله. وقد حدث هذا بسبب شيء فعلته أمه وهو في رحمها. فهكذا تحدث هذه الأمور".

قالت السيدة راموتسوي: "حقاً؟ ماذا فعلت؟". وكانت تعرف الاعتقاد السائد بين الناس في الريف أن الطفل المعاق يأتي نتيجة لعمل سيئ ارتكب من جانب أحد والديه. فإن أقامت المرأة علاقة مع رجل آخر، على سبيل المثال، فقد يؤدي هذا إلى ولادة طفل متخلف عقلياً. وإن هجر الرجل زوجته وهي حامل ليرحل مع شابة أصغر سناً، فهذا أيضاً يؤدي إلى كارثة تحل بالطفل.

أخفض مربي الماشية صوته، ولكن من هناك ليسمعه غير الماشية والطيور؟

وقال الرجل: "إنها هي من يجب أن تراقبيها. المرأة العجوز. إنها امرأة شريرة".

"شريرة؟".

أومأ برأسه وقال: "نعم، راقبيها. راقبي عينيها".

أتت الخادمة إلى باب غرفتها قبل الساعة الواحدة بوقت قصير وأخبرتها أن الوجبة جاهزة.

وقالت وهي تشير إلى الجانب الآخر من المنزل: "إنهم يتناولون طعامهم في الشرفة على ذلك الجانب".

شكرتها السيدة راموتسوي وغادرت غرفتها. وكانت الشرفة تقع في الجانب المنعش من المنزل تظللها شبكة ووفرة من النباتات المتسلقة على تعريشة خشبية خشنة. وكانت هناك طاولتان موضوعتان بجانب بعضهما البعض ومغطاتان بغطاء مائدة أبيض منشى. وفي نهاية الطاولة الكبيرة، وضعت بضعة أطباق من الطعام في دائرة، وهي عبارة عن طبق من اليقطين الساخن وزبدية من وجبة الذرة وطبق من الفول والخضار الأخرى ووعاء كبير من يخنة اللحم الثخينة

بالإضافة إلى رغيف من الخبز وطبق من الزبدة. فبدا لها طعاماً جيداً من النوع الذي تتمكن عائلة ثرية فقط من أن تتحمل نفقته كل يوم.

ميزت السيدة راموتسوي المرأة العجوز الجالسة بعيداً قليلاً عن المائدة وهناك قطعة قماش قطنية صغيرة مفروشة على حضنها. وكان أفراد العائلة الآخرون هناك أيضاً، وهم: طفل في حوالى الثانية عشرة وشابة ترتدي تنورة خضراء أنيقة وبلوزة بيضاء، وهي الزوجة كما افترضت السيدة راموتسوي، والرجل بجانبها يرتدي بنطالاً طويلاً من اللون الكاكي وقميصاً بكمين قصيرين من نفس اللون. فوقف الرجل عندما دخلت السيدة راموتسوي وخرج من وراء الطاولة ليرحب بها.

وقال لها وهو يبتسم: "إنك ضيفتنا. وأنت موضع ترحيب كبير في هذا المنزل، يا سيدتي".

أومأت السيدة العجوز وقالت: "هذا ابني. وقد كان يعتني بالماشية عندما وصلت".

قدمها الرجل لزوجته التي ابتسمت لها بطريقة ودية.

وقالت الشابة: "إن الطقس حار جداً اليوم، يا سيدتي. ولكنها ستمطر على ما أعتقد. فلا بد أنك جلبت لنا هذا المطر".

شكرتها السيدة راموتسوي على هذه المجاملة، وقالت: "آمل ذلك. فالأرض لا تزال عطشى".

فقال الزوج: "إنها دائماً عطشى. فمن المقدر لبتسوانا أن تكون مكاناً قاحلاً للحيوانات، ولكن هذه هي مشيئة الله".

جلست السيدة راموتسوي بين الزوجة والمرأة العجوز. وبينما بدأت الزوجة تقدم الوجبة، صب الزوج الماء في الكؤوس.

قالت المرأة العجوز: "لقد رأيتك تتفرجين على الماشية. هل تحبين الماشية، يا سيدتي؟".

أجابت السيدة راموتسوي: "أيوجد مواطن في بتسوانا لا يحب الماشية؟".

قالت المرأة العجوز: "قد يكون هناك البعض. فربما يوجد من لا يفهمون الماشية. لست أدري".

وأشاحت السيدة بوجهها وراحت تنظر من خلال نوافذ الشرفة الطويلة غير المكسوة بالزجاج وعبر امتداد القفر الذي يصل إلى الأفق.

قالت الشابة وهي تقدم للسيدة راموتسوي طبقها: "يقولون إنك من موتشودي. إنني من هناك أيضاً".

قالت السيدة راموتسوي: "لقد حدث هذا منذ وقت طويل. فأنا مقيمة في غابورون الآن كالكثير من الناس".

قال الزوج: "مثل أخي. لا بد أنك تعرفينه جيداً إن كان قد دعاك إلى هنا".

سادت لحظة من الصمت. فالتفتت المرأة العجوز لتنظر إلى ابنها الذي أشاح بوجهه عنها.

قالت السيدة راموتسوي: "لا أعرفه جيداً، ولكنه دعاني إلى هذا المنزل ليسدي إلي معروفاً. فقد قدمت له بعض المساعدة".

قالت المرأة العجوز بسرعة: "إنك على الرحب والسعة. فأنت ضيفتنا".

وجهت ملاحظتها الأخيرة إلى ابنها، ولكنه تشاغل بطبقه متظاهراً أنه لم يلاحظ ما قالته أمه. ورغم ذلك فقد نظرت الزوجة إلى عيني السيدة راموتسوي عندما تم تبادل النظرات بينهما. فغضت طرفها بسرعة ثانية.

تناولوا طعامهم بصمت. ووضعت المرأة العجوز طبقها على حضنها. وتشاغلت باستخراج كومة من الذرة المنقوعة في الصلصة. ثم وضعت المزيج في فمها ومضغته ببطء وعيناها الدامعتان مثبتتان على منظر القفر والسماء. أما من جانبها، فقد تناولت الزوجة الفاصولياء واليقطين، ولكنها تناولت طعامها بلا شهية. وعندما نظرت السيدة راموتسوي إلى طبقها لاحظت أنها والزوج وحدهما من تناولا اليخنة. وكان الطفل الذي قدموه لها على أنه ابن عم الزوجة يتناول شريحة سميكة من الخبز مغطاة ببعض الصلصة.

نظرت السيدة راموتسوي إلى طعامها. وغرزت شوكتها في كومة اليخنة الموضوعة بين كمية كبيرة من اليقطين وكومة صغيرة من وجبة الذرة. وكانت اليخنة ثخينة ولزجة. وعندما رفعت شوكتها تركت خطاً رفيعاً من مادة شبيهة بالغليسرين على طول الطبق، ولكنها عندما وضعت الشوكة في فمها بدا طعم الطعام طبيعياً أو شبه طبيعي. إذ إنها استشعرت نكهة خفيفة يمكن أن توصف بأنها نكهة معدنية كطعم حبوب الحديد التي وصفها لها الطبيب أو ربما نكهة مرة كطعم بذرة ليمون مكسورة.

نظرت إلى الزوجة التي ابتسمت لها.

فقالت الشابة: "إنني لست الطاهية. فإن وجدت نكهة الطعام لذيذة فليس هذا لأنني طهوته. إذ يعمل لدينا سايمون في المطبخ. إنه طاهٍ بارع جداً. ونحن فخورون به. فقد تدرب ليعمل ككبير طهاة".

قال الزوج: "إنه عمل النساء. ولهذا السبب لا تجدينني في المطبخ. إذ ينبغي على الرجل أن يقوم بأعمال أخرى".

نظر إلى السيدة راموتسوي أثناء حديثه فأحست بالتحدي.

واستغرقت بضع لحظات لتجيب، فقالت: "هذا ما يقوله الكثير من الناس، يا سيدي، أو على الأقل هذا ما يقوله الكثير من الرجال. ورغم ذلك فلست واثقة إن كانت نساء كثيرات يتفقن معه".

وضع الزوج شوكته، وقال بهدوء: "اسألي زوجتي. اسأليها إن كانت تتفق مع هذا القول. هيا".

فقالت الزوجة بدون تردد: "إن ما يقوله زوجي صحيح".

التفتت المرأة العجوز إلى السيدة راموتسوي وقالت: "أترين! إنها تؤيد زوجها. هذا هو الحال هنا في الريف. أما في المدينة فقد يكون الوضع مختلفاً، ولكنه هكذا في الريف".

عادت السيدة راموتسوي إلى غرفتها بعد الوجبة واستلقت على سريرها. ولم تكن الحرارة قد انخفضت رغم أن الغيوم ظلت تتجمع في الشرق. وأصبح من الواضح الآن أنها ستمطر رغم أن هذا لن يحدث إلى حين حلول الليل وستهب الرياح عما قريب محملة برائحة المطر الرائعة لا يخطئها أحد. إنها رائحة التراب والماء عندما يلتقيان والتي تتلكأ لبضع ثوانٍ في رئتي المرء ثم تتلاشى. فيفتقدها أحياناً لأشهر قبل أن تحين المرة التالية التي تصادفه فيها فتجعله يتوقف ويقول لأي شخص برفقته إن تلك هي رائحة المطر الرائعة.

استلقت على سريرها وراحت تحدق بألواح السقف البيضاء. فبدت لها نظيفة جداً مما يدل على حسن رعاية المنزل. ففي العديد من المنازل، تصبح الأسقف ملطخة بفعل الذباب أو آثار النمل الأبيض. وأحياناً يمكن للمرء أن يرى عناكب كبيرة مقلوبة رأساً على عقب تتجول عبر ما يبدو لها سهولاً بيضاء. أما هنا فلا يوجد شيء. فالطلاء نظيف تماماً.

تملكت الحيرة السيدة راموتسوي. فكل ما عرفته اليوم هو أن خدم المنزل لديهم آراؤهم الخاصة، ولكنهم جميعاً يكرهون مسؤول الحكومة. إذ إنه يفرض نفسه على الجميع، على ما يبدو، ولكن هل يوجد أي شيء غير اعتيادي في هذا؟ من الطبيعي للأخ الأكبر أن يدلي بآرائه في الطريقة التي ينبغي بها التعامل مع الماشية وأن يفرضها على أخيه الأصغر. ومن الطبيعي للمرأة العجوز أن تعتقد أن ابنها المعاق ذكي وأن تظن أن سكان المدينة قد فقدوا الاهتمام بالماشية. فأدركت السيدة راموتسوي أنها لا تعرف عنها شيئاً. وكان مربي الماشية يعتقد أنها شريرة، ولكنه لم يعطِ أي سبب يعزز به تخميناته. بل قال لها أن تراقب عينيها، وهذا ما فعلته بدون جدوى. فكل ما لاحظته هو أنها أشاحت بوجهها ونظرت بعيداً بينما هم يتناولون الغداء معاً. فماذا يعني هذا يا ترى؟

نهضت السيدة راموتسوي وفكرت أن ثمة شيئاً يجب أن تعرفه. فإن أشاح شخص ما بوجهه بعيداً فهذا يعني أنه لا يحب وجوده في ذلك المكان. وأكثر الأسباب شيوعاً لعدم الرغبة في الوجود في مكان ما هو أن المرء لا يحب الصحبة التي يجلس معها. وهذا صحيح دائماً. والآن، إن كانت تلك المرأة تشيح بوجهها بعيداً دائماً، فهذا يعني أنها تكره شخصاً من الموجودين معها. ففكرت السيدة راموتسوي في نفسها: إنها لا تكرهني أنا لأنها لم تظهر أي دلالة على هذا عندما قابلتها في وقت مبكر كما أنها لا تعرفني مسبقاً لتكرهني. ومن المستبعد للطفل أن يثير هذا النوع من ردود الأفعال لأنها عاملته بالفعل بلطف بالغ وربتت على رأسه في عدة مناسبات أثناء الوجبة. وهكذا، فلم يبقَ سوى الابن وزوجته.

لا يوجد أم تكره ابنها. فقد أيقنت السيدة راموتسوي أن ثمة نساء يغضبن من أبنائهن أو يخجلن بهم، ولكن لا يوجد فعلاً أم تكره ابنها في الصميم. فيمكن للابن أن يفعل أي شيءٍ ومع ذلك تسامحه والدته عليه. وهكذا، فهذه المرأة العجوز تكره كنتها أشد الكره لدرجة أنها تتمنى أن تتواجد في مكان آخر وهي في صحبتها.

عاودت السيدة راموتسوي الاستلقاء على سريرها بعد أن انقضت الإثارة الفورية التي أحست بها لاستنتاجها. والآن توجب عليها أن تكتشف سبب كره المرأة العجوز لكنتها وإن كان السبب في ذلك هو أن ابنها الآخر، مسؤول الحكومة، قد ذكر لها شيئاً عن شكوكه. ورغم ذلك فربما يكون السؤال الأهم هو فيما إذا كانت الشابة تعرف كره حماتها لها. فإن كانت تعرف ذلك فربما يشكل هذا الكره حافزاً لديها لفعل شيء حياله، ولكن إن كانت ممن يدسون السم للآخرين، وهذا ما لم يبدُ عليها بالإضافة إلى أخذ آراء الخادمة المناقضة لذلك بعين الاعتبار، فعندئذ من المؤكد أنها ستحاول أن تسمم المرأة العجوز وليس زوجها.

شعرت السيدة راموتسوي بالنعاس يثقل جفنيها. ولم تكن قد نامت جيداً في الليلة السابقة. وبدأت القيادة الطويلة والغداء الثقيل يحدثان مفعولهما بها. وكانت اليخنة ثقيلة جداً ولزجة وفيها آثار دبقة. فأغمضت السيدة راموتسوي عينيها ولكنها لم ترَ الظلام، بل رأت هالة بيضاء وخطاً مضيئاً باهتاً يبدو عليه أنه يعبر إلى بصيرتها الداخلية. وتحرك السرير قليلاً وكأن الرياح بدأت الآن تعصف به من وراء الحدود. وأتت رائحة المطر ثم القطرات الحارة السريعة التي تضرب الأرض وتلسعها وتقفز إلى الأعلى كديدان رمادية صغيرة.

خلدت السيدة راموتسوي للنوم، ولكن تنفسها كان سطحياً وأحلامها محمومة. وعندما استيقظت في حوالى الساعة الخامسة شعرت بمغص في معدتها. وكانت العاصفة الكبرى قد مضت، ولكن المطر ظل يهطل ويضرب السقف المعدني للمنزل كفرقة من عازفي الطبول. جلست ثانية ولكنها عاودت الاستلقاء بسبب الغثيان ثم انقلبت على سريرها وأنزلت قدميها على الأرض ونهضت بغير ثبات ومشت متعثرة في طريقها إلى الباب ومنه إلى الحمام في آخر الممر. وهناك تقيأت. فسرعان ما شعرت بالتحسن. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى غرفتها شعرت أنها أفضل حالاً وأصبحت قادرة أن تتأمل في وضعها. لقد أتت إلى بيت شخص دس لها السم فتسممت. ولم يكن ينبغي أن تفاجأ من هذا، فهو بالفعل أمر متوقع تماماً.

الفصل الخامس عشر

ماذا تريدين أن تفعلي في حياتك؟

كانت أمام السيدة ماكوتسي ثلاثة أيام فقط. فتساءلت إن كان سيسعها أن تكتشف معلومات كافية عن كل فتاة من المشتركات في المرحلة النهائية لتتمكن من أن تسدي النصيحة للسيد بولاني. نظرت إلى لائحة الأسماء المطبوعة بأناقة، ولكن الأسماء والعناوين التي تتبعها لم توحِ لها بأي شيء. وكانت تعرف أن هناك أشخاصاً يدعون أنهم يستطيعون الحكم على الناس من خلال أسمائهم وأن الفتيات اللواتي يطلق عليهن اسم ماري شريفات ومحبات للبيوت وأنه لا ينبغي على المرءِ أن يثق بشخص يدعى سيفو، وهكذا...، ولكنها تبقى فكرة سخيفة وعديمة الفائدة كتلك التي تقول بأنه يمكن للمرءِ أن يكتشف إن كان الشخص مجرماً أم لا من خلال النظر إلى شكل رأسه. فقد أرتها السيدة راموتسوي مقالاً عن تلك النظرية وانضمت إليها ساخرة منه. ولكن الفكرة، رغم أنها غير ملائمة تماماً لشخص متحضر مثلها أن يؤمن بها، أثارت اهتمامها. فشرعت في أبحاثها الخاصة بتكتم. ووضع أمين مكتبة المجلس البريطاني الخدوم بين يديها كتاباً في غضون بضع دقائق. فبدا كتاب "نظريات علم الجريمة" بشكل ملحوظ كتاباً علمياً أكثر من كتاب المؤلف كلوفيس أندرسن: "مبادئ التحري الخاص" الذي تعتمده السيدة راموتسوي كدليل مهني لها. فكتاب كلوفيس أندرسن يفي بغرض الحصول على تعليمات للتعامل مع الزبائن، ولكنه ضعيف من الناحية النظرية. فأيقنت السيدة ماكوتسي أن كلوفيس أندرسن ليس قارئاً لمجلة جورنال أوف كريمينولوجي "مجلة علم الجريمة" في حين أن مؤلف كتاب "نظريات علم الجريمة" مطلع تماماً على المناظرات التي أجريت في ما يتعلق بأسباب الجريمة. فقد قرأت السيدة ماكوتسي أن المجتمع يعتبر أحد المتهمين بتحويل الشبان إلى مجرمين بالإضافة إلى السكن السيئ والمستقبل المظلم. وحذر الكتاب أنه ينبغي علينا أن نتذكر أن أولئك الذين ارتكبت جرائم بحقهم يرتكبون بدورهم جرائم بحق الآخرين.

قرأت السيدة ماكوتسي هذه المعلومات بدهشة. وفكرت أنها صحيحة قطعياً، ولكنها لم تدر بخلدها من قبل بتلك العبارات المحددة. فأولئك الذين يرتكبون خطأ لا بد أن خطأ ما قد ارتكب بحقهم. وتوافقت تلك الفكرة إلى حد كبير مع تجربتها الشخصية. فعندما التحقت بالصف الثالث في المدرسة قبل كل تلك السنوات في بوبونونغ، تذكرت صبياً اعتاد أن يتنمر على الصبية الصغار ويستمتع بإخافتهم. فلم تتمكن من أن تدرك قط السبب في قيامه بهذا. وظنت أن الشر من طبعه، ولكنها مرت في إحدى الأمسيات بجانب منزله ورأته يتعرض للضرب على يد والده السكير. فراح الصبي يتلوى ويصيح عالياً، ولكنه لم يستطع أن يفلت من ضربات والده. وفي اليوم التالي، وهي

في طريقها إلى المدرسة، رأته يضرب صبياً أصغر منه ويدفع به على شجرة ذات أشواك حادة. وبالطبع، لم تربط بين السبب والنتيجة في ذلك السن، ولكن هذه الذكرى عادت إليها ثانية الآن وهي تفكر بالحكمة الظاهرة في نص كتاب: "نظريات علم الجريمة".

أمضت بضع ساعات في القراءة وهي جالسة في مكتب وكالة التحريات النسائية الأولى إلى أن توصلت إلى ما تبحث عنه. وكان القسم المتعلق بالأسباب البيولوجية للجريمة أقصر من غيره من الأقسام إلى حد كبير لأن من الواضح أن الكاتب لم يشعر بالراحة حيالها.

يقول الكتاب: "كان عالم الجريمة الإيطالي من القرن التاسع عشر سيزار لومبروسو، رغم آرائه المتحررة عن إصلاح السجون، مقتنعاً تماماً أنه يمكن أن تستكشف الميول الإجرامية من خلال شكل الرأس. وهكذا، فقد استهلك الكثير من الطاقة في رسم ملامح المجرمين في محاولة مُضلَّلة لتحديد تلك الملامح الوجهية والجمجمية الدالة على الميول الإجرامية. وهذه التوضيحات الطريفة (المذكورة أدناه) هي دليل على الحماس المبذول في غير موضعه الذي كان من الممكن أن يوجَّه بكل سهولة إلى أبحاث مثمرة أكثر".

نظرت السيدة ماكوتسي إلى التوضيحات المأخوذة من كتاب لومبروسو. فطالعتها صورة رجل يبدو عليه الشر. إذ إن له جبيناً ضيقاً وعينين ضاريتين. وكتب تحت الصورة شعار: *القاتل النموذجي (من النوع الصقلي)*. وكانت هناك صورة لرجل آخر له شارب كبير وعينان ضيقتان. وكتب عنه أنه لص تقليدي (من النوع النابولي). ورأت صوراً أخرى لأنواع مختلفة من المجرمين، كلها مزعجة بشكل واضح. فارتعشت أوصال السيدة ماكوتسي. إذ إن أولئك الرجال أشرار للغاية ولا يمكن الوثوق بأي منهم. فلماذا إذاً نصف نظريات لومبروسو بأنها مضللة؟ إن ذلك من وجهة نظرها ليس وقحاً فقط، ولكنه مخطئ بشكل واضح. فالكاتب لومبروسو محق تماماً ويمكن للمرء أن يكتشف الحقيقة بذلك الأسلوب فعلاً. وهذا أمر أظهرته النساء لوقت طويل جداً. إذ يمكنهن أن يعرفن شخصية الرجال من مجرد النظر إليهم، وليس عليهن أن يكن إيطاليات، بل يمكنهن أن يفعلن ذلك هنا في بتسوانا. تملكت الحيرة السيدة ماكوتسي. فإن كانت النظرية واضحة إلى هذا الحد، فلماذا إذاً ينكرها مؤلف هذا الكتاب عن علم الجريمة؟ وفكرت للحظة ثم خطر التفسير ببالها. إنها *يغار* منه! لا بد أن هذا هو السبب. إنه يشعر بالغيرة لأن لومبروسو فكر بهذا قبله وأراد أن يطور أفكاره الخاصة عن الجريمة. حسناً! إن كان هذا هو الحال، إذاً فلن تزعج نفسها بعد الآن بقراءة كتاب "نظريات علم الجريمة". فقد اكتشفت معلومات أهم عن علم الجريمة، وكل ما عليها الآن هو أن تطبقها. وكانت ستستخدم نظريات لومبروسو عن علم الجريمة لتكتشف من هي، من بين الفتيات الأربع في اللائحة، الفتاة الجديرة بالثقة ومن ليست كذلك. وأكدت توضيحات لومبروسو أنها تستطيع أن تثق بحدسها. فقضاء وقت قصير مع تلك الفتيات وربما بعض التحري السري عن

تركيبة جماجمهن، لأنها لن تود أن تحدق بها، ستكفي لتزودها بالإجابة. وليس هناك شيء آخر يمكنها أن تفعله في الوقت القصير المتاح لها. وقد كانت تحرص أشد الحرص أن تحل المسألة بشكل مرضٍ قبل حلول وقت عودة السيدة راموتسوي.

إنها أربعة أسماء لا تعرف منها السيدة ماكوتسي أي اسم، وهي: موتلاميدي ماتلولي وغلاديس ثلابي وماكيتا فينيونيني وباتريشا كواتلينيني، وكتبت تحتها أعمارهن وعناوينهن. فكانت موتلاميدي أصغرهن سناً، وتبلغ من العمر التاسعة عشرة، وأكثرهن سهولة للوصول إليها، فهي طالبة في الجامعة. بينما كانت باتريشا أكبرهن، فهي في الرابعة والعشرين، وربما أكثرهن صعوبة للوصول إليها بسبب عنوانها الغامض في حي تلوكوينغ (رقم 2456). فقررت السيدة ماكوتسي أن تزور الفتاة الأولى أولاً لأنه سيكون من الأسهل عليها أن تجدها في قاعة الطلاب في حرم الجامعة المنظم. وبالطبع، قد لا يكون من السهل بالضرورة أن تقابلها. فالسيدة ماكوتسي مدركة تماماً أن الفتيات من ذلك النوع، نظراً لموقعهن في الجامعة وضمان حصولهن على الوظيفة الجيدة افتراضياً، يملن للترفع على الناس الذين لا يتمتعون بمواصفاتهن ولا سيما أولئك الذين ارتادوا كلية بتسوانا للسكرتاريا. فمعدلها البالغ سبعة وتسعين بالمائة، والذي أتى نتيجة عملها الشاق واجتهادها، سيكون عرضة للسخرية من قبل فتاة مثل موتلاميدي. ورغم ذلك فهي تستطيع أن تتحدث إليها وتعامل أي فوقية من جانبها بمنتهى الكرامة. فليس هناك ما تخجل به، الآن بعد أن أصبحت نائبة مدير الكراج ومساعدة تحرية على حد سواء. ولكن هل تحظى تلك الفتاة الجميلة بأية ألقاب رسمية؟ إنها لم تصبح بعد ملكة الجمال والنزاهة حتى لو كانت تسعى وراء ذلك الشرف بحد ذاته.

همت بالذهاب لمقابلتها، ولكن ماذا ستقول لها؟ فليس من المعقول أن تبحث عن الفتاة وتقول لها: *أستميحك عذراً، فقد أتيت لأنظر إلى رأسك*. إن هذا سيجلب رداً عدائياً منها حتى لو امتاز بأنه صحيح تماماً. ثم خطرت ببالها فكرة حسنة، وهي أن تتظاهر بإجراء استبيان من نوع ما. وهكذا، فبينما تجيب الفتيات عنه يمكنها أن تمعن النظر إلى رؤوسهن وتعابير وجوههن وتكتشف وجود أي علامات منبهة توحي بعدم الأمانة. وأصبحت الفكرة حتى أفضل. فقررت أنها لن تجري استبياناً تسويقياً عديم المعنى من النوع الذي اعتاد الناس أن يجيبوا عنه بل استبياناً للمواقف الأخلاقية يطرح، بطريقة بارعة جداً، أسئلة يمكنها أن تكشف عن مواقف الفتيات. فعملت على صياغة الأسئلة بطريقة حذرة لا تشك فيها الفتيات بوجود أي فخ ولكنها تكشف عن الحقائق كما تفعل الأضواء الكشافة. على سبيل المثال: *ماذا تريدين أن تفعلي في حياتك؟* أو: *هل من الأفضل أن تجني الكثير من المال أو أن تساعدي الآخرين؟*

توضحت الأفكار في ذهنها جيداً الآن. فابتسمت السيدة ماكوتسي بسرور بينما تكشفت لها احتمالات جديدة لتطوير فكرتها. وقررت أن تدعي أنها صحافية أرسلتها صحيفة "بتسوانا ديلي

نيوز" لتكتب مقالاً خاصاً عن المنافسة. وكان كلوفيس أندرسن قد كتب أن الخداع البسيط مسموح به على فرض أن الغاية تبرر الوسيلة. حسناً، إن الغاية في هذه الحالة مهمة بشكل واضح بما أن سمعة بتسوانا نفسها في المحك. فربما تجد الفتاة الفائزة بمسابقة "ملكة الجمال والنزاهة" نفسها مؤهلة للقب "ملكة جمال بتسوانا". وذلك اللقب يماثل أهمية كونها سفيرة لبلادها. بالفعل، إن ملكة الجمال هي بمثابة سفيرة لبلادها. وسوف يحكم الناس على تلك البلاد من خلال سلوكها. فإن اضطرت للتفوه بكذبة صغيرة لكي تمنع فتاة شريرة من الحصول على ذلك اللقب والتسبب بالخزي للبلاد كلها إذاً فهذا ثمن صغير لتدفعه. وكان كلوفيس أندرسن سيتفق معها بلا شك في موقفها، رغم أن مؤلف كتاب "نظريات علم الجريمة"، الذي يبدو عليه أن لديه معاييرَ أخلاقية عالية جداً، قد يتحفظ عليها تحفظاً في غير محله.

جلست السيدة ماكوتسي لتطبع الاستبيان. وكانت الأسئلة بسيطة ولكنها عميقة المعاني:

1. ما هي أهم القيم التي تستطيع إفريقيا أن تظهرها للعالم؟

إن هذا السؤال مصمم ليكشف إن كانت الفتاة تعرف ما تعنيه القيم الأخلاقية. فالفتاة الواعية أخلاقياً قد تجيب بكلام مثل: *يمكن لإفريقيا أن تظهر للعالم معنى الإنسانية. فإفريقيا تعترف بإنسانية كل الشعوب.*

وحالما تتفاوضا في هذا السؤال أو حتى *إن* تفاوضتا فيه، يصبح السؤال التالي شخصياً أكثر:

2. *ماذا تريدين أن تفعلي في حياتك؟*

هنا تستطيع السيدة ماكوتسي أن تُوقِع في شَرَك أية فتاة غير شريفة. فالجواب المعياري الذي ستعطيه أي متنافسة في مسابقة جمال لسؤال كهذا هو: *أود أن أعمل لصالح الجمعيات الخيرية وربما مع الأطفال. وأريد أن أترك العالم وقد أصبح مكاناً أفضل مما كان عليه عندما دخلته.*

هذا جواب شائع جداً. ولا بد أن جميع المتنافسات يتعلمن نفس الجواب من كتاب ما من تأليف شخص مثل كلوفيس أندرسن بعنوان: *التدريب الجيد لملكات الجمال* أو ربما: *كيف تفوزين في منافسات ملكة الجمال.*

فكرت السيدة راموتسوي أن فتاة شريفة ستجيب بالشكل التالي: *أود أن أعمل لصالح الجمعيات الخيرية وربما مع الأطفال. وإن لم يكن هناك أطفال متوفرون، يسرني إذاً أن أعمل مع كبار السن. فأنا لا أمانع بذلك. ولكنني حريصة أيضاً على نيل وظيفة محترمة براتب كبير.*

3. هل من الأفضل أن تكوني جميلة أم أن تكوني متمتعة بالنزاهة؟

مرة أخرى، لا ريب في أن الإجابة المتوقعة من إحدى المتنافسات على لقب الجمال هي أن النزاهة أهم. فجميع الفتيات سيشعرن على الأرجح أنه يجب عليهن أن يقلن هذا، ولكن هناك إمكانية بعيدة أن تدفع الأمانة الشخص إلى القول إن الجمال له منافعه. فهذا أمر لاحظته السيدة ماكوتسي

حيال وظائف السكرتاريا. فالفتيات الجميلات يحظين بكل الوظائف ولا يتبقى إلا النذر اليسير لبقية الفتيات حتى لو أحرزن سبعة وتسعين بالمائة في الامتحانات النهائية. ولطالما اعتملت خيبة الأمل في قلوب الفتيات لإجحاف هذا الوضع في حقهن، رغم أن العمل الجاد في حالتها هي قد أثمر في نهاية المطاف. فكم عدد قريناتها اللواتي يتمعن ببشرة أجمل منها ويعملن بمنصب نائبة مدير؟ إن الإجابة بلا شك هي: ولا واحدة. إن أولئك الفتيات الجميلات يتزوجن رجالاً أثرياء ويعشن براحة طوال حياتهن، ولكن لا يسعهن أن يدعين أنهن يحظين بمهنة ما لم يكن ارتداء الملابس الباهظة وحضور الحفلات يعتبر مهنة من المهن.

طبعت السيدة ماكوتسي الاستبيان. ولم تكن هناك آلة تصوير مستندات في المكتب، ولكنها استخدمت ورقاً مفحماً. فأصبحت لديها أربع نسخ من ورقة الأسئلة. ثم طبعت عنوان "قسم المقالات الخاصة في صحيفة بتسوانا ديلي نيوز" بخط مبهرج في رأس الصفحة. نظرت إلى ساعتها. وكان وقت الظهر قد حل. فأصبح الطقس حاراً بشكل غير مريح. وكانت بعض الأمطار قد هطلت قبل بضعة أيام، ولكن الأرض امتصتها على الفور ولسان حالها يصيح طلباً للمزيد. وإن هطل المطر ثانية، وهذا ما سيحدث على الأرجح، فسوف تهبط درجة الحرارة وسيشعر الناس بالراحة ثانية. وكان الطقس الحار يثير مزاج الناس ويسبب الشجارات بسبب أشياء تافهة. أما المطر فينشر السلام بين الناس.

خرجت من المكتب وأقفلت الباب خلفها. فوجدت المتدربين مشغولين بتصليح سيارة فان قديمة تقودها امرأة تحضر الخضار من لوبيتس وتبيعها لمتاجر السوبرماركت. وكانت المرأة قد سمعت عن الكراج من صديقتها التي قالت لها إنه مكان جيد لتأخذ إليه امرأة سيارتها.

وكانت الصديقة قد قالت: "أعتقد أنه كراج خاص بالسيدات. فهم يتفهمون السيدات ويعتنون بهن جيداً. وهذا أفضل مكان يمكن لسيدة أن تأخذ إليه سيارتها".

أبقى إحراز شهرة العناية بسيارات السيدات المتدربين مشغولين. فقد استجابا للتحدي تحت إدارة السيدة ماكوتسي بالعمل لساعات متأخرة وبذل عناية أكبر لعملهما. وراحت هي تتفقد عملهما من وقت لآخر وتصر على أن يشرحا لها بالضبط ما يفعلانه. فكانا يستمتعان بهذا. إذ إنه ساعدهما في تركيز أفكارهما على المشكلة التي بين أيديهما. فطرأ تحسن كبير على مقدرتهما على تشخيص المشكلة، وهي سلاح مهم في ترسانة أي ميكانيكي بارع، وأصبحا لا يضيعان الكثير من الوقت في الثرثرة التافهة عن الفتيات.

قال لها المتدرب الأكبر سناً صباح أحد الأيام: "إننا نحب العمل لصالح امرأة. فمن الجيد أن يكون لدى المرءِ امرأة تراقبه طوال الوقت".

قالت السيدة ماكوتسي: "إنني مسرورة كثيراً لهذا. فعملك يزداد تحسناً. ويوماً ما قد تصبح ميكانيكياً مشهوراً مثل السيد جي إل بي ميتكوني. إن هذا ممكن دائماً".

والآن توجهت نحو المتدربين وراقبتهما وهما يصلحان مصفاة الزيت.

وقالت: "هل انتهيتما من هذا العمل. فأنا أرغب أن يوصلني أحدكما إلى الجامعة".

فتذمر المتدرب الأصغر، وقال: "إننا مشغولان جداً، يا سيدتي. فلدينا سيارتان أخريان يجب أن نفحصهما اليوم. ولا يمكننا أن نغادر إلى هنا وهناك طوال الوقت. فنحن لسنا سائقي سيارة أجرة".

تنهدت السيدة ماكوتسي قائلة: "في هذه الحالة سوف يتوجب علي أن أستقل سيارة أجرة. فلدي عمل مهم لأقوم به بخصوص منافسة ملكة الجمال. ويجب علي أن أتحدث إلى بعض الفتيات".

قال المتدرب الأكبر بسرعة: "أنا سأوصلك. فأنا جاهز تقريباً. وسوف ينهي أخي هذا العمل".

قالت السيدة ماكوتسي: "حسن. كنت أعلم أنني أستطيع أن أعوِّل على طبيعتكما الراقية".

ركنت السيدة ماكوتسي السيارة تحت شجرة في حرم الجامعة في مكان غير بعيد عن مجمع أبنية كبير مطلي باللون الأبيض أرشدها إليه حارس البوابة عندما أرته العنوان الذي بحوزتها. فرأت هناك مجموعة من الطالبات واقفات يثرثرن تحت ستار من الشمس يظلل المدخل الأمامي إلى المبنى ذي الثلاثة طوابق. ثم تركت المتدرب في سيارة الفان وتوجهت إلى المجموعة وقدمت لهن نفسها.

وقالت: "إنني أبحث عن موتلاميدي ماتلولي. فقد قيل لي إنها تقطن هنا".

ضحكت إحدى الطالبات وقالت: "نعم، إنها تقطن هنا رغم أنني أعتقد أنها تود أن تعيش في مكان أكثر فخامة من هذا".

فقالت أخرى: "مثل فندق صن". مما أثار ضحك الجميع.

ابتسمت السيدة ماكوتسي وقالت: "أهي فتاة مهمة جداً، إذاً؟".

فأدى هذا إلى المزيد من الضحك. وقالت إحدى الفتيات: "إنها تحسب نفسها كذلك فقط لأنها تحظى بكل أولئك الشبان الذين يلهثون وراءها وتظن أنها تملك كل غابورون. ينبغي عليك فقط أن تريها".

قالت السيدة ماكوتسي ببساطة: "إنني أود أن أراها. فهذا هو سبب قدومي".

فقالت فتاة أخرى: "ستجدينها واقفة أمام مرآتها. إنها تسكن في الطابق الأول، الغرفة رقم 114".

شكرتهن السيدة ماكوتسي للمعلومات التي قدمنها وتوجهت في طريقها صاعدة الدرج الإسمنتي إلى الطابق الأول. ولاحظت أن شخصاً ما قد خربش عبارة غير لائقة على جدار الدرج، وهي ملاحظة عن إحدى الفتيات. فلا شك أن أحد الطلاب قد تعرض للرفض من قبلها فنفس عن مشاعره عن طريق الخربشة على الجدران. فشعرت السيدة ماكوتسي بالانزعاج لرؤية ذلك. إذ إن

هؤلاء الناس يتمتعون بامتياز عن الناس العاديين في بتسوانا الذين لا يحظون بالفرصة لنيل هذا النوع من التعليم الذي تدفع الحكومة ثمنه حتى آخر قرش، ولكن كل ما يشغل بالهم هو الكتابة على الجدران. وما الذي تفعله موتلاميدي بقضاء الوقت بالعناية بهندامها ودخول منافسات الجمال في الوقت الذي ينبغي عليها فيه أن تطالع كتبها؟ لو أن السيدة ماكوتسي تشغل منصب رئيسة الجامعة لأمرت الناس من هذه الشاكلة أن يتخذوا قرارهم بالقيام بأمر واحد فقط. فيمكنهم أن يهذبوا عقولهم أو طراز شعرهم، ولكن لا يمكنهم القيام بالأمرين معاً.

عثرت على الغرفة رقم 114 وقرعت على الباب. وسمعت صوت الراديو يصدح بقوة من الداخل. فقرعت ثانية بشكل أقوى.

صاح صوت من الداخل: "حسناً! إنني قادمة".

انفتح الباب ووقفت موتلاميدي ماتلولي أمامها. وكان أول شيء لاحظته السيدة ماكوتسي هو عيناها لأنهما تبدوان كبيرتين بشكل ملحوظ وتهيمنان على بقية ملامح وجهها وتضفيان عليه صفة بريئة وناعمة مثل وجوه تلك المخلوقات الصغيرة التي يدعونها "أطفال القفر".

نظرت موتلاميدي إلى زائرتها من الأعلى إلى الأسفل.

وقالت لها بلا مبالاة: "نعم، يا سيدتي؟ ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟".

كان هذا تصرفاً فظاً. فتألمت السيدة ماكوتسي لهذه الإهانة. ولو أن تلك الفتاة تتمتع بأي سلوك مهذب لدعتها للدخول. ولكنها بدت مشغولة فوق الحد، كما توقعت الطالبات، بمرآتها التي رأتها السيدة ماكوتسي منصوبة على مكتبها ومحاطة بالكريمات ومستحضرات التجميل.

قالت السيدة ماكوتسي: "إنني صحفية. وأكتب مقالاً عن المتباريات النهائيات في منافسة "ملكة الجمال والنزاهة". وأرغب أن أطرح عليك بعض الأسئلة".

فبدا التغيير في سلوك موتلاميدي واضحاً على الفور. إذ إنها دعت السيدة ماكوتسي للدخول بسرعة أو بالأحرى بمبالغة شديدة. ثم أبعدت بعض الملابس المبعثرة على أحد الكراسي ودعت زائرتها للجلوس عليه.

وضحكت وهي تشير إلى أكوام الملابس المرمية هنا وهناك: "إن غرفتي ليست فوضوية إلى هذا الحد دائماً. فأنا أقوم حالياً بترتيب الأشياء. إنك تعلمين كيف هي هذه الأمور".

أومأت السيدة ماكوتسي برأسها. ثم أخرجت الاستبيان من حقيبتها وناولته للشابة التي نظرت إليه وابتسمت.

وقالت موتلاميدي: "إن هذه الأسئلة سهلة جداً. فقد سبق ورأيت أسئلة كهذه من قبل".

طلبت منها السيدة ماكوتسي قائلة: "من فضلك قومي بملئه. ثم أود أن أتحدث إليك لوقت قصير قبل أن أتركك لتتابعي دراستك".

وبينما هي تدلي بالملاحظة الأخيرة راحت تنظر في أنحاء الغرفة التي ليس فيها أثر للكتب، حسبما استطاعت أن تكتشف من مظهرها.

قالت موتلاميدي وهي منهمكة بالاستبيان: "نعم، فنحن الطلاب مشغولون جداً بالدراسة".

بينما واصلت موتلاميدي كتابة أجوبتها، ألقت السيدة ماكوتسي نظرة خاطفة بحذر شديد إلى رأسها. ولسوء الحظ، فقد جعل الطراز الذي صففت به هذه المتبارية النهائية شعرها من المستحيل أن يتبين المرء شكل رأسها. ففكرت السيدة ماكوتسي أن لومبروسو نفسه قد يجد من الصعب أن يصل إلى وجهة نظر حيال هذه الفتاة. ومع ذلك، فهذا لا يهم فعلاً. إذ إن كل ما لاحظته من شخصية هذه الفتاة بدءاً من فظاظتها عند الباب إلى مظهرها شبه الازدرائي (والذي اختفى في اللحظة التي أعلنت فيها السيدة ماكوتسي أنها صحافية) أوحى إليها أن هذه الفتاة تعتبر خياراً سيئاً للقب "ملكة الجمال والنزاهة". ورغم أنه من غير المرجح لها أن تتهم بالسرقة بالطبع، فهناك طرق أخرى قد تتسبب بها بالخزي للمنافسة وللسيد بولاني. وأكثر الأسباب رجوحاً بالنسبة إليها هي التورط في فضيحة ما مع رجل متزوج. فالفتيات من هذا النوع لا يحترمن رباط الزواج ويمكن للمرء أن يتوقع منهن أن يسعين وراء أي رجل يستطيع أن يحسن وظيفتها بغض النظر عن كونه متزوجاً. فسألت السيدة ماكوتسي نفسها: أي مثال تشكل هذه الفتاة ومثيلاتها لشباب بتسوانا؟ وجعلها مجرد التفكير بهذا غاضبة. فوجدت نفسها تهز رأسها بشكل لا إرادي من فرط الاستهجان.

رفعت موتلاميدي نظرها من الاستمارة.

وسألت: "لماذا تهزين رأسك، يا سيدتي؟ هل كتبت شيئاً خطأ؟".

فأجابت بسرعة: "كلا، لم تفعلي هذا. يجب أن تكتبي الحقيقة. فهذا هو كل ما يهمني".

ابتسمت موتلاميدي، وقالت: "إنني أقول الحقيقة دائماً. ولطالما قلت الحقيقة منذ كنت طفلة. فأنا لا أطيق الناس الذين يكذبون".

"حقاً؟".

أنهت الكتابة وأعطت الاستمارة للسيدة ماكوتسي.

وقالت: "آمل أنني لم أطل الكتابة. فأنا أعلم أنكم أنتم الصحفيين أناس مشغولون جداً".

أخذت السيدة ماكوتسي الورقة ونظرت إلى الأجوبة.

السؤال الأول: إن لإفريقيا تاريخ عظيم جداً رغم أن الكثيرين من الناس لا يلقون له بالاً. فإفريقيا تستطيع أن تعلم العالم معنى الاهتمام بالآخرين. وهناك أمور أخرى تستطيع إفريقيا أن تعلمها للعالم.

السؤال الثاني: إن أقصى طموحاتي هو أن أعمل لمنفعة الناس الآخرين. فأنا أتطلع لليوم الذي يمكنني فيه أن أساعد المزيد من الناس. وهذا هو أحد الأسباب التي تجعلني أستحق أن أفوز بهذه

المنافسة. فأنا فتاة تحب أن تمد يد العون للناس. ولست إحدى أولئك الفتيات الأنانيات.

السؤال الثالث: من الأفضل أن أكون فتاة نزيهة. فالفتاة الشريفة ثرية في أعماقها. وهذه هي الحقيقة. أما الفتيات اللواتي يقلقن حيال مظهرهن فلسن سعيدات كالفتيات اللواتي يفكرن بالآخرين أولاً. وأنا واحدة من هؤلاء الفتيات الأخيرات وهذه هي طريقتي في الحياة.

راقبت موتلاميدي السيدة ماكوتسي وهي تقرأ.

وقالت: "حسناً، يا سيدتي. هل تودين أن تسأليني عن أي شيء قد كتبته؟".

طوت السيدة ماكوتسي الورقة ودستها في حقيبتها.

وقالت: "كلا، شكراً لك، يا سيدتي. لقد قلت لي كل ما أحتاج إلى معرفته. ولا حاجة لأن أسألك المزيد من الأسئلة".

بدت موتلاميدي قلقة.

وقالت: "ولكن ماذا عن الصورة؟ إن أرادت الصحيفة أن ترسل مصوراً فأنا أعتقد أنني أستطيع السماح له بالتقاط صورتي لأنني سأبقى هنا طوال فترة العصر".

توجهت السيدة ماكوتسي إلى الباب.

وقالت: "ربما، ولكنني لا أعرف فعلاً. لقد أعطيتني أجوبة مفيدة جداً وسوف أتمكن من نشرها في الصحيفة. وأنا أشعر أنني أعرفك حق المعرفة الآن".

شعرت موتلاميدي أنه أصبح باستطاعتها أن تتصرف بلباقة الآن.

فقالت: "يسرني أننا التقينا. وأنا أتطلع للقائنا التالي. فربما ستحضرين المنافسة. ويمكنك أن تحضري المصور معك".

فقالت السيدة ماكوتسي وهي تغادر: "ربما".

عندما خرجت السيدة ماكوتسي وجدت المتدرب يتحدث إلى بعض الفتيات. وكان يشرح لهن شيئاً يتعلق بالسيارة وهن يصغين إليه بلهفة. ولم تسمع السيدة ماكوتسي المحادثة كلها، ولكنها استطاعت أن تسمع نهايتها: "... على الأقل ثمانون ميلاً في الساعة. ومحركها هادئ جداً. فإن كان هناك شاب جالس مع فتاة في المقعد الخلفي وأراد أن يقبلها في تلك السيارة، يجب عليه أن يلتزم الهدوء الشديد لأنهم سيسمعونه في المقعد الأمامي".

فضحكت الطالبات.

قالت السيدة ماكوتسي: "لا تصغين إليه. فليس مسموحاً لهذا الشاب أن يقابل الفتيات لأنه متزوج أصلاً ولديه ثلاثة أطفال. وستستشيط زوجته غضباً إن سمعت أن الفتيات يتحدثن إليه".

فتراجعت الطالبات إلى الوراء. ونظرت إليه إحداهن بتأنيب.

اعترض الشاب قائلاً: "ولكن هذا ليس صحيحاً. فأنا لست متزوجاً".

قالت إحدى الطالبات بغضب: "هذا هو ما يقوله كل الرجال. فأنتم تأتون إلى هنا وتتحدثون إلى الفتيات مثلنا بينما تفكرون طوال الوقت في زوجاتكم. أي سلوك وقح هذا؟".

قالت السيدة ماكوتسي بسرعة وهي تفتح باب السيارة وتتهيأ للركوب: "إنه وقح جداً. وعلى أي حال، فقد حان وقت ذهابنا. ويجب على هذا الشاب أن يوصلني إلى مكان آخر".

فقالت إحدى الطالبات: "توخي الحذر منه، يا سيدتي. فنحن نعرف نوعية الشبان الذين على شاكلته".

شغل المتدرب السيارة بتجهم، ثم انطلق بها.

وقال: "ما كان ينبغي أن تقولي هذا، يا سيدتي. فقد جعلتني أبدو كالمغفل".

صاحت السيدة ماكوتسي: "أنت من جعلت نفسك كالمغفل. لماذا تلهث وراء الفتيات كهذا؟ لماذا تحاول أن تثير إعجابهن دائماً؟".

قال المتدرب مدافعاً عن نفسه: "لأنني هكذا أستمتع بوقتي. فأنا أحب التحدث إلى الفتيات. لدينا كل تلك الفتيات الجميلات في بلادنا وليس هناك أحد ليتحدث إليهن. إنني أؤدي خدمة للبلاد".

رمقته السيدة ماكوتسي بنظرة احتقار. ورغم أن هذين الشابين بدآ يعملان بجد لديها ويستجيبان جيداً لمقترحاتها، فقد بدا لها أن هناك ضعفاً مزمناً في شخصيتيهما، ألا وهو إصرارهما على مطاردة النساء. أيمكنها أن تفعل أي شيء حيال هذا؟ خامرها شك في ذلك، ولكنها ظنت أنهما سيصبحان أكثر جدية بمرور الوقت، أو ربما لن يفعلا ذلك. إذ إن الناس لا يتغيرون كثيراً. وكانت السيدة راموتسوي قد قالت لها هذا مرة فظل قولها راسخاً في ذاكرتها: إن الناس لا يتغيرون، ولكن هذا لا يعني أنهم يبقون على نفس الحال دائماً. وما يستطيع المرء أن يفعله هو أن يكتشف الجانب الطيب في شخصيتيهما ويطوره. وعندئذ قد يبدو عليهما أنهما تغيرا، رغم أن هذا لم يحدث، ولكنهما سيصبحان مختلفين فيما بعد وأفضل مما كانا عليه. هذا هو ما قالته السيدة راموتسوي. وإن كان هناك أي شخص في بتسوانا ينبغي على المرء أن يصغي إليه بعناية شديدة، فهو السيدة راموتسوي.

الفصل السادس عشر

قصة الطاهي

استلقت السيدة راموتسوي على سريرها وحدقت بألواح السقف البيضاء. وشعرت بتحسن في معدتها بعد أن انقضى شعورها بالدوار، ولكنها عندما أغمضت عينيها ثم فتحتهما ثانية بعد وقت قصير رأت حلقة بيضاء تحيط بكل شيء وهالة من النور تراقصت للحظة ثم اختفت. وربما يبدو هذا شعوراً لطيفاً في ظل ظروف أخرى. أما هنا وهي تحت رحمة من دس لها السم فقد خالجها شعور مرعب. ترى ما هي المادة التي تتسبب بهذه النتيجة؟ لقد كانت السيدة راموتسوي تعرف أن السم قد يسبب تلفاً في البصر. إذ إنها تعلمت وهي طفلة عن النباتات التي تحصد في القفر والشجيرات التي قد تسبب النوم ولحاء الأشجار الذي قد ينهي الحمل غير المرغوب به والجذور التي تشفي من الحكاك، ولكن هناك نباتات أخرى تنتج دواء "الموتي" المستخدم من قبل الأطباء المشعوذين ونباتات تبدو عليها البراءة ولكنها قد تقتل من لمسة واحدة، إن كان ما يقال عنها صحيحاً. فلا ريب أن إحدى تلك النباتات هي ما دس في طبقها على يد زوجة المضيف أو في وجبة الطعام بأكملها على الأرجح دون تمييز ولكن الزوجة تجنبت تناولها. فإن كانت امرأة ما شريرة بمكان لدرجة أن تدس السم لزوجها فلن يردعها شيء عن قتل الآخرين معه.

نظرت السيدة راموتسوي إلى ساعتها. فوجدت أنها تجاوزت السابعة والظلام سائد خلف النوافذ. وكانت قد نامت طوال فترة غياب الشمس. فحان وقت تناول وجبة المساء رغم أنها لم تشعر برغبة في الأكل. ومع ذلك فربما يكون أهل البيت يتساءلون عن مكانها وهكذا ينبغي عليها أن تخبرهم أنها لا تشعر أنها على ما يرام ولن تتمكن من أن تنضم إليهم لتناول العشاء.

جلست في سريرها وراحت تحدق أمامها. وكان الضوء الأبيض لا يزال موجوداً، ولكنه بدأ يتلاشى الآن. مدت قدميها على حافة السرير وأدخلت أصابعها في حذائها على أمل ألا تكون أي عقارب قد زحفت إليه أثناء فترة راحتها. لقد اعتادت أن تتفقد حذاءها بحثاً عن العقارب منذ وضعت قدمها داخل حذاء المدرسة في صباح أحد الأيام فتعرضت للدغة عقرب بني كبير كان مختبئاً فيه طوال الليل. فتورمت قدمها بأكملها تورماً شديداً وأسعفوها إلى المستشفى. فوضعت لها الممرضة هناك ضمادة وأعطتها دواء ليسكن الألم. ثم حذرتها أن تتفقد أحذيتها دائماً وظل ذلك التحذير ملازماً لها حتى الآن.

قالت الممرضة رافعة يدها إلى مستوى صدرها: "إننا نعيش في الأعلى هنا. وتعيش العقارب في الأسفل هناك. تذكري هذا".

وفي وقت لاحق، تبين لها أن هذا التحذير يمكن أن ينطبق على أمور أخرى. فهو لا ينطبق على العقارب والأفاعي وحدها، ولكن يمكن أن ينطبق بشكل مماثل أيضاً على البشر. فهناك عالم كامن وراء العالم الذي يسكنه الناس العاديون الذين يطيعون القانون، عالم آخر من الأنانية وعدم الثقة يسكنه الناس الاستغلاليون والماكرون، ولهذا يجب على المرء أن يتوخى الحذر الدائم.

سحبت أصابعها من الحذاء قبل أن تصل إلى نهايته. ثم مدت يدها إلى الأسفل وأخذت الفردة اليمنى وقلبتها. فلم تجد شيئاً. ثم أخذت الفردة اليسرى وفعلت الشيء نفسه. فسقط منها مخلوق صغير لامع تراقص على الأرض للحظة وكأنه يدافع عن نفسه. ثم أسرع ليلجأ إلى ظلام ركن الغرفة.

توجهت السيدة راموتسوي في طريقها إلى آخر الممر. وعندما وصلت إلى غرفة المعيشة، خرجت الخادمة من المدخل وحيتها.

قالت الخادمة: "لقد كنت آتية لاستدعائك، يا سيدتي. فقد تم إعداد الطعام وهو جاهز تقريباً".

"شكراً لك، يا سيدتي. لقد كنت نائمة. ولم أكن أشعر أنني على ما يرام، رغم أنني أفضل حالاً الآن. ولا أظن أنني أرغب بتناول أي شيء الليلة، ولكنني أود أن أشرب بعض الشاي. فأنا أشعر بعطش شديد".

وضعت الخادمة يدها على فمها، وقالت: "يا الله! هذا سيئ جداً، يا سيدتي. فجميع سكان البيت مرضى. وقد شعرت السيدة العجوز بالغثيان طوال اليوم. وراح الرجل وزوجته يصيحان وهما يضغطان على معدتيهما. وحتى الصبي كان مريضاً، رغم أن حاله لم تكن سيئة جداً. فلا بد أن اللحم الذي تناولوه فاسد".

حدقت السيدة راموتسوي بالخادمة، وقالت: "الجميع؟".

"نعم، الجميع. وقد استشاط الرجل غضباً وصاح أنه سيذهب ويطارد الجزار الذي باعه ذلك اللحم".

"وماذا عن زوجته؟ ماذا حل بها؟".

أطرقت الخادمة إلى الأرض. فتلك أمور خاصة تتعلق بالمعدة البشرية ويحرجها أن تتحدث عنها بصراحة.

"لم تستطع أن تبقي شيئاً في معدتها. فحاولت أن تشرب بعض الماء الذي أحضرته لها، ولكنها تقيأته. وأصبحت معدتها فارغة. وأعتقد أنها تشعر بتحسن الآن. لقد أديت دور الممرضة هنا وهناك طوال فترة العصر حتى إنني نظرت من خلال باب غرفتك لأطمئن عليك فرأيتك نائمة بهدوء. ولم أعرف أنك كنت مريضة أيضاً".

التزمت السيدة راموتسوي الصمت للحظة. فقد غيرت المعلومات التي أعطتها إياها الخادمة الوضع برمته. إذ تعرضت الزوجة، وهي المشتبه بها الرئيسية، للتسمم، كما حدث هذا للمرأة العجوز، وهي أيضاً مشتبه بها. وهذا يعني أن حادثاً ما قد طرأ في توزيع السم أو أن هاتين المرأتين بريئتان من تلك التهمة. اعتقدت السيدة راموتسوي أن الاحتمال الأخير من بين هذين الاحتمالين هو المرجح. فعندما شعرت بالغثيان تخيلت أنها تعرضت للتسمم عن قصد، ولكن هل هذا احتمال وارد؟ وعندما فكرت بعقلانية أكبر بعد أن شفيت من الغثيان الذي أصابها، بدا لها من السخف أن تظن أن من يدس السم قد يرتكب فعلته بهذه السرعة وهذا الوضوح لدى وصول ضيف إلى البيت. إذ إن هذا عمل يثير الشكوك ولا ينم عن الحذر. وكانت قد قرأت أن من يدسون السم للناس هم عادة أشخاص شديدو المكر والحذر.

نظرت الخادمة إلى السيدة راموتسوي بترقب وكأنها تظن أن الضيفة قد تتولى إدارة شؤون المنزل الآن.

سألت السيدة راموتسوي: "ليس أحدهم بحاجة لاستدعاء الطبيب، أليس كذلك؟".

"كلا، إن حالهم أفضل الآن، على ما أعتقد. ولكنني لا أعرف كيف أتصرف. فهم يصيحون علي طوال الوقت. ولا أستطيع أن أفعل شيئاً وهم يصيحون جميعاً".

قالت السيدة راموتسوي: "كلا، إن هذا ليس سهلاً بالنسبة إليك".

نظرت إلى الخادمة، وتأملت قولها: *إنهم يصيحون علي طوال الوقت*. ففكرت في وجود دافع آخر في كلامها، ولكن الفكرة بدت لها سخيفة. فهذه امرأة شريفة تتمتع بوجه طلق وتبتسم عندما تتحدث. إن الأسرار تترك ظلالاً قاتمة على الوجوه. وليست هناك أي ظلال على وجهها.

قالت السيدة راموتسوي: "حسناً، يمكنك أن تعدي لي بعض الشاي. وبعد ذلك، أعتقد أنه ينبغي عليك أن تذهبي إلى غرفتك وتتركيهم ليتحسن حالهم. فربما لن يصيحوا عليك كثيراً في الصباح".

ابتسمت الخادمة بامتنان، وقالت: "سأفعل هذا، يا سيدتي، وسأحضر الشاي إلى غرفتك. ويمكنك عندئذ أن تخلدي للنوم ثانية".

خلدت للنوم، ولكنه كان نوماً متقطعاً. فراحت تستيقظ بين الحين والآخر وتسمع أصوات تحرك من داخل المنزل أو خبط أبواب أو فتح نوافذ أو صوت صرير المنزل القديم ليلاً. وقبل بزوغ الفجر بوقت قصير، عندما أدركت أنها لن تغط في النوم ثانية، نهضت وارتدت رداءها المنزلي وتوجهت في طريقها خارج المنزل. فنهض كلب عند الباب الخلفي على قوائمه وهو لا يزال مترنحاً من النوم وأخذ يشتم حول قدميها بريبة. وانطلق طير كبير كان جاثماً على السطح بمشقة وحلق مبتعداً.

نظرت السيدة راموتسوي حولها. ولم تكن الشمس ستشرق قبل مضي نصف ساعة أو نحو ذلك، ولكن الضوء بدا كافياً لرؤية الأشياء بوضوح. وبدأ الآن يزداد قوة ووضوحاً بمرور كل لحظة.

ولكن الأشجار ظلت غير واضحة وليست أكثر من مجرد أشكال مبهمة، ولكن سرعان ما ستظهر أغصانها وأوراقها بكل تفاصيلها كلوحة يرفع الستار عنها. إن ذلك هو الوقت الذي تحبه من اليوم. وفي هذا المكان الموحش البعيد عن الطرق والناس والضجة التي يتسببون بها، ظهر جمال الأرض بكل نقائها، ولكن الشمس ستشرق بعد قليل وتجعل من العالم مكاناً قاسياً. ورغم ذلك، ففي هذه اللحظة وهذا القفر وهذه السماء، بدت الأرض نفسها متواضعة وأقل قدراً من حقيقتها.

أخذت السيدة راموتسوي نفساً عميقاً. فمست رائحة القفر والتراب والعشب شغاف قلبها، كما لطالما فعلت، والآن أضيفت إليها نفحة من رائحة دخان الخشب، تلك الرائحة اللاذعة الرائعة التي تتسلل خلال هواء الصباح الساكن عندما يعد الناس فطورهم ويدفئون أيديهم على ألسنة اللهب. استدارت إلى الخلف ورأت ناراً مشتعلة في مكان قريب. إنها النار الصباحية التي يشعلونها لتسخين غلاية الماء، أو ربما نار الحارس الذي يقضي ساعات الليل مستدفئاً على بضع قطع من الفحم المتوهج.

انعطفت إلى مؤخرة المنزل وسلكت ممراً صغيراً محدداً بحجارة مبيضة بماء الكلس، وهذه عادة أخذت من المدراء الاستعماريين الذي قاموا بطلاء الحجارة المحيطة بمخيماتهم ومقراتهم بماء الكلس وحتى القسم السفلي من جذوع الأشجار التي زرعوها على جوانب الطرق الطويلة. لقد فعلوا ذلك في كل أنحاء إفريقيا. ولكن لماذا؟ كل هذا بسبب إفريقيا.

انعطفت حول زاوية المنزل ورأت رجلاً جاثماً أمام الغلاية القديمة الموضوعة في صندوق من القرميد. وتعتبر هذه الغلايات سمات مميزة للمنازل القديمة غير المزودة بالطاقة الكهربائية. وبالرغم من ذلك فهي لا تزال بالتأكيد ضرورية هنا حيث لا توجد طاقة باستثناء تلك التي يزود بها المولد لأنه يبقى من الأرخص بكثير تسخين مياه البيت بسخانة كتلك بدلاً من استخدام التيار المولد بالديزل. فالسخانة تشغل بالحطب من أجل تسخين الماء للحمامات الصباحية.

رآها الرجل تقترب منه فنهض وهو ينفض التراب عن سرواله الكاكي. وحيته السيدة راموتسوي بالطريقة التقليدية. فأجابها بكياسة. وبدا لها رجلاً طويل القامة في أوائل الأربعينات من عمره ويتمتع بملامح قوية ووسيمة.

قالت له مشيرة إلى الوهج الظاهر من السخانة: "إنك تشعل ناراً جيدة هنا، يا سيدي".

فقال لها ببساطة: "إن الأشجار هنا جيدة للإحراق. وهناك كميات وافرة منها. فلا ينقصنا حطب النار أبداً".

أومأت السيدة راموتسوي قائلة: "إذاً، أهذه هي وظيفتك؟".

فعبس قائلاً: "هذه، بالإضافة إلى أشياء أخرى".

لفتت اللهجة التي أدلى بها بملاحظته نظرها، فقالت: "حقاً؟". وبدا لها من الواضح أن تلك الأمور الأخرى ليست موضع ترحيب من قبله. فقالت: "ما هي هذه الأشياء الأخرى، يا سيدي؟".

قال لها: "إنني الطاهي. وأنا مسؤول عن المطبخ وإعداد الطعام".

ورمقها بنظرة دفاعية وكأنه يتوقع إجابة منها.

قالت السيدة راموتسوي: "هذا جيد. من الجيد أن يكون المرء بارعاً بالطهو. فلديهم طهاة راقون جداً في غابورون. إنهم يدعون كبراء طهاة ويرتدون قبعات بيضاء غريبة".

أومأ الرجل برأسه وقال: "لقد اعتدت أن أعمل طاهياً في فندق في غابورون. لم أكن الطاهي الرئيسي، ولكن أحد الطهاة الثانويين. وقد حدث هذا قبل بضع سنوات".

سألته السيدة راموتسوي: "إذاً لماذا أتيت إلى هنا؟". وبدا لها تصرفاً غريباً من جانبه. فالطهاة من أمثاله يتلقون في غابورون أتعاباً أكثر بكثير، حسب اعتقادها، من تلك التي يتلقاها الطهاة الذين يعملون في المزارع.

مد الطاهي ساقه ودفع بقدمه قطعة من الخشب إلى النار.

وقال: "لم يعجبني العمل هناك قط ولم أحب أن أعمل طاهياً آنذاك. ولا زلت لا أحب عملي الآن".

"إذاً لماذا تقوم بهذا العمل، يا سيدي؟".

تنهد، وقال: "إنها قصة صعبة، يا سيدتي. وسيستغرق سردها عليك وقتاً طويلاً. ويجب علي أن أعود إلى العمل عندما تشرق الشمس. ولكن بوسعي أن أخبرك بعضها الآن إن تودي ذلك. اجلسي هناك، يا سيدتي، على جذع تلك الشجرة. نعم، هذا جيد. وسوف أقصها عليك بما أنك تطلبين ذلك.

"إنني من قرية تقع في ذلك الاتجاه قرب التلة، ولكن خلفها بعشرة أميال. ولا يعرف أحد تلك القرية لأنها ليست مهمة ولا يحدث أي شيء فيها. ولا يكترث أحد لها لأن الناس هناك هادئون جداً فلا يصيحون ولا يتسببون بأية فوضى. ولهذا السبب، لا يحدث فيها أي شيء على الإطلاق.

"كانت هناك مدرسة في القرية يعمل فيها مدرس حكيم جداً بالإضافة إلى مدرسين آخرين يساعدانه، ولكنه المدرس الرئيسي والجميع يصغون إليه بدلاً من المدرسين الآخرين. قال لي في أحد الأيام: إنك صبي ذكي جداً، يا سايمون. وتستطيع أن تتذكر أسماء الماشية وأماتها وآبائها كلها. إنك أبرع من أي شخص آخر في هذا الأمر. ويمكن لصبي مثلك أن يذهب إلى غابورون ويعثر على وظيفة محترمة".

"لم أعتبر أن من الغرابة أن أتذكر الماشية لأنني أحب الماشية أكثر من أي شيء آخر. فأردت أن أعمل بالماشية يوماً ما، ولكن لم يكن هناك عمل بالماشية حيث كنت أعيش، لذا توجب علي أن

أفكر بشيء آخر. ولم أظن أنني بارع بما يكفي لأن أذهب إلى غابورون، ولكن عندما بلغت السادسة عشرة من عمري أعطاني المعلم بعض المال الذي أعطته إياه الحكومة. فأنفقته لأشتري تذكرة حافلة إلى غابورون. ولم يكن والدي يملك أي مال، ولكنه أعطاني ساعة عثر عليها في أحد الأيام على ناصية الطريق المعبد. وكانت أغلى ممتلكاته، ولكنه أعطاني إياها وطلب مني أن أبيعها مقابل بعض المال وأشتري الطعام حالما أصل إلى غابورون.

"لم أرغب أن أبيع تلك الساعة، ولكن في نهاية المطاف وعندما أصبحت معدتي فارغة وداهمتني آلام الجوع، توجب علي أن أفعل هذا. فبعتها مقابل مائة بولا لأنها ساعة جيدة وأنفقت المال على الطعام لأشبع جوعي.

"استغرق الأمر عدة أيام إلى أن عثرت على عمل. فلم تكن نقود الطعام التي بحوزتي ستبقى إلى الأبد. وأخيراً، عثرت على وظيفة في أحد الفنادق حيث جعلوني أحمل الأشياء وأفتح الباب للنزلاء. وأحياناً كان بعض النزلاء يأتون من أماكن بعيدة جداً، وهم أناس فاحشو الثراء وجيوبهم ملآى بالنقود. فكانوا يعطونني إكرامية في بعض الأحيان. فادخرت بعض المال في مكتب البريد. وأتمنى لو أن ذلك المال لا يزال بحوزتي.

"بعد مضي بعض الوقت، حولوني إلى المطبخ حيث قمت بمساعدة الطهاة. فاكتشفوا أنني أجيد الطهو وأعطوني زياً موحداً. وهكذا، أمضيت عشر سنوات وأنا أطهو هناك رغم أنني كرهت ذلك العمل. إذ إنني لم أحب تلك المطابخ الحارة ورائحة الأطعمة، ولكنها كانت وظيفتي وتوجب عليّ أن أنجز عملي. وبينما أنا أعمل في الفندق، قابلت شقيق الرجل الذي يعيش هنا. وقد تعرفين عمن أتحدث لأنه ذلك الرجل المهم الذي يعيش في غابورون. قال إنه سيمنحني وظيفة هنا، كمساعد مدير للمزرعة، فسررت كثيراً وقلت له إنني أعرف كل شيء عن الماشية وسأعتني بالمزرعة جيداً.

"أتيت إلى هنا مصطحباً زوجتي التي تنتمي أصلاً لهذا الجزء من البلاد. فسرت من كل قلبها للعودة إلى موطنها. وأعطونا مكاناً جميلاً لنعيش فيه. فأصبحت زوجتي الآن راضية جداً. إنك تعرفين، يا سيدتي، كم من المهم للمرء أن يحظى بزوجة راضية. فإن لم يتمتع بذلك فإنه لن يحظى بأي سلام. كما أن حماتي راضية أيضاً لأنها انتقلت إلى هنا وهي تعيش الآن في مؤخرة المنزل. فأصبحت تغني بسعادة غامرة لأنها مسرورة لوجود ابنتها وأحفادها هنا.

"كنت أتطلع قدماً للعمل مع الماشية، ولكن حالما قابلت الأخ الذي يعيش هنا، سألني عن عملي السابق. فقلت له إنني كنت طاهياً. فسر لسماع هذا وقال لي إنه ينبغي علي أن أطهو في المنزل. إذ إنهم يستضيفون دائماً أناساً مهمين من غابورون وسيثيرون إعجاب ضيوفهم بوجود طاهٍ حقيقي في المنزل. فقلت له إنني لا أريد أن أفعل هذا، ولكنه أجبرني. وتحدث إلى زوجتي فتحيزت

له وقالت إن هذا مكان جيد لنعيش فيه وإن الأحمق فقط من يرفض أن يقوم بما يطلبه أولئك الناس. وبدأت حماتي تنتحب. وقالت إنها امرأة عجوز وستموت إن توجب عليها أن تنتقل من هنا. فقالت لي زوجتي: "هل تريد أن تقتل أمي؟ أهذا ما تريد أن تفعله؟".

"وهكذا، توجب علي أن أعمل طاهياً في هذا المكان. ولا أزال محاطاً بروائح الطهو في حين أنني أفضل أن أكون خارجاً مع الماشية. ولهذا السبب لست راضياً، يا سيدتي، رغم أن عائلتي كلها راضية. إنها قصة غريبة، ألا تظنين ذلك؟".

أنهى سرد قصته ورمق السيدة راموتسوي بنظرة حزينة. فنظرت إلى عينيه، ثم أشاحت بوجهها. وراحت تفكر وتفكيرها يتسارع بكل الاحتمالات التي تثير بعضها بعضاً إلى أن نشأت فرضية في ذهنها فدرستها وتوصلت إلى استنتاج.

نظرت إليه ثانية. وكان قد نهض على قدميه وأغلق باب السخانة. وسمعت، داخل صهريج الماء، وهو عبارة عن برميل وقود تم تحويله لهذا الغرض، صوت بقبقة تسخين الماء. أينبغي عليها أن تتكلم أو أن تلتزم الصمت؟ إن تكلمت، قد تكون مخطئة، وقد يعترض بعنف على ما ستقوله. ولكن إن تراجعت، فقد تفوت تلك اللحظة المواتية، لذا اتخذت قرارها بالكلام.

وقالت: "هناك شيء أود أن أسألك عنه، يا سيدي".

فألقى نظرة خاطفة للأعلى ثم تشاغل مجدداً بترتيب كومة الحطب، وقال: "ما هو؟".

"لقد رأيتك تدس شيئاً في الطعام أمس. إنك لم ترني، ولكنني رأيتك. لماذا فعلت هذا؟".

تسمر في مكانه. وكان على وشك أن يرفع خشبة كبيرة. فقد كانت يداه ممدودتين وكان ظهره محنيًّا وهو يتهيأ لرفع وزنها. ولكن يديه ارتختا عندئذ ببطء ووقف منتصباً.

قال بصوت متهدج يكاد لا يُسمع: "رأيتني؟".

ابتلعت السيدة راموتسوي ريقها، وقالت: "نعم، رأيتك. لقد دسست شيئاً سيئاً في الطعام".

نظر إليها الآن. ورأت أن عينيه اكتسبتا غشاوة وأن وجهه الذي كان حيوياً قبل قليل قد أصبح خالياً من التعبير.

"إنك لا تحاول أن تقتلهم، أليس كذلك؟".

فتح فمه ليجيبها، ولكن لم يخرج منه أي صوت.

شعرت السيدة راموتسوي أن الشجاعة بدأت تواتيها الآن. فقد اتخذت القرار المناسب في الوقت المناسب وتوجب عليها الآن أن تنهي ما بدأته.

"لقد أردت منهم وحسب أن يتوقفوا عن إجبارك على العمل كطاهٍ، أليس كذلك؟ فإن هم شعروا أن نكهة طعامك سيئة، سوف يتخلون ببساطة عن عملك كطاهٍ ويعيدونك إلى العمل الذي تريد القيام به. هذا صحيح، أليس كذلك؟".

فأومأ برأسه.

قالت السيدة راموتسوي: "لقد تصرفت بحماقة شديدة، يا سيدي. فقد كان من الممكن أن تؤذي أحداً".

فقال لها: "ليس مع المادة التي وضعتها. فهي آمنة تماماً".

هزت السيدة راموتسوي رأسها، وقالت: "إنها غير آمنة على الإطلاق".

نظر الطاهي إلى يديه.

وقال: "إنني لست قاتلاً. فأنا لست من ذلك النوع من الرجال".

صاحت السيدة راموتسوي: "من حسن حظك أنني اكتشفت ما تفعله. إنني لم أرك بالطبع، ولكن قصتك فضحت أمرك".

وقال الطاهي: "وماذا الآن؟ ستخبرينهم ويبلغون الشرطة عني. من فضلك، يا سيدتي، تذكري أنني أعيل عائلة. وإن لم أستطع أن أعمل لدى هؤلاء الناس فسوف أجد صعوبة في العثور على وظيفة أخرى الآن. فأنا أتقدم في السن. ولا أستطيع..."

رفعت السيدة راموتسوي يدها لتوقفه. وقالت: "إنني لست من ذلك النوع من الأشخاص. سأقول لهم إن الطعام الذي استخدمته كان فاسداً، ولكنك لم تعرف ذلك. وسأطلب من الأخ أن يعطيك وظيفة أخرى".

قال الطاهي: "لن يفعل ذلك. فقد سبق وطلبت منه".

قالت السيدة راموتسوي: "ولكنني امرأة ولدي أسلوبي الخاص في التعامل مع الرجال".

ابتسم الطاهي وقال: "إنك طيبة جداً، يا سيدتي".

قالت السيدة راموتسوي: "طيبة فوق اللازم!" ثم استدارت متوجهة نحو المنزل. وكانت الشمس قد بدأت تشرق. فاستحالت الأشجار والتلال والتراب نفسه ذهبية اللون. وكان مكاناً جميلاً لأن تمكث فيه. فودت لو أنها تبقى لوقت أطول. ولكن لم يعد هناك الآن المزيد لتقوم به بعد أن أدركت ما يجب عليها أن تخبر به مسؤول الحكومة، ولكن ربما يكون من الأفضل لها أن تعود إلى غابورون لتفعل هذا.

الفصل السابع عشر

فتاة من نوعية ممتازة

لم يصعب على السيدة ماكوتسي أن تدرك أن موتلاميدي فتاة غير مناسبة لإحراز لقب "ملكة الجمال والنزاهة" الهام. ومع ذلك، فما زالت هناك أسماء ثلاث فتيات في اللائحة ستجري مع كل واحدة منهن مقابلة لتصدر حكمها عليها. وقد لا تكن شفافات إلى هذا الحد. ومن النادر للسيدة ماكوتسي أن تكون انطباعاً حيال شخص ما من أول لقاء، ولكن لم يتبادر أي شك إلى ذهنها أن موتلاميدي ببساطة تامة هي *فتاة سيئة*. إن هذا وصف محدد جداً وليست له أي علاقة بوصف *النساء أو السيدات السيئات*، وهما فئتان مختلفتان تماماً. فالنساء السيئات هن النساء الرخيصات أما السيدات السيئات فهن السيدات المسنات الاستغلاليات اللواتي يتزوجن رجالاً أكبر منهن عادة ويتدخلن بشؤون الآخرين من أجل مصالحهن الأنانية. وبالمقابل فوصف *الفتيات السيئات* يشير عادة إلى فتاة صغيرة السن، أي بالتحديد أقل من ثلاثين عاماً، ينحصر اهتمامها بالاستمتاع بوقتها. وهذا هو جوهر الفكرة في الواقع، إنه الوقت الممتع. كما أن هناك فئة تتفرع من فئة الفتيات السيئات، ألا وهي *فتيات الوقت الممتع*. ويمكن إيجاد هؤلاء الفتيات بشكل رئيسي في الحانات بصحبة الرجال المتأنقين وهم يقضون وقتاً ممتعاً على ما يبدو. وبالطبع يعتبر بعض هؤلاء الرجال المتأنقين أنفسهن من بين أولئك الشبان الجذابين، وهذا ما يمنحهم العذر لشتى أشكال السلوك الأناني، ولكن هذا ليس موجوداً في قاموس السيدة ماكوتسي.

أما بالمقابل فهناك *الفتيات الصالحات*. وهؤلاء الفتيات هن اللواتي يعملن بجد ويحظين بتقدير عائلاتهن. فهؤلاء هن من يزرن كبار السن ويعتنين بالأطفال الصغار ويجلسن لساعات تحت إحدى الأشجار ليراقبن الأطفال وهم يلعبون واللواتي يتدربن في الوقت المناسب ليعملن ممرضات أو يخضعن لمنهج تدريبي في السكرتاريا العامة في "كلية بتسوانا للسكرتاريا" كما فعلت السيدة ماكوتسي. وللأسف، فأولئك الفتيات الصالحات اللواتي يحملن نصف العالم على أكتافهن، لا يحظين بالكثير من الوقت الممتع في حياتهن.

لا شك في أن موتلاميدي ليست فتاة صالحة، ولكن السيدة ماكوتسي تساءلت الآن بكآبة: هل هناك إمكانية أن تثبت الأخريات أنهن أفضل منها بكثير؟ إن الصعوبة كمنت في أنه من غير الوارد للفتيات الصالحات أن يدخلن منافسة للجمال في المقام الأول. فهذا، بشكل عام، ليس من نوع الأشياء التي تفكر الفتيات الصالحات بالقيام به. وإن برهن تشاؤمها على أنه مبرر، فماذا ستقول إذاً للسيد بولاني عندما يأتي إليها طلباً لتقريرها؟ فلن يكون من المفيد كثيراً أن تقول له إن جميع الفتيات

سيئات بنفس القدر وليست أي واحدة منهن جديرة باللقب. فهذا لن يشكل أي مساعدة على الإطلاق. وشكت أنها لن تتمكن حتى من أن تطالب بأية أتعاب مقابل تلك المعلومات.

جلست في السيارة مع المتدرب وحدقت بلائحة الأسماء بيأس.

سألها المتدرب: "إلى أين الآن؟". وكانت نبرة صوته فظة بعض الشيء فقط. فقد أدرك أنها لا تزال نائبة المدير على أي حال. وكان وزميله كلاهما يكنان احتراماً كبيراً لهذه المرأة المميزة التي أتت إلى الكراج وقلبت تدريبهم العملي رأساً على عقب.

تنهدت السيدة ماكوتسي، وقالت: "يجب أن أقابل ثلاث فتيات. ولا يسعني أن أقرر إلى من أذهب تالياً".

ضحك المتدرب، وقال: "إنني أعرف الكثير عن الفتيات. فيمكنني أن أقول لك".

رمقته السيدة ماكوتسي بنظرة احتقار. وقالت: "أنت وفتياتك السخيفات! هذا هو كل ما تفكر فيه، أليس كذلك؟ أنت وصديقك الكسول! فتيات، فتيات، فتيات، فتيات..."

ثم أمسكت عن الكلام. نعم، إنه فعلاً خبير بالفتيات. وهذا معروف تماماً. فغابورون ليست مكاناً كبيراً جداً. وهناك فرصة، وهي على الأرجح فرصة كبيرة، أنه يعرف بالفعل شيئاً عن أولئك الفتيات. وإن كن فتيات سيئات، وهن بالتأكيد كذلك، أو فتيات يحببن قضاء وقت ممتع، بعبارة محددة أكثر، فمن المرجح أن يكون قد صادفهن في جولاته على الحانات. أشارت له ليركن السيارة على ناصية الشارع.

"توقف، توقف هنا. أريد أن أريك هذه اللائحة".

توقف المتدرب وأخذ اللائحة من السيدة ماكوتسي وقرأها ثم ابتسم.

وقال بحماس: "هذه لائحة جيدة من الفتيات! إنهن من أفضل الفتيات في المدينة أو ثلاث منهن على الأقل هن كذلك. إنهن فتيات كبيرات، تعرفين ما أقصده. فتيات كبيرات وممتازات! هؤلاء هن الفتيات اللواتي يعجب بهن الشبان كثيراً. نحن نحب هؤلاء الفتيات. آه، نعم، كثيراً!"

انقبض قلب السيدة ماكوتسي. فقد اكتشفت أن حدسها في محله. إن ذلك الشاب يملك الإجابة عن ضالتها المنشودة، وكل ما عليها أن تفعله الآن هو أن تحتال عليه لتأخذها منه.

سألته: "إذاً، أيهن تعرف؟ من هن الفتيات الثلاث اللواتي تعرفهن؟".

ضحك المتدرب، وقال: "أعرف هذه الفتاة التي تدعى ماكيتا. إنها فتاة مرحة جداً وتضحك كثيراً وخاصة إن دغدغها أحدهم. وهناك غلاديس، يا الله! واحد، اثنان، ثلاثة. وأعرف هذه أيضاً، إنها تدعى موتلاميدي، أو أن أخي بالأحرى هو من يعرفها. وهو يقول إنها فتاة ذكية جداً فهي طالبة في الجامعة ولكنها لا تضيع الكثير من الوقت في قراءة الكتب. إنها تتمتع بعقل كبير جداً، ولكنها مهتمة أكثر بإضفاء التألق على مظهرها".

أومأت السيدة ماكوتسي، وقالت: "لقد كنت أتحدث لتوي إلى تلك الفتاة. إن أخاك محق بشأنها. ولكن ماذا عن الفتاة الأخرى، باتريشا، التي تعيش في تلوكوينغ؟ هل تعرفها؟".

هز المتدرب رأسه، وقال: "إنها فتاة غير معروفة. ولكنني واثق من أنها فتاة ساحرة جداً أيضاً. من يدري؟".

أخذت السيدة ماكوتسي الورقة منه ودستها في جيب فستانها. وقالت: "سنذهب إلى تلوكوينغ. يجب أن أقابل هذه المدعوة باتريشا".

خيم الصمت عليهما وهما يتجهان بالسيارة إلى تلوكوينغ. وبدا المتدرب مستغرقاً بالتفكير، فهو ربما يفكر في الفتيات اللواتي في اللائحة، بينما راحت السيدة ماكوتسي تفكر بالمتدرب قائلة في نفسها: إنها لحقيقة مجحفة فعلاً، ولكنها نموذجية تماماً في ظل الظلم الذي يميز العلاقات بين الجنسين، ألاّ يوجد تعبير مثل تعبير *فتاة الوقت الممتع* ينطبق على الشبان الذين على شاكلة هذا المتدرب التافه. إن هؤلاء الشبان سيئون بكل معنى الكلمة، إن لم يكونوا أسوأ من *فتيات الوقت الممتع* أنفسهن، ولكن لا يبدو على أحد أنه ينحى عليهم بأية لائمة. فلا يدعوهم أحد باسم *شبان الحانات*، على سبيل المثال، أو يصف أي شاب فوق الثانية عشرة بأنه *شاب سيئ*. وجرت العادة أن يتوقع المجتمع من النساء أن يتمتعن بسلوك أفضل من سلوك الرجال. ولا مفر من تعرضهن للنقد حين قيامهن بأمور يُرخَّص للرجال القيام بها بحصانة تامة. وهذا ليس وضعاً منصفاً، ولم يكن منصفاً قط، ولن يكون على الأرجح منصفاً في المستقبل. فالرجال يتملصون من أخطائهم حتى لو حاول المرء أن يحملهم تبعتها عن طريق الدستور والقضاء. فالقضاة الرجال سيعتبرون أن الدستور في حقيقة الأمر يقول شيئاً مختلفاً تماماً عن ما هو مكتوب في الصفحة ويفسرونه لمصلحة الرجال. فتصبح عبارة: *كل الناس، رجالاً ونساء، مخولون لمعاملة متساوية في مكان العمل*، على الشكل التالي: *يمكن للنساء أن يحصلن على بعض الوظائف فقط، ولكن لا يمكنهن أداء بعض الأعمال (حماية لسلامتهن) لأن الرجال سيؤدون هذه الأعمال بشكل أفضل منهن على أي حال*.

لماذا يتصرف الرجال على هذا النحو؟ لطالما شكل هذا لغزاً محيراً للسيدة ماكوتسي رغم أن التفسير بدأ يتوضح لها في الآونة الأخيرة. فقد اعتقدت أن لهذا علاقة بالطريقة التي تعامل بها الأمهات أبناءهن. فإن سمحت الأمهات للصبية أن يعتبروا أنفسهم أشخاصاً مميزين، وكل الأمهات يفعلن ذلك، على حد علم السيدة ماكوتسي، فهذا يشجع الصبية على تنمية مواقف لا تبارحهم على الإطلاق. وإن سُمح للصبية الصغار أن يفكروا أن النساء خلقن للعناية بهم، فسوف يستمرون بالتفكير في هذا عندما يكبرون، وهم يفعلون ذلك فعلاً. لقد صادفت السيدة ماكوتسي أمثلة عديدة على هذا ولم تتخيل أحداً يجرؤ على تحدي هذه النظرية بشكل جدي. فذلك المتدرب نفسه مثال حي يثبت صحتها. إذ إنها رأت أمه تأتي إلى الكراج ذات مرة ومعها بطيخة كاملة لابنها وشاهدتها وهي

تقطعها من أجله وتطعمه إياها بطريقة توحي بأنها تطعم طفلاً صغيراً. ما كان ينبغي على الأم أن تفعل هذا بل أن تشجع ابنها على شراء بطيخه وتقطيعه بنفسه. إن هذا بالضبط هو نوع المعاملة الذي يجعله مفتقراً إلى النضج إلى هذا الحد في معاملته للنساء. فهن مجرد ألعوبة بالنسبة إليه يقطعن له البطيخ وكأنهن أمهات بديلات أبديات.

وصلا إلى العقدة رقم 2456 وإلى بوابة المنزل الصغير الأنيق البني اللون الذي ألحق به قن للدجاج وصندوقا حنطة تقليديان في المؤخرة. فظنت السيدة ماكوتسي أن طعام الدجاج يخزن فيهما. فتبعثر الذرة كل صباح في الباحة المكنوسة بأناقة لتلتقطها مناقير الطيور الجائعة بعد إطلاق سراحها من القن. وبدا من الواضح للسيدة ماكوتسي أن امرأة مسنة تعيش هناك إذ لا أحد قد يزعج نفسه للعناية بالباحة بهذه الطريقة التقليدية والحريصة سوى امرأة مسنة. فربما تكون تلك المرأة جدة باتريشا، وإحدى أولئك النساء الإفريقيات المميزات اللواتي يعملن بجد إلى أن يبلغن الثمانين أو أكثر ويشكلن قلب العائلة النابض.

ركن المتدرب السيارة بينما توجهت السيدة ماكوتسي في طريقها إلى الممر المؤدي إلى المنزل. فاستأذنت للدخول، كما يقتضي الأدب، ولكنها ظنت أنهم لم يسمعوها. ثم ظهرت امرأة عند الباب وهي تمسح يديها بقطعة قماش وحيتها بحرارة.

شرحت لها السيدة ماكوتسي مهمتها. ولم تقل إنها صحافية كما فعلت في زيارتها لموتلاميدي. فقد يكون من الخطأ أن تفعل هذا هنا، في هذا المنزل التقليدي، ومع المرأة التي عرفت بنفسها على أنها والدة باتريشا.

قالت: "أريد أن أجمع بعض المعلومات عن الفتيات المشتركات في المنافسة. فقد طلب مني أن أتحدث إليهن".

أومأت المرأة برأسها، وقالت: "يمكننا أن نجلس في المدخل. فهو ظليل. وسوف أستدعي ابنتي. ها هي غرفتها هناك".

أشارت إلى باب في جانب المنزل. فبدا الطلاء الأخضر الذي كان يغطيه سابقاً متقشراً ومفاصله صدئة. ورغم أن الباحة كانت تنال عناية جيدة، فقد بدا المنزل نفسه في حاجة ملحة للتصليح. فظنت السيدة ماكوتسي أن المال غير متوفر لدى أفراد الأسرة. وتساءلت للحظة عما يمكن لمال الجائزة النقدي الذي يعطى للفائزة بمسابقة "ملكة الجمال والنزاهة" أن يعنيه في ظروف كهذه. وكانت الجائزة عبارة عن أربعة آلاف بولا وقسيمة شراء لتنفقها في أحد متاجر الملابس. فاعتقدت السيدة ماكوتسي أن المال لن ينفق عبثاً بعد أن لاحظت حاشية تنورة المرأة المهترئة.

جلست وأخذت فنجاناً من الماء قدمته لها المرأة.

وقالت المرأة: "إن الطقس حار اليوم. ولكن المطر سيهطل عما قريب. وأنا واثقة من هذا".

وافقتها السيدة ماكوتسي قائلة: "سوف تهطل الأمطار. فنحن بحاجة للمطر".

قالت المرأة: "إننا بحاجة له فعلاً. فهذه البلاد بحاجة دائمة للمطر".

"أنت محقة، يا سيدتي".

ساد الصمت للحظة وهما تفكران في المطر. فعندما لا يهطل المطر، يفكر المرء فيه، وهو بالكاد يتجرأ أن يأمل حدوث معجزة. وعندما يهطل المطر يمكن للمرء فقط أن يفكر كم سيدوم. وتذكرت السيدة ماكوتسي كلمات معلمتها في بوبونونغ عندما قالت لهم في أحد الأيام وهي صغيرة: *إن المطر نعمة من الله لعباده. انظروا إليه وهو يهطل، يا أطفال.*

"ها هي ابنتي".

رفعت السيدة ماكوتسي نظرها. وكانت باتريشا قد ظهرت بصمت ووقفت أمامها. فابتسمت للفتاة الشابة التي أسبلت عينيها وقدمت انحناءة بسيطة. ففكرت السيدة ماكوتسي في نفسها: *إنني لست مسنة إلى هذا الحد!* ولكنها تأثرت للحركة التي قامت بها الفتاة.

قالت الأم: "يمكنك أن تجلسي. إن هذه السيدة تريد أن تتحدث إليك عن منافسة الجمال".

أومأت باتريشا برأسها، وقالت: "إنني متحمسة جداً بشأنها، يا سيدتي. أعلم أنني لن أفوز، ولكنني متحمسة رغم ذلك".

فكرت السيدة ماكوتسي قائلة في نفسها: *لا تكوني واثقة من هذا كثيراً*. ولكنها لم تقل شيئاً.

قالت الأم: "لقد خاطت لها عمتها فستاناً جميلاً جداً من أجل المنافسة. وأنفقت عليه الكثير من المال. فقد فصلته من قماش راقٍ جداً. وأصبح فستاناً رائع الجمال".

قالت باتريشا: "ولكن الفتيات الأخريات سيبدون أجمل مني. فهن فتيات ذكيات جداً ويعشن في غابورون. إن إحداهن طالبة في الجامعة، وهي فتاة ذكية جداً".

ففكرت السيدة ماكوتسي قائلة في نفسها: *وسيئة أيضاً*.

عارضتها أمها قائلة: "يجب ألا تفكري أنك ستخسرين. فهذه ليست طريقة للاشتراك بمنافسة. وإن اعتقدت أنك ستخسرين فلن تفوزي أبداً. ماذا إن قال سيريتس خاما: إننا لن نحقق أي شيء، ماذا كان سيحل ببتسوانا اليوم؟ إلى أين سيؤول حالها؟".

أومأت السيدة ماكوتسي برأسها، وقالت: "ليست هناك طريقة لتحديد ذلك. ويجب عليك أن تفكري هكذا: يمكنني أن أفوز. فقد تفوزين. إنك لا تعرفين ما قد يحدث".

فابتسمت باتريشا، وقالت: "أنت محقة. سأحاول أن أكون أكثر تصميماً وسأبذل ما بوسعي".

قالت السيدة ماكوتسي: "هذا حسن. أخبريني الآن، ما تريدين أن تفعلي في حياتك؟".

ساد الصمت للحظة. ونظرت كل من السيدة ماكوتسي والأم بترقب إلى باتريشا.

أجابت باتريشا قائلة: "إنني أود أن ألتحق بكلية بتسوانا للسكرتاريا".

نظرت السيدة ماكوتسي إليها وراقبت عينيها. ولاحظت أنها لا تكذب. فهذه فتاة رائعة وصادقة وإحدى أفضل الفتيات في بتسوانا بدون أي شك.

وقالت: "إنها كلية راقية جداً. وأنا خريجة منها". وتوقفت ثم قررت أن تتابع، فقالت: "في الواقع، لقد حصلت على معدل سبعة وتسعين بالمائة".

أخذت باتريشا نفساً عميقاً. وقالت: "يا الله! إن هذه علامة عالية جداً. لا بد أنك ذكية جداً".

ضحكت السيدة ماكوتسي بتواضع، وقالت: "أوه، كلا، لقد عملت بجد فقط ليس إلا".

قالت باتريشا: "ولكنها علامة جيدة جداً. إنك محظوظة، يا سيدتي، لأن تحظي بكل من نعمة الجمال والذكاء في آن معاً".

لم تعرف السيدة ماكوتسي ما تقول. إذ لم يقل لها أحد من قبل إنها جميلة، أو أن شخصاً غريباً على الأقل لم يقل لها ذلك. فقد قالت لها عماتها ووالدتها إنه ينبغي عليها أن تستغل ما تتمتع به من حسن مظهر، ولكن أحداً لم يقل لها إنها جميلة باستثناء هذه المرأة التي لا زالت في أوائل العشرينات من عمرها وتتمتع بجمال خارق.

فقالت لها: "إنك لطيفة جداً".

وقالت الأم: "إنها فتاة لطيفة. ولطالما كانت كذلك".

ابتسمت السيدة ماكوتسي قائلة: "هذا حسن. أتعرفين شيئاً؟ أعتقد أنها تملك فرصة كبيرة للفوز في تلك المنافسة. وفي الواقع، إنني واثقة من أنها ستفوز. فأنا على يقين تام من هذا".

الفصل الثامن عشر

الخطوة الأولى

عادت السيدة راموتسوي إلى غابورون صباح محادثتها مع الطاهي بعد أن أجرت محادثات مطولة أخرى مع أفراد آخرين في الأسرة. فقد تحدثت إلى الزوجة الجديدة التي أصغت إليها بكآبة وأطرقت برأسها. كما تحدثت إلى السيدة العجوز التي أظهرت في البداية بعض التكبر والتحفظ، ولكنها اعترفت في نهاية المطاف بحقيقة ما قالته لها السيدة راموتسوي واتفقت معها. وعندئذ واجهت الأخ الذي حدق بها وفمه مفتوح على وسعه، ولكنه اقتبس جوابه من أمه التي تدخلت في المحادثة وقالت له بحزم أين يكمن واجبه. وفي النهاية تملكت مشاعر قوية السيدة راموتسوي بعد أن قامت بمجازفات كثيرة، ولكن حدسها أثبت أنه صحيح ونجحت خطتها. ولم يعد هناك سوى شخص واحد موجود في غابورون لتتحدث إليه، ولكن تلك المهمة قد لا تكون سهلة كثيراً، كما كانت تخشى.

كان طريق العودة مبهجاً. فقد أحدثت أمطار اليوم الفائت تأثيراً رائعاً وبدت هناك مسحة من العشب الأخضر تكسو الأرض. وفي بعض الأماكن، انتثرت هنا وهناك برك من الماء انعكست فيها صورة السماء على رقع من اللون الأزرق الفضي. واستقر التراب على الأرض. فربما يكون هذا أكثر الأمور إنعاشاً. إذ إن ذلك التراب الناعم الذي ينتشر في الجو في نهاية الموسم الجاف يدخل في كل مكان ويعلق في كل شيء ويجعل الثياب جافة وغير مريحة.

قادت عائدة مباشرة إلى زيبرا درايف حيث حياها الطفلان بحماسة. فاندفع الصبي إلى سيارة الفان البيضاء الصغيرة وهو يهتف بهجة ودفعت الفتاة كرسيها المتحرك إلى الطريق لتقابلها. وحدق بها من نافذة المطبخ وجهُ خادمتها روز التي قامت على خدمة الطفلين أثناء غيابها الوجيز.

أعدت روز الشاي بينما أصغت السيدة راموتسوي للطفلين وهما يقصان عليها ما حدث معهما في المدرسة. فقد أجريت منافسة وربحت إحدى الزميلات جائزة بقيمة خمسين بولا وكتاب تذكاري. وكسر أحد المدرسين ذراعه فأتى إلى المدرسة بذراعه المصاب معلقاً بسنادة. كما تناولت إحدى الفتيات في الصف الأول أنبوباً كاملاً من معجون الأسنان فمرضت، وهذا ما يجب توقعه تماماً، أليس كذلك؟

ولكن ثمة أخبار أخرى. فقد اتصلت السيدة ماكوتسي من المكتب وطلبت أن تعاود السيدة راموتسوي الاتصال بها حالما تصل إلى البيت، وهذا ما ظنت أنه سيحدث في اليوم التالي.

قالت روز: "لقد بدت منفعلة كثيراً. وقالت إن هناك شيئاً مهماً تريد أن تتحدث إليك بشأنه".

طلبت السيدة راموتسوي رقم كراج تلوكوينغ رود سبيدي موتورز وأمامها فنجان ساخن من شاي الأعشاب يتصاعد منه البخار. وكان الرقم مشتركاً بين المكتبين. فرن الهاتف لفترة من الوقت قبل أن تسمع صوت السيدة ماكوتسي المألوف.

فبدأت قائلة: "معكم كراج تلوكوينغ الأول..." ثم قالت: "كلا، أعني معكم وكالة التحريات النسائية السريعة..."

قالت السيدة راموتسوي: "هذه أنا وحسب. وقد فهمت ما تعنينه".

ضحكت السيدة ماكوتسي وقالت: "إنني أخلط بين الأمرين دائماً. فهذا ما يسببه محاولة إدارة مشروعين في نفس الوقت".

قالت السيدة راموتسوي: "إنني واثقة أنك تديرينهما كليهما ببراعة فائقة".

قالت السيدة ماكوتسي: "حسناً، في الواقع، لقد اتصلت بك لأخبرك أنني قد قبضت لتوي مبلغ أتعاب ضخم جداً يبلغ ألفي بولا لقضية واحدة. كما أن الزبون مسرور جداً".

قالت السيدة راموتسوي: "لقد أبليت بلاء حسناً جداً. سآتي لاحقاً وأرى العمل الجيد الذي حققته. ولكن أريد منك أولاً أن ترتبي لي موعداً. اتصلي بمسؤول الحكومة ذلك وحددي له موعداً ليراني عند الساعة الرابعة".

"ماذا إن كان مشغولاً؟".

"قولي له أن يتفرغ تماماً لأن هذه مسألة مهمة جداً ولا تتحمل الانتظار".

أنهت شرب شايها ثم تناولت شطيرة كبيرة من اللحم حضرتها لها روز. وكانت السيدة راموتسوي قد خرجت عن عادتها في تناول غداء مطهو، خلا عن العطل الأسبوعية. فأصبح يسرها تناول وجبة خفيفة أو كأس من الحليب. ومع ذلك، فهي من محبي السكر، وهذا يعني أن كعكة محلاة أو قطعة من الحلوى قد تتبع الشطيرة. وعلى أي حال، فهي سيدة ذات بنية تقليدية، ولا يتوجب عليها أن تقلق بشأن قياس الفستان على عكس أولئك النساء العصبيات المسكينات اللواتي يطلن النظر في المرآة ويعتقدن أنهن بدينات جداً. ولكن من الذي يحدد قياس الجسم البدين، على أي حال؟ ومن هو المخول لأن يملي على الشخص أي قياس ينبغي أن يرتدي؟ إنه نوع من التسلط يمارسه النحلاء، ولكنها لا تعاني من أي منه. وإن كان أولئك النحلاء مصرين على موقفهم فسوف يتوجب على ذوي القياس الكبير أن يجلسوا عليهم. نعم، فهذا سيلقنهم درساً!

كانت الساعة تكاد تبلغ الثالثة عندما وصلت إلى المكتب. فوجدت المتدربين منهمكين بتصليح سيارة، ولكنهما حياها بحرارة دون أن يبديا لها أياً من الامتعاض المتجهم الذي لطالما أزعجها كثيراً في الماضي.

قالت: "إنكما مشغولان جداً. ويا لها من سيارة جميلة تلك التي تقومان بتصليحها هناك!"

مسح المتدرب الأكبر سناً فمه بكمه. وقال: "إنها سيارة رائعة، فهي ملك لإحدى السيدات. هل تعلمين أن كل السيدات أصبحن يحضرن سياراتهن إلى هنا الآن. إننا مشغولان جداً لدرجة أننا أصبحنا بحاجة لأن نوظف متدربين! هذا سيكون أمراً لطيفاً! فسوف نحظى بمكتب وسيكون هناك متدربون يجرون في الأنحاء وينفذون ما نأمرهم به".

قالت السيدة راموتسوي وهي تبتسم: "إنك شاب مسلٍ جداً. ولكن لا تغتر بنفسك. وتذكر أنك مجرد متدرب وأن السيدة ذات النظارات هناك لا تزال هي المديرة".

ضحك المتدرب، وقال: "إنها مديرة جيدة. ونحن معجبان بها". وتوقف للحظة ثم أمعن النظر إلى السيدة راموتسوي، وقال: "ولكن ماذا عن السيد جي إل بي ميتكوني؟ هل تحسنت صحته؟".

أجابت السيدة راموتسوي قائلة: "لا يزال الوقت مبكراً لأن نعرف. فقد قال الدكتور موفات إن الحبوب ستستغرق أسبوعين لتحدث مفعولاً. فما زال أمامنا بضعة أيام لننتظر قبل أن نعرف نتيجة العلاج".

"هل يحظى بعناية جيدة؟".

أومأت السيدة راموتسوي برأسها. وأوحى لها طرح المتدرب لهذا السؤال بدلالة تبشر بالخير. إذ إنه أظهر لها أنه قد بدأ يبدي بعض الاهتمام بسعادة الآخرين. فربما بدأ ينضج قليلاً. وقد يكون لهذا علاقة بالسيدة ماكوتسي التي علمته وأخاه شيئاً عن القيم الأخلاقية بالإضافة إلى تعليمهما العمل الشاق.

دخلت المكتب ووجدت السيدة ماكوتسي تتحدث على الهاتف.

فأنهت المكالمة بسرعة ونهضت لتحيي مديرتها.

قالت السيدة ماكوتسي وهي تسلمها قطعة من الورق: "ها هي".

نظرت السيدة راموتسوي إلى الشيك. وكان هناك مبلغ بقيمة ألفي بولا على ما يبدو بانتظار وكالة التحريات النسائية الأولى في مصرف "ستاندرد". وقرأت السيدة راموتسوي في أسفل الشيك الاسم الشهير الذي أصابها بالدهشة.

"أهو مدير مسابقات الجمال؟".

قالت السيدة ماكوتسي: "نعم، هذا هو الزبون".

دست السيدة راموتسوي الشيك بأمان داخل ثوبها. وفكرت أن طرق العمل الحديثة كلها جيدة، ولكن عندما يتعلق الأمر بحفظ المال فما زالت هناك طرق يجب أن تعمل على تحسينها.

قالت السيدة راموتسوي: "لا بد أنك عملت بسرعة كبيرة. ما هي طبيعة المشكلة؟ أتتعلق بزوجته؟".

قالت السيدة ماكوتسي: "كلا، إنها تتعلق بالفتيات الجميلات واكتشاف الفتاة الجميلة التي يمكن الوثوق بها".

قالت السيدة راموتسوي: "هذا مثير للاهتمام. ومن الواضح أنك اكتشفت الفتاة المناسبة".

قالت السيدة ماكوتسي: "نعم، لقد اكتشفت الفتاة الملائمة للفوز بالمنافسة".

تحيرت السيدة راموتسوي، ولكن لم يعد أمامها وقت كافٍ للخوض في التفاصيل لأنه توجب عليها أن تهيئ نفسها لموعد السابعة الرابعة. وهكذا، طوال الساعة التالية، تولت أمر البريد، وساعدت السيدة ماكوتسي بأضبرة الأوراق المتعلقة بالكراج. وشربت فنجاناً سريعاً من شاي الأعشاب. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه السيارة السوداء الكبيرة خارج المكتب وترجل منها مسؤول الحكومة، أصبح المكتب مرتباً ومنظماً وجلست السيدة ماكوتسي بجدية خلف مكتبها متظاهرة أنها تطبع رسالة.

قال مسؤول الحكومة وهو يستند في كرسيه ويطوي يديه على بطنه: "إذاً، لم تمكثي هناك طويلاً، لذا أفترض أنك تمكنت من الإمساك بتلك المرأة الشريرة. آمل أنك فعلت هذا!"

ألقت السيدة راموتسوي نظرة خاطفة إلى السيدة ماكوتسي. ولطالما اعتادتا على عنجهية الرجال، ولكن هذا السلوك تجاوز حدود ما هو طبيعي.

قالت بهدوء: "لقد قضيت بالضبط الوقت الذي يلزمني للبقاء، يا سيدي. ثم عدت لأناقش القضية معك".

فتل مسؤول الحكومة شفته، وقال: "أريد إجابة، يا سيدتي. ولم آتِ لأجري محادثة طويلة".

راحت السيدة ماكوتسي تطبع بقوة على الآلة الكاتبة. فقالت السيدة راموتسوي: "في هذه الحالة، يمكنك أن تعود إلى مكتبك. فإما أنك تود أن تسمع ما لدي لأقوله أو أنك لا تود ذلك".

التزم مسؤول الحكومة الصمت، ثم تحدث بصوت منخفض قائلاً: "إنك امرأة وقحة جداً. فربما ليس لك زوج يعلمك كيف تخاطبين الرجال باحترام".

تصاعدت ضجة الآلة الكاتبة بشكل ملحوظ.

وقالت السيدة راموتسوي: "وربما ليست لك زوجة تعلمك كيف تخاطب النساء باحترام. ولكنني لن أمنعك. إن الباب هناك، يا سيدي، وهو مفتوح على مصراعيه. يمكنك الذهاب الآن".

فلم يتحرك مسؤول الحكومة.

"هل سمعت ما قلته، يا سيدي؟ هل سيتوجب علي أن أرميك خارجاً؟ لدي شابان هناك وهما قويان جداً من كل العمل الذي يؤديانه في تصليح المحركات. وهناك السيدة ماكوتسي التي لم تلق عليها التحية حتى بالمناسبة. وهناك أنا. هذا يجعلنا أربعة أشخاص. وسائقك رجل عجوز. إننا نفوقك عدداً، يا سيدي".

ومع ذلك لم يتحرك مسؤول الحكومة، ولكنه راح يحدق بالأرض بثبات.

قالت السيدة راموتسوي وهي تنقر بأصابعها على الطاولة: "ماذا، يا سيدي؟".

رفع مسؤول الحكومة نظره، وقال: "إنني آسف، يا سيدتي. فقد تصرفت بفظاظة".

قالت السيدة راموتسوي: "شكراً لك. والآن، بعد أن تلقي تحية ملائمة على السيدة ماكوتسي، بالطريقة التقليدية من فضلك، يمكننا أن نبدأ".

قالت السيدة راموتسوي لمسؤول الحكومة: "سوف أقص عليك قصة. تبدأ القصة بعائلة لها ثلاثة أبناء. عندما ولد الابن البكر سر الوالد كثيراً أنه أنجب صبياً فمنحه كل ما أراد. وسرت أم هذا الصبي أيضاً أنها أنجبت صبياً لزوجها وبذلت في سبيله كل عناية واهتمام. ثم ولد صبي آخر، ولكنهم أدركوا أن هذا الصبي يعاني من تخلف في عقله فحزنوا كثيراً لهذا. وسمعت الأم الإشاعات التي بدأت تنتشر من وراء ظهرها وتقول إن السبب في وضع الصبي هذا هو أنها كانت على علاقة برجل آخر وهي حامل. وهذا غير صحيح بالطبع، ولكن هذه الكلمات الشريرة كلها طعنتها في الصميم. فأصبحت تشعر بالخزي من أن يراها أحد خارج المنزل. ولكن ذلك الصبي عاش حياته سعيداً، فقد كان يحب أن يقضي وقته بعد الماشية رغم أنه لا يجيد العد كثيراً.

"كان الابن البكر ذكياً جداً فأبلى بلاء حسناً في دراسته. ثم ذهب إلى غابورون وأصبح مشهوراً جداً في مجال السياسة. ولكنه كلما ازداد قوة وشهرة، ازداد غروراً.

"ثم ولد للعائلة ابن آخر. فسر الابن البكر كثيراً لهذا وأحب ذلك الصبي الأصغر. ولكن وراء كل ذلك الحب، اعتمل في صدره خوف من أن يستولي ذلك الصبي الجديد على الحب الذي يتمتع به في العائلة وأن يفضله الأب عليه. وكان كل شيء يقوم به الوالد يدل على أنه يفضل ابنه الأصغر، ولكن هذا ليس صحيحاً بالطبع لأن الرجل العجوز كان يحب كل أبنائه.

"عندما تزوج الابن الأصغر ثارت ثائرة الابن البكر. ولم يخبر أحداً أنه غاضب، ولكن ذلك الغضب راح يغلي في داخله. ومنعه تكبره وغروره من إخبار أحد عنه لأنه أصبح مهماً وعظيماً. وظن أن هذه الزوجة الجديدة ستحرمه من أخيه فيبقى بلا شيء. وظن أنها ستحاول أن تستولي على مزرعتهم وماشيتهم. ولم يزعج نفسه بالتحقق من صحة هذه الظنون.

"بدأ يستولي عليه اعتقاد أن الزوجة تخطط لقتل أخيه الذي أحبه كثيراً. فهجر النوم عينيه بسبب الكره الذي يعتمل في داخله. وأخيراً ذهب لمقابلة سيدة معينة، وأنا تلك السيدة، وطلب منها أن تعثر على دليل يثبت صحة شكوكه. وظن أنها بهذه الطريقة تستطيع أن تساعده بالتخلص من زوجة أخيه.

"لم تدرك تلك السيدة ما يكمن وراء هذا، لذا ذهبت للإقامة مع تلك العائلة التعيسة في مزرعتهم. فتحدثت إليهم جميعاً واكتشفت أن لا أحد يحاول قتل أحد وأن كل ذلك الحديث عن السم

قد حدث فقط لأن هناك طاهياً تعيساً اختلطت عليه الأعشاب. وقد أصبح الطاهي تعيساً بسبب ذلك الرجل الذي أجبره على أداء أعمال لا يريدها. وهكذا تحدثت السيدة التي أتت من غابورون إلى جميع أفراد العائلة فرداً فرداً. ثم عادت إلى غابورون وتحدثت إلى الأخ. فتصرف معها بفظاظة شديدة لأنه اعتاد على التصرف بوقاحة وفِعل ما يحلو له، ولكنها أدركت أن نفس هذا الرجل المتنمر المغرور تخفي شخصاً خائفاً وتعيساً. فظنت السيدة أنها تستطيع أن تخاطب ذلك الشخص التعيس والخائف.

"لقد أدركت بالطبع أنه لن يتجرأ أن يتحدث إلى عائلته بنفسه، لذا فعلت ذلك نيابة عنه. ووصفت شعوره للعائلة وكيف جعله حبه لأخيه يتصرف بغيرة. فتفهمت زوجة الأخ موقفه ووعدت أن تفعل كل شيء ضمن حدود طاقتها لتجعله يشعر أنها لم تحرمه من أخيه المحبوب. ثم تفهمت الأم أيضاً وأدركت أنها وزوجها قد جعلاه يشعر بالقلق حيال خسارة حصته من المزرعة ووعدت أنهما سيهتمان بذلك وسيحرصان على أن يتم تقسيم كل شيء بالتساوي، ولهذا لا يجب عليه أن يخشى ما سيحدث في المستقبل.

"وعدت تلك السيدة العائلة أن تتحدث إلى الأخ في غابورون وتحرص على أن يتفهم موقفهم. وقالت إنها ستنقل إليه أي كلمات قد يرغبون بقولها له. وقالت إن السم الحقيقي بين أفراد العائلات ليس السم الذي يدس في الطعام بل السم الذي ينمو في القلوب عندما يضمر الناس مشاعر الكره والحسد لبعضهم البعض ولا ينفسون عن مشاعرهم ليتخلصوا من ذلك السم.

"وهكذا عادت إلى غابورون وهي تحفظ بعض الكلمات التي أرادت منها العائلة أن توصلها إلى الابن. فكانت كلمات الأخ الأصغر هي: إنني أحب أخي من كل قلبي. ولن أنساه أبداً. ولن آخذ منه شيئاً قط. فالأرض والماشية هي شركة بيني وبينه. أما كلمات الزوجة لهذا الرجل فهي: إنني معجبة بشقيق زوجي ولن أحرمه من حب أخيه الذي يستحق أن يحظى به. وقالت الأم: إنني فخورة جداً بابني. وهناك متسع لنا جميعاً في هذا المكان. وقد تملكني القلق من أن ينشأ ولداي بعيدين عن بعضهما البعض وأن تتدخل زوجتاهما بينهما وتفرقان شمل عائلتنا. ولكنني لم أعد قلقة من هذا بعد الآن. من فضلك اطلبي من ابني أن يأتي إلى هنا ويقابلني قريباً. فليس لدي وقت طويل لأعيش فيه. ولم يقل الوالد شيئاً كثيراً باستثناء قوله: لا يمكن لرجل أن يتمنى أبناء أفضل من هؤلاء".

توقفت الآلة الكاتبة عن الطباعة. وأمسكت السيدة راموتسوي الآن عن الكلام وراقبت مسؤول الحكومة الذي جلس ساكناً تماماً وصدره وحده يتحرك بعض الشيء وهو يشهق ويزفر. ورفع يده ببطء إلى وجهه واتكأ إلى الأمام. ثم رفع يده الأخرى إلى وجهه.

قالت السيدة راموتسوي: "لا تخجل من البكاء، يا سيدي. فهذه هي الطريقة التي تبدأ بها الأمور بالتحسن. إنها الخطوة الأولى".

الفصل التاسع عشر

كلمات تعبر عن إفريقيا

هطلت الأمطار طوال الأيام الأربعة التالية. فكانت الغيوم تتجمع كل يوم ثم يهطل المطر على الأرض من خلال قصف الرعد ولمعان البرق. وأصبحت الطرقات، التي عادة ما تبدو جافة ومغبرة جداً، تفيض بالماء. وتحولت الحقول إلى مساحات متلألئة، ولكن سرعان ما امتصت الأرض العطشى الماء وعاودت الظهور، ولكن الناس أيقنوا على الأقل أن الماء موجود ومخزن بأمان في السد وفي التربة التي حُفرت فيها آبارهم. وبدت الراحة والاطمئنان على الجميع. إذ إن موسماً قاحلاً آخر سيكون شديد القسوة ليحتملوه رغم أنهم سيعتادون عليها، كما لطالما فعلوا. قيل إن الطقس بدأ يتغير. فشعر الجميع أنهم معرضون لخطر الجفاف. ففي بلاد مثل بتسوانا، حيث تعيش الأرض والحيوانات على هامش ضيق جداً، من الممكن لتغيير بسيط أن تترتب عليه نتائج مأساوية. ولكن الأمطار هطلت أخيراً، وهذا هو ما يهم في الأمر.

أصبح كراج تلوكوينغ رود سبيدي موتورز أكثر انشغالاً من ذي قبل. فقررت السيدة ماكوتسي أن الشيء الوحيد الذي يجب عليها أن تفعله، بصفتها نائبة المدير، هو أن توظف ميكانيكياً آخر لبضعة أشهر لترى كيف تسير الأمور، ولهذا نشرت إعلاناً صغيراً في الصحيفة. فتقدم رجل كان يعمل في مناجم الماس بوظيفة ميكانيكي ديزل ولكنه متقاعد الآن وعرض أن يعمل ثلاثة أيام في الأسبوع. فبدأ العمل على الفور وانسجم جيداً مع المتدربين.

قالت السيدة راموتسوي: "سوف يعجب به السيد جي إل بي ميتكوني كثيراً عندما يعود ويقابله".

فسألت السيدة ماكوتسي: "متى سيعود؟ لقد مر أكثر من أسبوعين على غيابه".

قالت السيدة راموتسوي: "سيعود قريباً، ولكن دعينا لا نستعجله".

عصر ذلك اليوم، قادت سيارة الفان البيضاء الصغيرة إلى مزرعة الأيتام وركنتها مباشرة بجانب نافذة مكتب السيدة بوتوكوين. وكانت السيدة بوتوكوين، التي رأتها وهي قادمة من مدخل السيارات، قد سبق ووضعت إبريق الشاي بحلول الوقت الذي قرعت فيه السيدة راموتسوي على الباب.

قالت: "أهلاً بك، يا سيدة راموتسوي، لم نرك منذ بعض الوقت".

فقالت السيدة راموتسوي: "لقد كنت مسافرة. ثم هطلت الأمطار وأصبحت الطرقات طينية كثيراً. فلم أرغب أن تعلق سيارتي في الطين".

قالت السيدة بوتوكوين: "هذا تصرف حكيم جداً. فقد توجب علينا أن نرسل الأيتام الكبار ليدفعوا بضع شاحنات علقت خارج مدخل السيارات لمزرعتنا. وكان هذا صعباً جداً. فأتى كل الأيتام

ملطخين بالطين الأحمر وتوجب علينا أن نغسلهم بالخرطوم في الباحة".

قالت السيدة راموتسوي: "يبدو وكأننا سنحظى بأمطار جيدة هذا العام. إن هذا يبشر بخير عميم للبلاد".

بدأ الإبريق في زاوية الغرفة يصفر فنهضت السيدة بوتوكوين لتعد الشاي.

فقالت: "ليس لدي كعك لأقدمه لك. فقد أعددت كعكة البارحة، ولكن الناس أتوا عليها كلها وكأنه هجوم الجراد".

قالت السيدة راموتسوي: "إن الناس طماعون كثيراً. وقد يكون من اللطف أن أحظى ببعض الكعك، ولكنني لن أجلس هنا وأفكر في الأمر".

شربتا الشاي وصمت مريح يخيم عليهما. ثم تحدثت السيدة راموتسوي.

وغامرت قائلة: "لقد فكرت أنه بوسعي أن آخذ السيد جي إل بي ميتكوني في جولة بالسيارة. هل تعتقدين أنه سيحب الفكرة؟".

ابتسمت السيدة بوتوكوين، وقالت: "سيحبها كثيراً. فقد التزم الهدوء التام منذ أتى إلى هنا، ولكنني اكتشفت أمراً يفعله. وأعتقد أنها دلالة تبشر بالخير".

"ما ذلك الأمر؟".

قالت السيدة بوتوكوين: "إنه يساعد بالعناية بالصبي الصغير، أعني ذلك الصبي الذي طلبت منك أن تكتشفي شيئاً عنه. هل تتذكرينه؟".

فقالت السيدة راموتسوي بتردد: "نعم، أتذكر ذلك الصبي الصغير".

سألت السيدة بوتوكوين: "هل اكتشفت أي شيء؟".

فقالت السيدة راموتسوي: "كلا، لا أعتقد أن هناك الكثير مما يمكنني أن أكتشفه، ولكنّ فكرة خطرت لي بخصوص ذلك الصبي. وهي مجرد فكرة".

وضعت السيدة بوتوكوين ملعقة أخرى من السكر في الشاي وحركتها بلطف بالملعقة.

"نعم؟ ما هي فكرتك؟".

عبست السيدة راموتسوي، وقالت: "لا أظن أن فكرتي ستساعد. في الحقيقة، أعتقد أنها لن تساعد أبداً".

رفعت السيدة بوتوكوين فنجان الشاي إلى شفتيها. وأخذت رشفة طويلة من الشاي ثم أعادت وضع الفنجان بعناية على الطاولة.

وقالت: "أظن أنني أدرك ما تعنيه، يا سيدتي. وأظن أن نفس الفكرة خطرت ببالي. ولكنني لا أستطيع أن أصدقها. فمن المؤكد أنها لا يمكن أن تكون حقيقية".

هزت السيدة راموتسوي رأسها، وقالت: "هذا هو ما قلته لنفسي. إن الناس يتحدثون عن هذه الأمور، ولكنهم لم يثبتوها فعلاً، أليس كذلك؟ فيقال إن هناك أطفالاً بريين وإن شخصاً ما يعثر على أحدهم بين الحين والآخر. ولكن هل أثبت أحدهم على الإطلاق أن الحيوانات هي من ربتهم فعلاً؟ هل هناك أي دليل على صحة هذا؟".

قالت السيدة بوتوكوين: "لم أسمع عن أي دليل يثبت صحته".

"إن أخبرنا أي شخص عن رأينا بهذا الصبي الصغير، فماذا سيحدث عندئذ؟ ستمتلئ الصحف بأخبار عنه. وسيأتي الناس من مختلف أرجاء العالم لرؤيته. وسيحاولون على الأرجح أن يأخذوا الصبي ليعيش في مكان ما ويتمكنوا من التفرج عليه. وقد يأخذونه خارج بتسوانا".

قالت السيدة بوتوكوين: "كلا، إن الحكومة لن تسمح بهذا".

فقالت السيدة راموتسوي: "لا أعرف بهذا الشأن. فربما يفعلون هذا. ولا يمكن أن تكوني واثقة تماماً".

ساد الصمت لبرهة. ثم تحدثت السيدة راموتسوي قائلة: "أعتقد أن هناك مسائل في الحياة يفضل أن تترك دون حل. فلا يجب علينا أن نعرف حقيقة كل شيء".

قالت السيدة بوتوكوين: "أوافقك الرأي. فأحياناً يكون من الأسهل أن تعيشي بسعادة إن لم تعرفي كل شيء".

فكرت السيدة راموتسوي للحظة. إذ بدا لها ذلك اقتراحاً مثيراً للاهتمام. ولكنها لم تكن واثقة من مدى صحته. فهو يتطلب المزيد من التفكير، ولكن ليس الآن. فهناك مهمة أكثر إلحاحاً بين يديها، وهي أن تأخذ السيد جي إل بي ميتكوني إلى موتشودي حيث سيتسلقان الصخور وينظران إلى السهول من الأعلى. وكانت واثقة من أنه سيحب منظر كل تلك المياه وسيبتهج لرؤيتها.

قالت السيدة بوتوكوين: "لقد ساعدنا السيد جي إل بي ميتكوني برعاية الصبي قليلاً. فالقيام ببعض الأعمال يفيده. وقد رأيته وهو يعلمه كيفية اللعب بالمرجام (النقيفة). وسمعته أيضاً يعلمه الكلام ويحفظه بعض الكلمات. إنه طيب جداً معه. وهذه دلالة تبشر بالخير، على ما أعتقد".

ابتسمت السيدة راموتسوي وتخيلت السيد جي إل بي ميتكوني وهو يعلم الصبي البري الكلمات التي تعبر عن الأشياء التي يراها من حوله ويعلمه الكلمات التي تعبر عن هذا العالم وعن إفريقيا.

لم يتواصل السيد جي إل بي ميتكوني كثيراً معها طوال الطريق إلى موتشودي بل جلس في مقعد سيارة الفان البيضاء الصغيرة وراح يحدق من النافذة نحو السهول التي تمر أمام عينيه والمسافرين الآخرين على الطريق. ورغم ذلك فقد أدلى بملاحظات عابرة حتى أنه استفسر عن سير الأمور في الكراج، وهذا أمر لم يفعله أبداً في آخر مرة ذهبت فيها لزيارته في غرفته الهادئة في مزرعة الأيتام.

وقال: "آمل أن السيدة ماكوتسي تسيطر على هذين المتدربين. فهما شابان كسولان جداً لا يشغل تفكيرهما سوى النساء".

فقالت له: "لا تزال بعض المشكلات المتعلقة بالنساء قائمة، ولكنها تحثهما على العمل بجد. فبدآ الآن يبليان حسناً".

وصلا إلى منعطف موتشودي وسرعان ما أصبحا في الطريق الذي يتجه مباشرة إلى المستشفى والصخور الضخمة من خلفه.

قالت السيدة راموتسوي: "أعتقد أنه ينبغي علينا أن نتسلق التلة الصخرية. فهي تطل على منظر جميل. ويمكننا من هناك أن نرى الفرق الذي قد أحدثته الأمطار".

قال السيد جي إل بي ميتكوني: "إنني منهك ولا أقوى على التسلق. اصعدي أنت وسأبقى أنا هنا".

قالت السيدة راموتسوي بحزم: "كلا، سنصعد معاً. هيا، أمسك ذراعي".

لم يستغرق التسلق وقتاً طويلاً. فسرعان ما أصبحا واقفين على حافة الامتداد الكبير من الصخور المرتفعة التي تطل على موتشودي ودار العبادة بسقفها الأحمر المعدني والسهول الجنوبية والمستشفى الصغير الذي تدور فيه معارك بطولية يومية بالاستعانة بمصادر قليلة ضد أعداء أقوياء. وبدا النهر الذي يتدفق بفتور وكسل عريضاً ومتعرجاً وهو يمر في طريقه بمجموعات من الأشجار والشجيرات ومجمعات من الأبنية التي تشكل القرية المبعثرة. شاهدا قطيعاً صغيراً من الماشية يمشي على طول أحد الطرق بجانب النهر. فبدت لهما الماشية من هناك ضئيلة كالدمى، ولكن الرياح راحت تهب باتجاهها، فأصبح بالإمكان سماع صوت أجراسها، ذلك الصوت الناعم البعيد الذي يذكر بقفر بتسوانا ويشبه أصوات الوطن. وقفت السيدة راموتسوي ساكنة. إنها امرأة واقفة على صخرة في بتسوانا. وهكذا تريد أن تكون وذلك هو المكان الذي تحب أن تتواجد فيه.

قالت السيدة راموتسوي: "انظر، انظر إلى هناك. ذلك هو المنزل الذي عشت فيه مع والدي. إنه موطني".

فنظر السيد جي إل بي ميتكوني إليه مبتسماً. لقد ابتسم ولاحظت هي ذلك.

وقالت له: "أعتقد أنك بدأت تشعر ببعض التحسن، أليس كذلك؟".

فأومأ السيد جي إل بي ميتكوني برأسه موافقاً.

إفريقيا
إفريقيا إفريقيا
إفريقيا إفريقيا إفريقيا
إفريقيا إفريقيا
إفريقيا